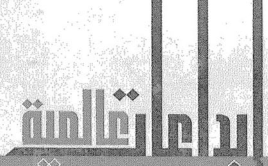




356

رواية «الشباب»

تأليف: ج.م. كويتزي
ترجمة: د. شعبان عبدالعزيز عفيفي
مراجعة وتقديم: د. سليمان خالد الرباح

أكتوبر 2005
تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت



رواية

«الشباب»

تـألـيـف: ج.م. كـويتـزي
ترجـمـة: د. شعبان عبدالعزيز عفيفي
مراجعة وتقديم: د. سليمان خالد الرياح

العدد 356 أكتوبر 2005 [1]



تصدر كل شهرين عن
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

www.kuwaitculture.org
E Mail:
ebdaat_alamia@yahoo.com

سعر النسخة

الكويت ودول الخليج	500 فلس
الدول العربية الأخرى	ما يعادل دولارا امريكيا
خارج الوطن العربي	دولاران امريكيان

الاشتراكات

دولة الكويت

للأفراد	10 د.ك
للمؤسسات	20 د.ك

دول الخليج

للأفراد	12 د.ك
للمؤسسات	24 د.ك

الدول العربية الأخرى

للأفراد	25 دولارا امريكيا
للمؤسسات	50 دولارا امريكيا

خارج الوطن العربي

للأفراد	50 دولارا امريكيا
للمؤسسات	100 دولار امريكي

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب وترسل على العنوان التالي:

السيد الأمين العام
للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص. ب: 28613 - الصفاة - الرمز البريدي13147
دولة الكويت

ردمك: ٠ - ١٧٢ - ٠ - ٩٩٩٠٦
رقم الإيداع: ٢٠.../٢٠٠٥



العنوان الأصلي :
Youth

Written By: J. M. Coetzee

عن دار النشر

Vintage
Random House, 20 Vauxhall Bridge Road,
London SW1V 2SA

الطبعة الأولى - الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، 2005م

إبداعات عالمية - العدد 356

صدر العدد الأول في أكتوبر ١٩٦٩م

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني

(١٩٢٣ - ١٩٩٠)

مقدمة المراجع

يعد جون كويتزي، واحدا من أبرز أعلام الأدب العالمي المعاصر، حيث نال عدة جوائز مرموقة عن رواياته وأعماله الأدبية باللغة الإنجليزية، توَّجها في عام ٢٠٠٣، بحصوله على شهادة نوبل العالمية في الأدب.

وفي روايته «الشباب» الصادرة عام ٢٠٠٣، يستعرض كويتزي سيرة حياته في مرحلة الشباب، وكيف عانى الأمرين في سبيل أن يجد هويته ككاتب روائي متميز، على الرغم من نشأته الصعبة في مجتمع جنوب أفريقيا القائم على مبدأ التمييز العنصري في فترة الستينيات، وتحكي الرواية قصة صراعه الداخلي كواحد من الأقلية البيضاء، وقراره الهروب من هذا المجتمع القائم على الاستعمار الاستيطاني الجائر، والهجرة إلى منابع الأدب الإنجليزي - في العاصمة البريطانية - ليستقر بها ويعمل وينمي قدرته على الكتابة الإبداعية، حيث اعتبرها وسطا ملائما لتنمية موهبته وتحديد هويته الأدبية. وتغطي رواية «الشباب» فترة السنوات الخمس من عمر ١٩ إلى ٢٤ سنة، من حياة الكاتب، وتشكل الجزء الثاني من سيرة جون كويتزي الذاتية، بعد كتابته للجزء الأول عام ١٩٩٧، ويتعرض فيه لمرحلة الطفولة.

ومن السمات المميزة لرواية «الشباب» أن جون كويتزي اتبع أسلوبا مبتكرا في تناوله شخصية «جون» بطل الرواية، فهو لم يستعمل الأسلوب الاعترافي المباشر، ولم يبالغ في تصوير شخصيته كشاب، ولكنه اتخذ زاوية رؤية محايدة ومتجردة، مكنته من معاملة بطله الشاب بموضوعية وواقعية، وصلت إلى حد النقد الذاتي الصريح لعيوب شخصيته المتعددة، التي وقفت عائقا أمام استكمال شخصيته، وأخرت نضجه الفني المرتقب، وبالإضافة إلى أن تأثير هذا المنحى الواقعي في طرح شخصية جون الشاب قد يساعد على تعاطف القراء مع هذه الشخصية، وهي في طور الترقي والنمو عن طريق المحاولة والخطأ مما يعكس حال الغالبية العظمى من جمهور القراء المعاصرين، فإن جون كويتزي يطرح شخصيته كشاب عادي غير واثق بنفسه وموهبته. ورسالة كويتزي إلى القراء هي أنه من أجل الوصول إلى القمة وتحقيق الذات، فلا بد لنا من المعاناة ومواجهة الفشل أحيانا للوصول إلى النضج العاطفي والفني معا.

ففي الصفحات الأولى من الرواية، نجد «جون» الشاب في الحضيض، وهو يعاني فشله المحتمل في أن يصبح كاتبا مرموقا، فيقول: «إن الفشل صعب على الناس العاديين، فالفشل بالنسبة إليهم هو كالحمى التي تنذر بالموت، ويجب التخلص منها في أسرع وقت، ما عدا الكتاب والشعراء، فلا بد

لهم من التعايش مع هذه الحمى والشعور الدائم بأنهم قاب قوسين أو أدنى من الفشل، ولكن هذه الحمى هي بالضبط ما يجعل منهم كتابا مرموقين، فلا بد من إبقاء هذه الحمى مشتعلة وعلى قيد الحياة دائما».

وعلى الرغم من هذا التفكير المتأمل لخوف جون الشاب من الفشل الذريع في الكتابة، فإن الكتاب يصوره على أنه يفشل في العثور على هذه الحمى والشعلة المتوقدة في داخله، حتى بعد الانتقال للعيش في لندن، ومحاولته تقليد مسلك جيل من سبقوه من الكتاب الأعلام، وهو ما كان حلمه طوال عمره، وهكذا يبدأ كويتزي بوصف «جون» الشاب، وهو يصارع إمكان فشله المحتمل في أن يصبح كاتبا يشار إليه بالبنان.

ولأن الرواية برمتها تعد استعراضا لما يلاقيه جون الشاب من مصاعب جمة في مرحلة الشباب، فإنه يبدأ في تشكيل ملامح شخصيته المترددة منذ المشهد الافتتاحي لسيرته الذاتية، فهو يستعرض ملامح الضعف في شخصية جون الشاب الذي ترك منزل العائلة بعد بلوغه الثامنة عشرة، وهو يعمل حاليا في عدة وظائف بسيطة، بينما يواصل دراسته الجامعية في الرياضيات، واللغة الإنجليزية - كتخصص مساند - ويتضح للقارئ من خلال الحوار الداخلي لشخصية جون خوفه الشديد من انفصاله عن جو الأسرة. ففي البداية

يبرر جون اتخاذه لهذا القرار «بأنه يحاول أن يثبت شيئا ...» وهو أن كل رجل جزيرة»، ولكن بعد ذلك بقليل يعترف بضعفه الطفولي: «ما زال ينقصه شيء أساسي... فما زال شيء من الطفل في داخله». ثم يتساءل: «متى يتوقف عن الشعور بأنه طفل كبير؟ وماذا سيشفيه من الطفولة ويجعل منه رجلا؟». ومن قراءة هذه الافتتاحية يتضح للقارئ أن جون الشاب شخص مضطرب، ومتقلب، ومتناقض مع نفسه، فهو يأمل أن يكون رجلا، ولكنه لم يصل إلى مرحلة الرجولة بعد. وطوال الرواية، فإن هذا الإحساس بالحرمان من الدفء العائلي وفقدان الأمان في مواجهة العالم يشكلان مصدر قلق وخوف دائم في حياة جون الشاب. كما يكتشف القارئ من خلال حوار جون مع نفسه أنه درج على تزيين الواقع المر الذي يعيشه، كمحاولة للهروب من الألم الشخصي ومواجهة النفس الصريحة، مما يضفي عليه شيئا من عدم الواقعية، وحتى التلاعب بالحقائق لتبرير واقع الحال.

ومن خلال نزعة التناقض في شخصيته، يتضح لنا أن جون اتخذ من الكذب على نفسه وسيلة لتبرير قراراته، وتعد هذه بلا شك أبرز مظاهر الضعف في شخصية جون الشاب، ويستعرض جون كويتزي ببراعة كيف أدى هذا العيب الشخصي إلى لجوء جون الشاب إلى استعمال الكذب، وعدم الواقعية ليس مع نفسه فقط، بل مع

الآخرين حوله، وذلك لتحقيق مآربه الشخصية؛ فعلى سبيل المثال، نكتشف، منذ الصفحة الأولى، أن جون استعمل الكذب في سبيل تأجير شقته الصغيرة التي يعيش فيها، فعلى الرغم من كونه طالبا جامعيا يعمل في عدة وظائف بسيطة، فإنه يقدم نفسه لمالك العقار على أنه «مساعد أمين مكتبة الجامعة»، وذلك لإعطاء الانطباع الكاذب بأنه شخص محترم، وناضج، ويمكن الاعتماد عليه، ويتكرر هذا السلوك الذي ينم عن ضعف شخصيته في المشاهد اللاحقة للرواية. فهو يكرر تزييف شخصيته وغشه للحصول على العمل في بريطانيا، حتى عندما لا تستدعي الحاجة ذلك، فهو يستعمل الكذب ليعطي نفسه شعورا بالعظمة عند الآخرين. وسلسلة الأكاذيب هذه تكشف لنا عدم ثقة جون في شخصيته إلى درجة لجوئه إلى الاعتماد على قناع زائف مع الآخرين ومع نفسه، وذلك لإظهار شخصيته بصورة قد تكون غير صادقة، لكنها مقبولة اجتماعيا ونفسيا.

وتشكل نزعة الهروب عند جون الشاب ثاني مظاهر الضعف في شخصيته، فهو يهرب من جنوب أفريقيا كما هرب من والديه قبلها، حتى بعد وصوله إلى إنجلترا، فإن عدم صدقه مع نفسه يجهض محاولاته المتعددة في أن يصبح كاتبا، كما أن قلقه الشديد من الفشل ينصب له سورا من البرود

الاجتماعي، وتبلد الإحساس تجاه الرجال والنساء الذين يصادفهم في لندن.

فهو، كمهاجر إلى إنجلترا، شد الرحال من جنوب أفريقيا قاصدا إشباع نزعته الثقافية من خلال وجوده في لندن عاصمة الثقافة والأدب الإنجليزي الصميم، ودائما ما توقع أن هذه التجربة ستفجر طاقاته الإبداعية، وتساعد على نضجه ككاتب، لكنه عندما ذهب فعلا إلى هناك، وبعد مواجهته لواقع الحياة اليومية في لندن، ورتابة العيش والكفاح للحصول على الإيجار الشهري لشقته المتواضعة، فإنه يتخيل أن سكان لندن الأصليين ينظرون إليه كجنوب أفريقي تعيس هارب من أتون التمييز العنصري، جاء للبحث عن هوية أوروبية، ومن هنا نرى أن الكاتب جون كويتزي وضع عدة عراقيل أمام جون الشاب يتعين عليه تخطيها، وذلك في سبيل الوصول إلى النضج الفني اللازم لأن يصبح كاتبا صادقا مع نفسه ومع قرائه، فبالإضافة إلى الحاجة للتغلب على قلق الطفولة الذي لازمه منذ خروجه من منزل العائلة، فإنه يتعين على جون إعادة تقديم نفسه بصورة تختلف عن غيره من مواطني جنوب أفريقيا. وهذا الاستقلال الثقافي ينطوي على العودة إلى منابع الثقافة البريطانية، التي يجدها في كل مكان حوله في لندن. فنجده دائم الزيارة لمكتبة المتحف

البريطاني للاطلاع على أمهات الكتب التراثية، كما يتردد على دار للسينما تدعى Every man.

ويمكننا تفسير نزعة جون المتكررة للهروب بأنها استجابة لمشاعر القلق وعدم الثقة التي تتسم بها شخصيته كشاب. ومن هذا المنظور، فإن هروبه من جنوب أفريقيا مسقط رأسه يتساوى مع هروبه من والديه؛ فنتيجة شعوره الشديد بالخجل من ممارسات التمييز العنصري السائدة آنذاك، فقد تعمد قطع صلته بتاريخ وطنه الأم وصراعه؛ ليستعيض عنه بوطنه الثقافي إنجلترا.

ولكن المفارقة تكمن في أنه كان يستطيع من - واقع خبرته كشاب ترعرع في جنوب أفريقيا - أن ينقل إلى العالم نظرته كشاب أبيض، وعدم موافقته على الممارسات البغيضة للحكومة الجنوب أفريقية، التي أصبحت محل انتقاد العالم الحر، إلى أن وصلت إلى درجة المقاطعة الاقتصادية من غالبية دول العالم في حقبتي الستينيات والسبعينيات، وكان يمكن لجون أن يكون ممثلا لخبرات جيله من الشباب الذين لم يرضوا أن يلطخهم عار الخجل من ممارسات حكومتهم الاستعمارية. ففي بداية الكتاب يقول جون: إنه كاوروبي لا يدعي أي حق مشروع في أرض جنوب أفريقيا. فهو وصديقه بول «هما على هذه الأرض تحت أوهى الذرائع، وبأن شعور الأفارقة السود تجاهه يتسم بخليط من حب الاستطلاع

والشفقة، والشعور العام بأنه كيف يتسنى لهذا الساذج الأبيض حتى مجرد التخيل أنه يستطيع أن يسيطر عليهم بحاد النظرات أحيانا، وبالتعامل الودي أحيانا أخرى، بينما تتضرج الأرض التي يقف عليها بدماء ضحايا العنصرية؟ فالنوايا الحسنة لا تكفي وحدها لحكم هذا البلد الذي عانى الأمرين من الممارسات الوحشية لحكومة التمييز العنصري في حقبة الستينيات».

ولكن جون، من شدة خجله من خلفيته الجنوب أفريقية، يحاول التعلق بالتقاليد الأدبية الأوروبية، وذلك لكي يلمع ككاتب مبدع من كتاب اللغة الإنجليزية، وفي هذا المجال يعتقد خاطئا أن كل ما عليه عمله هو قراءة كتب المشاهير من الأدباء، ومحاولة تقليد أسلوبهم في الكتابة. ولكنه في حقيقة الأمر يواجه صراعا ثقافيا يتمثل في عدم قدرته على التعامل مع أفراد المجتمع الإنجليزي، وعدم فهمهم في كثير من الأحيان؛ ولذلك فهو يجنح إلى التفكير النمطي عندما يفكر في الرجل الإنجليزي العادي. فهو يقول: «إنهم لا يتحدثون أولا يحبون التطرق إلى الحديث عن أمورهم الخاصة أو رغباتهم وطموحاتهم الشخصية، فهم متكتمون بطبيعتهم، ولا يتطرقون إلى أمورهم الذاتية أو عائلاتهم أو نشأتهم، كما لا يحبون الحديث في السياسة أو الدين، أو حتى الفن عموما». وبينما يمكننا اعتبار أن هذه الصفات في

الشخصية البريطانية قد نتجت عن ثقافة محافظة، أو عن تعقيدات الحياة في مجتمع صناعي يغلب عليه التنافس وضيق الوقت، فإنها تسهم في ابتعاد جون وشعوره بالغربة وعدم قدرته على التعبير التلقائي عن مشاعره، فهو يقول عن نفسه: إنه «شخص بارد العواطف وبطيء الاستجابة لما حوله، وميال إلى الروح الانهزامية في كل ما يسعى إلى تحقيقه على الصعيدين الشخصي والعملي».

إن اكتشاف جون للهوة الثقافية والاجتماعية بينه وبين المجتمع البريطاني ساعدت على عدم شعوره بالأمان، والغربة عن كل ما حوله، ولهذا درج الشاب على توهم ما يجب أن تكون عليه حياة الفنان التي يحب أن يعيشها، فهو يقول إن «الفنان يجب أن يمر بجميع التجارب الشخصية من قمة الشرف إلى درك الوضاعة». وإن الذين يعايشون الفنانين باستطاعتهم «رؤية التوهج الخفي الدال على موهبتهم الفنية»، لكن هذه التعميمات الخاطئة تساعده على مواجهة فشله في أن يكون كاتبا مبدعا باستطاعته أن يقدم أعمالا فنية تثري حياة الأجيال المتعاقبة من قراء الإنجليزية. وهكذا نجد أن تجارب جون الشاب في إنجلترا لا تفيد في صقل موهبته كثيرا، حيث لا يستطيع التخلص من عدم ثقته بنفسه، ولا يستطيع بلوغ مرحلة النضج الشخصي، فهو غارق في الأحلام والأوهام في دوامة لا يبدو أنه يستطيع الخروج منها مهما حاول.

ولكن قرب نهاية هذه المرحلة الصعبة من نشأته كشاب، يبزغ بصيص امل يساعده على تجنب حظه العاثر في عدم قدرته على تحقيق ذاته الأدبية. فهو يروي أن السبب المباشر لتركه عمله في شركة الحاسوب العملاقة «IBM» هو عدم قدرته على تحقيق صداقات مع زملائه في العمل. ثم ينتقل إلى عمله الجديد كباحث لتطوير مشروع شركة «أطلس» البريطاني لأبحاث الأسلحة النووية. وهناك يلتقي «جنابي»، وهو فتى مهاجر من الهند قدم إلى بريطانيا للعمل مهندس حاسوب في الشركة نفسها، وهو يجد كثيرا من القواسم المشتركة التي تجمعه مع جنابي. فعندما يزوره في شقته يجده في حالة يرثى لها، وقد تجمعت قشور الموز تحت سريره، ولا يستطيع ترتيب بيته، ويكشف له جنابي أن إهماله الشخصي ناتج عن حزنه الشديد لفراق أمه. فهما في العمر نفسه تقريبا، وكل منهما منغلق على نفسه، وغارق في همومه الشخصية، كأنه مركز الكون. بينما لا يعير مشاعر الآخرين أدنى اهتمام، ولكن كلا منهما حاول تحقيق حلمه بالمجيء إلى بريطانيا والعمل فيها، على رغم اختلاف الثقافات والشعور بالعزلة عن المجتمع، وتشكل هذه المواجهة أولى علامات النضج الشخصي في شخصية جون الشاب، حيث رأى جون كويتزي أن مقدرة الشاب على الإحساس بغيره

من البشر، ومشاركته الوجدانية مع «جنابي» هما علامة على مقدرة جون على التطور خارج إطار نفسه، وانشغاله بمشاكله الصغيرة إلى الاهتمام بشخص آخر. وربما كانت هذه بداية الخروج من الذات والانصهار في هموم وتطلعات غيره من البشر، وهذه من غير شك علامة مميزة من علامات النضج الفني والشخصي معا، اللذين سيلازمان جون كويتزي الكاتب في طريقه إلى النجاح الأدبي الباهر، الذي حققه في مرحلة لاحقة من عمره كرجل.

د. سليمان خالد الرباح

الفصل الأول

يعيش «جون» في شقة صغيرة عبارة عن غرفة واحدة بمنافعها، تقع بالقرب من محطة سكة حديد «موبراي»، ويدفع عنها إيجارا شهريا قدره أحد عشر جنيها إنجليزيا (guinea)(*). وفي آخر أيام العمل من كل شهر يركب القطار إلى داخل المدينة ويتوجه إلى شارع «لوب»، حيث يوجد مكتب شركة الأخوين أ، ب. ليفي للوكالة العقارية، وهو مكتب صغير تعلوه واجهة نحاسية. ويسلم جون ظرفا به الإيجار لأصغر الأخوين السيد ب. ليفي، الذي يقوم بتفريغ المبلغ فوق المكتب غير المرتب، ويقوم بعدّه، ويكتب إيصالا بالمبلغ ووجهه يتصبب عرقا؛ تعبيرا عن الضيق والاشمئزاز، ويعطيه إلى جون قائلا في زهو: «تفضل أيها الشاب العزيز».

وهو يحاول بشتى الطرق ألا يتأخر في دفع الإيجار؛ لأنه استأجر الشقة بادعاءات كاذبة، فعندما وقع العقد ودفع التأمين لم يذكر أن وظيفته «طالب»، بل مساعد أمين مكتبة الجامعة، التي جعل عنوانه عليها.

والواقع أن ما قاله ليس كله كذبا، فمن يوم الاثنين إلى الجمعة يعمل في قاعة المطالعة بالمكتبة خلال ساعات المساء، وهو عمل لا يفضل أمناء المكتبة، ومعظمهم من النساء، القيام به؛ لأن الحرم الجامعي الموجود على جانب التل يكون مقفرا وموحشا ليلا. حتى

(*) عملة قديمة كانت تساوي ٢١ شلنا (المترجم).

أنه يتملكه الخوف عندما يقوم بإغلاق الباب الخلفي ويتحسس طريقه في ظلام دامس، في الممر المؤدي إلى مفتاح الكهرباء الرئيسي - إذ من السهل جدا على أي مجرم الاختباء بين أرفف المكتبة عندما يغادرها العاملون في الساعة الخامسة مساء - ثم يفتش في المكاتب الخالية عن أي شيء يستولي عليه ويتربص له (أي لـ جون) في الظلام لانتزاع المفاتيح من يده.

ولا يتردد على المكتبة في الفترة المسائية إلا عدد قليل من الطلبة، بل إن بعضهم لا يعرف أنها مفتوحة أصلا، ولذلك فهو يكاد لا يفعل شيئا طوال تلك الفترة، بل إن المبلغ الذي يحصل عليه، وهو عشرة شلنات في الليلة، يعتبر الحصول عليه مسألة سهلة.

وأحيانا يتخيل فتاة جميلة ترتدي ثوبا أبيض وتتجول في غرفة المطالعة وتتسكع بعد انتهاء ساعات الدوام، ويتخيل أنه يطلعها على أسرار غرفة التجليد والكتالوجات، ثم يخرجان معا في ليلة تسطع فيها النجوم، ولكن هذا لا يحدث بالمرة.

وعمله في المكتبة ليس هو عمله الوحيد، ففي مساء الأربعاء من كل أسبوع يساعد طلبة السنة الأولى بقسم الرياضيات بالجامعة في مجموعات دراسية (يتقاضى من ذلك ثلاثة جنيهات أسبوعيا)، وفي أيام الجمع يقوم بشرح بعض مسرحيات شكسبير الكوميدية لطلبة دبلوم الدراما (مقابل جنيهين وعشرة شلنات)، وفي ساعات متأخرة من بعد الظهر يقوم بتدريب الطلبة للنجاح في امتحانات القبول بالجامعة في مدرسة أنشئت خصيصا لذلك في «رودنبوش» (مقابل ثلاثة شلنات في الساعة)، كما يعمل خلال

الإجازات في البلدية (قسم الإسكان العام) في استخلاص بيانات إحصائية من البحوث التي تجرى عن الأسر. وعندما يجمع هذه المبالغ كلها يجد نفسه في وضع مريح، يساعده على دفع الإيجار ومصروفات الجامعة وتلبية مطالب الجسم والروح معا، بل يدخر مبلغا صغيرا، وعلى رغم أن عمره لا يتجاوز التاسعة عشرة، فإنه يعتمد على نفسه وليس عالة على أحد.

وهو يلبي احتياجات جسمه من منطلق الفطرة البسيطة، فكل يوم أحد يقوم بسلق عظم كثير النخاع (مواسير) مع الفاصوليا والكرفس؛ ليعد طبقا كبيرا من الحساء يكفيه لمدة أسبوع. وفي أيام الجمع يذهب إلى سوق «سولت ريفر» لشراء صندوق من التفاح أو الجوافة أو أي نوع آخر يتوافر حسب الموسم. وكل صباح يمر موزع الحليب ويترك له عبوة من الحليب أمام الباب، وعندما يتوافر لديه فائض من الحليب يضعه في جراب نايلون قديم ويعلقه فوق حوض غسيل الوجه؛ ليُصفى ماؤه ويتحول إلى جبن. ولكي يكتمل طعامه فإنه يشتري خبزا من المحل الكائن على ناصية الشارع. وهذا نظام غذائي يرضى عنه «روسو»، أو «افلاطون»، أما بالنسبة للملابس فلديه جاكيت وبنطلون، لا بأس بهما، يرتديهما عند ذهابه للمحاضرات، وفي غير ذلك يجعل الملابس القديمة تعمر طويلا عنده.

وهو يثبت شيئا: وهو أن كل رجل عبارة عن جزيرة منعزلة، لا يحتاج إلى والدين.

وفي بعض الأمسيات يمشي متثاقلا على امتداد الطريق الرئيسي مرتديا معطفا للمطر وشورتا وصندلا، والمطر يبلل شعره

فيجعله مستويا، وأضواء السيارات المارة تنعكس على وجهه، وهو يشعر في قرارة نفسه بأن منظره غريب، ولكن ليس شاذا (إذ هناك فرق بين الاثنين).

وهو يعض على أسنانه تعبيرا عن الغم والكدر، ثم يسرع الخطى. وهو ضئيل الجسم وأطرافه مرتخية ومتدلية. وهو يريد أن يبدو جذابا، لكنه متأكد أنه ليس كذلك، إذ إنه يفتقر إلى شيء أساسي وهو عدم وجود ملامح محددة لشكله، وما زال يشعر بالطفولة بداخله، ويتساءل: إلى متى سيظل طفلا، وما الذي سيخلصه من ذلك ويحوله إلى رجل؟

الجواب عن السؤال الأخير هو أن الحب - إن وجد - هو العلاج لذلك، فالمحبوب سيرى على الفور النار التي تستعر بداخله مخترقا مظهره الخارجي الغريب. كما أن كونه غريب المنظر وغير جذاب يعد جزءا من عذاب يجب أن يمر فيه لكي يخرج منه يوما ما إلى النور: نور الحب ونور العين، إذ رسم لنفسه منذ مدة طويلة أن يكون فنانا، ولكن إذا كان لا مفر في الوقت الراهن من أن يكون مغمورا ومثار سخرية، فمرد ذلك إلى أن قدر الفنان أن يتحمل ذلك إلى أن يأتي اليوم الذي تظهر فيه قواه الحقيقية، وتخرس فيه ألسنة المستهزئين والساخرين.

وثمن الصندل الذي يلبسه شلنان وستة بنسات، وهو مصنوع من المطاط في مكان ما في أفريقيا، ربما «نياسا لاند». وعندما يبتل الصندل من المطر تنزلق قدماه منه. وفي «كيب تاون»، يستمر المطر في الشتاء لمدة اسابيع دون توقف. وعندما يسير في الشارع الرئيسي، في أثناء المطر، يتوقف أحيانا لالتقاط الصندل الذي

ينزلق من قدمه. وفي تلك اللحظات يشاهد علية القوم من فئة «البوير» في «كيب تاون»، وهم يضحكون في قرارة أنفسهم، وهم يمرون أمامه بسياراتهم الفاخرة. ويقول لنفسه: اضحك! فسرعان ما سوف أغادر هذا المكان.

وأعز صديق له اسمه «بول» وهو يدرس الرياضيات مثله، وهو طويل وأسمر اللون، وله علاقة بامرأة تكبره سنا اسمها «إلينور لورييه»، وهي ضئيلة الجسم وشقراء وجميلة، وتشبه الطيور في مظهرها ورقتها وصوتها. ويشكو بول لصديقه من تقلباتها المزاجية، وعلى رغم ذلك فإن جون يحسده ويتمنى أن تكون له صديقة جميلة تدخن السجائر من خلال مبسم وتتحدث الفرنسية، وذلك كفيل بأن يحوله إلى شخص آخر بل وبملامح مختلفة.

وقد ولدت «إلينور» وشقيقتها التوأم في إنجلترا، وسافرتا الى جنوب أفريقيا في سن الخامسة عشرة، بعد انتهاء الحرب، ويقول بول نقلا عن «إلينور» إن أمهما كانت تحرض إحداهما ضد الأخرى، وتعبر عن حبها ورضاها عن إحداهما ثم تنقل ذلك إلى الفتاة الأخرى، مما يصيبهما بالحيرة ويجعلهما يعتمدان عليها، وإلينور هي الأقوى، وقد حافظت على سلامتها العقلية، وان كانت تبكي وهي نائمة، وتحتفظ بدمية صغيرة بجوار السرير. أما أختها فكانت مصابة بلوثة عقلية لبعض الوقت، وكانت تحبس في إحدى الغرف. وهي لا تزال تتلقى العلاج، ولا يزال شبح المرأة العجوز المتوفاة يطاردها.

وتعمل إلينور مدرسة في إحدى مدارس اللغات في المدينة،

ومنذ أن تعرفت على بول وهو يصاحبها في التقائها بمجموعة من الفنانين والمثقفين الذين يعيشون في منطقة «الحدائق»، والذين يرتدون بلوفرات سوداء وبنطلونات جينز وصنادل، ويحتسون نبيذا أحمر رخيصا، ويدخنون سجائر «جولواز»، ويرددون عبارات من «كامو» و«جارسيا لوركا»، ويستمعون إلى موسيقى جاز حديثة، ويعزف أحدهم على الجيتار الإسباني، ويمكن إقناعه بعزف قطعة تقليدا cante hondo. ونظرا لأنهم لا يعملون في وظائف حقيقية بمعنى الكلمة؛ فإنهم يسهرون الليالي وينامون حتى الظهيرة، وهم يكرهون القوميين Nationalists ذوي التوجهات، إلا أنهم ليسوا مهتمين بالشؤون السياسية، ويقولون إنه لو توافر لهم المال لخرجوا من جنوب أفريقيا المتخلفة، التي تعيش في الجهل والظلام، ولانتقلوا للعيش على الدوام في مونتمارتر أوجزر Belearic.

وذات يوم يطلب «بول» و«إلينور» من جون أن يحضر معهما أحد اللقاءات التي تجمعهما بالآخرين، وذلك في كوخ صغير من طابق واحد يقع على شاطئ كليفتون، وكان من بين الموجودين شقيقة إلينور غير المستقرة عقليا، التي سبق أن سمع عنها، والتي عرف من بول أنها على علاقة مع صاحب الكوخ، وهو رجل وجهه متورد، شديد الاحمرار - ويكتب في جريدة «كيب تايمز».

واسم هذه الأخت جاكلين، وهي أطول من «إلينور»، وليست رقيقة الملامح مثلها، ولكنها جميلة رغم ذلك. وهي مليئة بالطاقة العصبية وتدخن بشراهة، وعندما تتحدث تعبر بالحركة والإشارة. ويجد جون راحة في الحديث معها، لأن لسانها ليس لاذعا مثل

«إلينور»، فهو يتضايق من أصحاب الألسنة اللاذعة، لأنه يظن أنهم يتندرون عليه، ويتبادلون النكات عنه من وراء ظهره وفي غيابه.

وجاكلين في الثلاثين من عمرها، وهي امرأة جذابة تعمل ممرضة، ولكنها تقول إنها ليست ممرضة عادية، فقد تدربت في مستشفى «جاي» بلندن على أعمال توليد النساء، وهي لا تعمل في مستشفى «جروت شور» العام بل في دار للمسنين. وهي تعيش في سكن الممرضات، وبين الحين والآخر تنتظر «جون» على باب السكن ثم يخرجان للنزهة معا. وتستمر هذه العلاقة العاطفية لبعض الوقت، إلى أن تشعر بأنه لم يعد يهتم بها فتتوقف عن لقائه، وتنتهي العلاقة عند هذا الحد.

ويرى «جون» أن الرومانسية جزء من حياة الفنان، لأن الفن لا يتغذى على الحرمان والوحدة والشوق والحنين، فـ بيكاسو، الفنان العظيم، بل ربما أعظم فنان على الإطلاق، مثال حي على ذلك؛ فقد وقع في غرام عدة نساء، واحدة تلو الأخرى، وقد ألهمته هذه العلاقات العاطفية رسم لوحات فنية رائعة. ولكن ماذا عن «جون»؟ هل يضمن أن تلهمه الفتيات اللائي يقيم علاقات عاطفية معهن - وليس جاكلين فقط، بل كل النساء في خياله - أعمالا فنية أيضا؟ هو يريد أن يصدق ذلك، ولكنه يشك فيه؛ فالزمن وحده هو الكفيل بأن يحكم على أنه أصبح فنانا عظيما أم لا، ولكن هناك شيئا مؤكدا وهو أنه ليس بيكاسو، فأحاسيسه تختلف عنه، فـ بيكاسو أكثر هدوءا وتشاؤما وتحضرا، وعيناه السوداوان لهما مفعول السحر، وإذا حاول جون تغيير شكل المرأة فلن يصورها بالقسوة التي صورها عليها بيكاسو، وجعلها تنثني وتتلوى

كما لو كانت معدنا منصهرا. وعلى أي حال فإن الكتاب يختلفون عن الرسامين؛ فهم أكثر إصرارا وتصميما ومهارة ودقة منهم.

وهل قدر النساء اللواتي يعرفن فنانين أن تظهر كل حسناتهن أو سيئاتهن على شكل أعمال فنية؟ وتخطر على باله شخصية «هيلين» في رواية «الحرب والسلام»، فهل بدأت كإحدى صديقات تولستوي؟ وهل كانت تتخيل أنها بعد أن تموت سيقع في حبها رجال لم تقع أعينهم عليها بالمرة؟

الفصل الثاني

استيقظ جون متأخرا ذات يوم، حيث فاته حضور محاضرة الساعة الثامنة صباحا، وليست هذه المرة الأولى منذ أن دخلت جاكلين حياته، وبدأ يتأخر في دراسته، ولا يعرف كيف يلحق بزملائه، وفي خلال السنتين الأوليين لالتحاقه بالجامعة كان واحدا من أنبغ الطلبة، ولم يجد أي صعوبة في الدروس، وكان دائما يسبق المحاضر بخطوة في الدرس، ولكن غلفت ذهنه غشاوة في الفترة الأخيرة، وأصبحت دروس الرياضيات أكثر حداثة وتجريدا، ولذلك بدأ يتعثر في دراسته، وأمكنه متابعة شرح الأساتذة على السبورة خطوة خطوة، إلا أنه لم يعد يفهم خلاصة الموضوع أو المضمون العام له. وكان يصاب بنوبات من الذعر والهلع أثناء المحاضرات، وكان يبذل قصارى جهده لإخفاء ذلك.

ومن الغريب أنه كان الطالب الوحيد الحزين بسبب هذه المشكلة، في حين أن باقي الطلبة من زملائه المثابرين على الدراسة، رغم صعوبتها، لم يجدوا مشكلات غير عادية، وقد تدنت درجاته شهرا بعد شهر، في حين ظلت درجات زملائه على ما كانت عليه، وأما الطلبة النابغون - الحقيقيون - فقد سبقوه وتركوه يسير في أعقابهم.

وهذه أول مرة في حياته يجد لزاما عليه أن يستجمع أقصى طاقاته، فحتى عندما لم يكن في أحسن حالاته كان في مستوى

لا بأس به، والآن يجد نفسه في صراع من أجل البقاء، فهو إن لم يكرس نفسه كلها للدراسة، فسوف يغرق.

ولكن تمر أيام بأكملها، وهو يعاني إرهاقا شديدا، ويلعن نفسه، لأنه انغمس في علاقة كلفته الكثير، ويتساءل: إذا كانت حالته كذلك بسبب صداقته لفتاة، فكيف ينجح «بيكاسو» والآخرون في مثل هذه الصداقات؟ وهو ببساطة لا يمتلك الطاقة اللازمة للتنقل من محاضرة إلى أخرى، ومن وظيفة إلى وظيفة، وبعد أن ينتهي من ذلك يهتم بامرأة متقلبة المزاج بين الشعور بطعم السعادة، ونوبات من الاكتئاب، وتتحرك فيها بعنف وعصبية، وتطيل التفكير في الحياة بما فيها من أحقاد وضغائن.

وعلى رغم أن علاقته انتهت بجاكلين، فإنها أحيانا تلتقي به وتعاتبه على بضع كلمات سبق أن تفوّه بها، ولم تفهم معناها إلا أخيرا، وأحيانا تشعر أنها في حالة نفسية سيئة، وتريد أن تتحدث إليه للترويح عن نفسها، ولكن أسوأ يوم تلتقي به هو اليوم التالي للعلاج، إذ إنها تظل تردد المرة تلو الأخرى ما حدث في عيادة الطبيب المعالج وتبكي.

وقالت له ذات مرة، وهي تنفث دخان السيجارة: «يجب أن تتلقى العلاج أنت أيضا»، فيرد عليها قائلا: «سأفكر في ذلك»، فهو يدرك الآن أنه لم يعد هناك شيء يخجل منه.

والواقع أنه لا يفكر في الذهاب للعلاج، فالهدف من العلاج النفسي جلب السعادة للمريض، ولكن ما جدوى ذلك؟ فالسعداء ثقيلو الظل، والأفضل هو أن نتقبل عبء التعاسة، ونحاول أن نحولها إلى شيء مفيد كالشعر أو الموسيقى أو الرسم، فهذا هو ما يؤمن به.

وعندما تقابله جاكلين يحاول أن ينصت إليها في ضجر، ولكن تكرار ما تقوله من كلمات متناقضة يجعله في النهاية لا يعيرها أذنا صاغية، إذ كثيرا ما تتحدث عن ضياع نفسها الحقيقية بسبب اضطهاد أم طاغية أحيانا، وأب تخلى عن أسرته أحيانا أخرى، وطبيب نفسي قاس في بعض الأحيان، وجون لا يصدق ما تقوله.

وذات مساء، يذهب إلى شقة بول حيث يجده يتأهب للذهاب إلى بيت والدته في «سانت جيمز»، لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، واقترح عليه أن يذهب معه، ولو ليوم السبت فقط.

وكانا قيد أنملة من اللحاق بالقطار الأخير، ولكن فاتهما، فاضطرا إلى السير على الأقدام مسافة اثني عشر ميلا. وكان الجو جميلا في تلك الليلة، فما المانع من ذلك؟

ويحمل «بول» حقيبة على ظهره (جربندية)، وكذلك الكمان الخاص به، الذي يقول إنه يحمله معه لأنه من الأسهل أن يعزف عليه في «سانت جيمز»، حيث البيوت غير متلاصقة، فلن يزعج أحدا.

وقد تعلم بول العزف على الكمان منذ طفولته، إلا أنه لم يتعمق في ذلك، ويبدو أنه راض تماما بعزف الموسيقى الصاخبة نفسها التي كان يعزفها منذ عشر سنوات، وطموحاته كموسيقي تتجاوز ذلك بكثير، فهو يحتفظ في شقته بالبيانو الذي اشترته له أمه عندما كان في الخامسة عشرة من عمره، إذ بدأ يطالب بتلقي دروس في البيانو، إلا أن تلك الدروس لم تكن ناجحة، إذ لم يكن لديه من الصبر ما يجعله يتقبل طرق

التدريس البطيئة والخطوة خطوة من قبل المدرس، وعلى رغم ذلك، فهو مصمم على أن يأتي اليوم الذي يقوم فيه بعزف موسيقى بيتهوفن، عمل رقم ١١١ - ولو عزفا رديئا - ثم بعد ذلك النوتة الموسيقية التي أعدها «بوسوني»، المعزوفة «تشاكون»، من مقام الصغير لـ باخ، وهو مصمم على تحقيق هذه الأهداف دون المرور كالمعتاد على «تشيرني»، و«موتسارت»، وبدلا من ذلك سيعزف هاتين القطعتين بمفرده ودون توقف، وذلك من خلال دراسة النوتة الموسيقية أولا وعزفهما ببطء شديد، ثم زيادة سرعة الإيقاع بعد ذلك كلما تطلب الأمر ذلك، وهذه هي طريقته الخاصة في تعلم البيانو، التي اخترعها لنفسه، وهو يرى أنه ما دام يسير على البرنامج الذي وضعه لنفسه، دون كلل أو ملل، فسوف تنجح هذه الطريقة.

إلا أنه يكتشف أنه كلما حاول التقدم في تعلم البيانو، ومع زيادة السرعة يشعر بتقلص في الرسغ وتيبس في الأصابع، بحيث لا يستطيع العزف بالمرة، ثم يصاب بحالة هيجان، ويضرب بقبضة يده على أصابع البيانو ويصاب بنوبة يأس.

ومع منتصف الليل، لم يصلا إلى أبعد من «ويتبرج»، وقد توقفت حركة السير تماما، وأصبح الشارع الرئيسي خاليا، إلا من أحد عمال نظافة الشوارع، يحمل المكنسة.

وعند وصولهما إلى منطقة «ديب ريفر»، يمر أمامهما موزع حليب يركب عربة تجرها الخيول، ويتوقفان لمشاهدته، وهو يشد لجام الحصان لإيقافه، وينزل من العربة، ويركض بخطوات سريعة

في ممر بإحدى الحدائق، ويضع على الأرض زجاجتين من الحليب، ويلتقط الزجاجات الفارغة، ويضع النقود في جيبه، ثم يعود إلى العربة.

ويقول بول لموزع الحليب: «أعطني زجاجة حليب من فضلك؟»، ويعطيه أربعة بنسات، وينظر موزع الحليب إليهما مبتسما وهما يشربان الحليب، وهو شاب صغير ووسيم وممتلئ حيوية ونشاطا، ويبدو أن الحصان الأبيض الكبير بحوافره المتسخة لا يبالي كسيده من وجوده في منتصف الليل.

ويتعجب «جون»، فجميع الأعمال التي لم يكن يدري عنها شيئا تجري والناس نيام: نظافة الشوارع وتوصيل الحليب إلى المنازل، ولكن هناك نقطة واحدة تحيره: لماذا لا يتعرض الحليب للسرقة؟ ولماذا لا يوجد لصوص يتتبعون خط سير موزع الحليب ويسرقونه؟ وفي بلاد يعتبر فيها التعدي على ممتلكات الغير جريمة، وكل شيء معرض للسرقة، فما الذي يجعل الحليب غير معرض للسرقة؟ هل السبب أن الحليب رخيص جدا؟ وهل لدى اللصوص معايير للسلوك؟ أم هل يشفق اللصوص على موزعي الحليب، ومعظمهم من صغار السن، ومن السود، ولا حول لهم ولا قوة؟

وهو يريد أن يقتنع بالتفسير الأخير، وأن الناس يشفقون على السود، وعلى قدرهم ونصيبهم، وأن لدى الناس رغبة في التعامل مع السود بشرف وكرامة لتعويضهم عن قسوة القانون، ولكنه يعلم أن الأمر ليس كذلك، فبين السود والبيض توجد فجوة كبيرة ثابتة، أعمق من الشفقة، وأعمق من التعامل بشرف وكرامة، بل وأعمق من حسن النية. يدرك الطرفان أن أشخاصا مثل بول ومثله، مع

ما لديهما من أجهزة بيانو وكمان، موجودون على هذه الأرض، أرض جنوب أفريقيا، وفقا لحجج وذرائع واهية.

وموزع الحليب هذا نفسه، الذي كان قبل عام ولدا صغيرا يرعى الماشية في أعماق «ترانسكي»، لا شك أنه يعرف ذلك، والواقع أنه يشعر من احتكاكه بالأفارقة عموما، بل حتى بالملونين، برقة وحنو غريبين ينبعان منهم: الإحساس بأنه ساذج وفي حاجة إلى الحماية، إذا تخيل أنه يستطيع أن ينجح في حياته على أساس النظرات المستقيمة والمعاملات الشريفة، عندما تكون الأرض تحت قدميه غارقة في الدماء، وصرخات الغضب تتصاعد من أعماق التاريخ، وهو يتساءل: إذا كانت هناك أسباب أخرى تجعل هذا الفتى، مع نسائم الصباح الأولى، يمسح بيديه على رأس الحصان، ويبتسم برقة وهو يشاهدهما يشربان الحليب؟

وأخيرا، يصلان إلى المنزل في «سانت جيمز» مع بزوغ الفجر، وبمجرد وصولهما يستلقيان على أريكة، ويستغرقان في نوم عميق إلى أن توقظهما أم «بول»، وتقدم لهما طعام الإفطار في شرفة تطل على منظر عام لـ «فولسي باي».

ويندمج «بول» في حديث طويل مع أمه يشارك فيه «جون» بسهولة. وأم بول مصورة فوتوغرافية، ولها استديو خاص بها، وهي هيفاء القوام وأنيقة المظهر، وصوتها أجش بسبب التدخين وتبدو متوترة، وبعد أن تناولا الإفطار استأذنت في الانصراف لانشغالها في عملها.

ويقوم «جون» و«بول» بجولة على الشاطئ، ويسبحان ثم يعودان ويلعبان الشطرنج، ثم يعود «جون» إلى منزله بالقطار، وكانت تلك

أول لمحة عن حياة «بول» العائلية، وكان يحسده على ذلك، فلماذا علاقته بأمه جيدة وعادية؟ وكان يتمنى أن تكون أمه مثل أم «بول»، وأن تكون لها حياتها الخاصة خارج نطاق الأسرة الضيق.

وقد هجر «جون» منزله هربا من ظلم الأسرة له، وهو نادرا الآن ما يرى والديه، ولا يزورهما على رغم أنهما يعيشان على مقربة منه، ولم يقم باصطحاب بول، أو أي من أصدقائه، ناهيك عن جاكلين، لزيارة والديه والتعرف عليهما، والآن وبعد أن أصبح لديه دخله الخاص، فإنه يستغل استقلاليته في استبعاد والديه من حياته، وهو يعلم أن أمه تشعر بالضيق والحزن، بسبب جمود عواطفه تجاهها، ذلك الجمود الذي رد به على حبها له طوال حياته. فطوال حياته كانت أمه تريد أن تدلله، وكان هو يقاوم ذلك، وهي غير مقتنعة بأن لديه ما يكفيه من المال لكي يعيش بمفرده، ولكنه يؤكد عكس ذلك، ففي كل مرة تراه تحاول دس مبلغ من المال، جنيه أو جنيهين في جيبه، قائلة: «مبلغ بسيط»، ولو أتيحت لها نصف فرصة لقامت بخياطة ستائر لشقته، وأخذ ملابسه المتسخة لتنظيفها، ويقول لنفسه يجب أن يكون قلبه قاسيا نحوها، فليس هذا الوقت الذي يتساهل فيه أو يثق في الآخرين.

الفصل الثالث

يقرأ «جون» الآن كتاب «رسائل أيزرا باوند». وكان أيزرا باوند قد فصل من وظيفته في كلية «واباش» بولاية إنديانا الأمريكية بعد اكتشاف وجود امرأة في شقته في الكلية، وقد غضب «باوند» من هذا التصرف، الذي اعتبره يعبر عن ضيق أفق وترك أمريكا بأكملها احتجاجا على ذلك، وسافر إلى لندن، حيث تزوج فتاة جميلة اسمها «دوروثي شكسبير»، ثم سافرا معا للعيش في إيطاليا. وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية اتهم بمساعدة المنظمات الفاشية، والمشاركة في أعمالها، ولكي يهرب من عقوبة الإعدام ادعى الجنون وأودع مستشفى للأمراض العقلية.

والآن - في عام ١٩٥٩ - وبعد أن خرج من المستشفى وأصبح حرا عاد مرة أخرى إلى إيطاليا، حيث لا يزال منهمكا في مشروع عمره وهو «الأناشيد»(*). وجميع «الأناشيد» التي نُشِرت حتى الآن موجودة بمكتبة جامعة «كيب تاون»، وهي صادرة في طبعات «فابر»، وبخطوط مكونة من أحرف سوداء جميلة، تتخللها بين الحين والآخر أحرف صينية كبيرة، مثل دقات على قرص نحاسي، وهو منغمس تماما في قراءتها بل ويعيد قراءتها المرة تلو الأخرى، «متخطيا» الأجزاء المملة التي كتبها «باوند» عن «فان بورين» و«مالايتستا»، مستعينا بكتاب ت.س.إليوت عن باوند كدليل يسترشد به. وقد أطلق ت.س.إليوت بكل نبل ومروءة على «باوند»

(*) الأناشيد Cantos أي الأقسام الرئيسية من قصائد طويلة (المترجم).

لفظ «الصانع الماهر». وبقدر ما يعجب جون بمؤلفات إليوت في حدٍّ ذاتها، فإنه يرى أن إليوت على حق.

وقد تعرض «أيزرا باوند» للاضطهاد معظم حياته: فقد جرى نفيه ثم سجنه ثم طرده من وطنه للمرة الثانية. وعلى رغم أنه اعتبر مجنونا فقد أثبت أنه شاعر عظيم، بل وأعظم من «والت ويتمان». وقد أطاع باوند شيطان الشعر وضحى بحياته في سبيل فنه، وقد فعل إليوت الشيء نفسه. وإن كانت معاناته ذات طبيعة خاصة أكبر، وقد عاش كل منهما حياة مليئة بالأسف والندم وأحيانا بالخزي والعار. وقد استفاد «جون» من هذا الدرس متأثرا بكل صفحة من أشعارهما، من أشعار «إليوت» أولا، الذي التقى كثيرا به عندما كان لا يزال طالبا بالمدرسة، والآن يلتقي بشعر باوند، وهو، شأنه شأن باوند وإليوت، يجب أن يكون مستعدا لتحمل كل ما تخبئه له الأيام، حتى لو كان ذلك يعني النفي والوظائف المتواضعة والعار والشنار. وإذا لم ينجح في أعظم اختبار للفن، وإذا ما اتضح أن كل ما يقوم به يفتقر إلى الموهبة الحقيقية: فسيكون لزاما عليه حينئذ أن يتحمل ذلك أيضا: حكم التاريخ الأزلي، وقدره في أن يكون صغير المقام، على رغم كل معاناته في الحاضر والمستقبل. فالكثيرون يستدعون، ولكن القليلين هم الذين يختارون. فمقابل كل شاعر عظيم توجد حفنة من الشعراء الأقل قدرا، كحشرات البرغش تحوم بأزيزها حول الأسد.

وحبه لـ «باوند» لا يشاركه فيه إلا واحد فقط من أصدقائه وهو «نوربرت». وقد ولد «نوربرت» في تشيكوسلوفاكيا ثم سافر

إلى جنوب أفريقيا عقب انتهاء الحرب، وهو يتحدث الإنجليزية بلكنة ألمانية بسيطة. وهو يدرس الهندسة لكي يصبح مثل والده، ويرتدي ملابس أوروبية أنيقة ذات طابع رسمي، ويغازل فتاة جميلة من أسرة عريقة بأسلوب مهذب، ويخرج معها للتنزه في شوارع المدينة مرة كل أسبوع، ويلتقي «جون» بـ «نوربرت» في إحدى صالات الشاي القائمة فوق منحدرات الجبل، حيث يتبادلان التعليقات حول أحدث ما كتبه كل منهما من قصائد، ويقرأ أحدهما للآخر فقرات من شعر «باوند».

وقد وجد «جون» أنه من الطريف أن «نوربرت»، الذي سيصبح مهندسا، وأنه هو (أي جون) سيصبح عالم رياضيات، كلاهما من مريدي أو تلاميذ ايزرا باوند، في حين أن الطلبة الآخرين، الذين يعرفهم ويريدون أن يصبحوا شعراء ويدرسون الأدب ويشرفون على إصدار المجلة الأدبية للجامعة، متأثرون بـ «جيرارد مانلي هوبكنز».

و«جون» نفسه درس مقتطفات من شعر «هوبكنز» لفترة قصيرة، حينما كان طالبا بالمدرسة، وكان يكتب أشعارا بها كثير من الكلمات ذات المقطع الواحد، التي تحمل نبرة وتشديدا، متحاشيا أي كلمة من أصل لاتيني.

ولكن بمضي الزمن بدأ يفقد تذوقه لـ «هوبكنز»، كما كان في سبيله لأن يفقد تذوقه لشكسبير. فشعر «هوبكنز» مليء بالأصوات الساكنة، وشعر شكسبير مليء بالاستعارات والتعبيرات المجازية، كما يهتم كل منهما كثيرا باستخدام كلمات غير مألوفة، وخاصة من اللغة الإنجليزية القديمة، مثل (maw, reck, pelf).

وهو لا يرى ضرورة في أن يستخدم الشعر عبارات حماسية أو خطابية، بل يكفي أن يعبر عن لغة الكلام العادية، ويجب ألا يختلف في الواقع عن لغة النثر.

وبدأ جون يفضل «بوب» على شكسبير، و«سويفت» على «بوب». وعلى رغم أنه يتقبل أسلوب «بوب» بعبارته شديدة الدقة، فإنه يرى أنه يهتم كثيرا بالطبقات الأرستقراطية، في حين أن «سويفت» إنسان بسيط وينزع إلى العزلة والوحدة.

كما يحب تشوسر أيضا. والأدب في العصور الوسطى كان مملا ويستحوذ مبدأ العفة والطهارة ويتحكم فيه رجال الدين. وكان معظم شعراء العصور الوسطى يتسمون بالخجل ويستعينون بالكتابات اللاتينية القديمة للاسترشاد بها. إلا أن تشوسر يختلف عنهم، حيث قل تأثره بتلك الكتابات إلى حد كبير. وهو على خلاف شكسبير لا يكثر من الكلمات الرنانة والعبارات الجوفاء.

وبالنسبة إلى الشعراء الإنجليز الآخرين فقد تعلم من باوند كيف يقتبس من الشعراء الرومانسيين وشعراء العصر الفيكتوري، كيف يعبرون عن عواطفهم بعبارات بسيطة، مع الإقلال من نظم الشعر، ويحاول كل من باوند وإليوت إحياء الشعر الإنجليزي - الأمريكي بإعادة التعليقات اللاذعة إليه، كما هي الحال في الشعر الفرنسي. وهو راض عن ذلك تماما، ويتساءل: كيف كان مفتونا بـ كيتس ذات يوم بحيث يكتب قصائد متأثرة بأسلوب «كيتس» ويعجز عن فهمها، وشعر كيتس يشبه البطيخ: طري وحلو وأحمر اللون، بينما الشعر يجب أن يكون صلبا وواضحا كاللهب. وقراءة عشر صفحات من شعر «كيتس» تشبه الوقوع في شباك امرأة.

وكان يرى أنه سيكون أكثر ثباتا ورسوخا في اتباعه لـ باوند لو تمكن بالفعل من قراءة اللغة الفرنسية، إلا أن كل الجهود التي بذلها لتعليم نفسه الفرنسية ذهبت أدراج الرياح، وليست لديه ميول لهذه اللغة، التي يقول إن كلماتها تبدأ بنبرة قوية ثم تخفت في النهاية إلى ما يشبه الهمس، ولذلك يجب أن يأخذ ما يقوله «باوند» و«إليوت» عن أن «نيرفال» و«كوربيير» و«لافورج». يرشدونه إلى الطريق الواجب اتباعه مأخذ صدق.

وكان ينوي عند التحاقه بالجامعة أن يتخرج فيها عالم رياضيات، ثم يسافر إلى الخارج ويهب حياته للفن، هذا بفرض أن تسير هذه الخطة كما رسمها مع تلبية متطلبات تحقيقها ومن دون أن يحيد عنها. وكان ينوي أثناء مرانه على إتقان مهاراته الشعرية في الخارج أن يكسب قوت يومه بأداء أعمال غير ذات قيمة، ولكنها شريفة، وحيث إن عظماء الفنانين مكتوب عليهم أن يظلوا مغمورين لفترة من الزمن فهو يتخيل أنه سيقضي فترات تكوينه الأولى موظفا كتابيا بسيطا يقوم بجمع أعمدة أرقام في غرفة خلفية. ومن المؤكد أنه لن يكون شخصا بوهيميا، أي ليس سكيرا أو متطفلا أو صعلوكا.

والذي يجذبه نحو الرياضيات، فضلا عن الرموز المستخدمة فيها، التي لا يفهمها إلا القليلون، هو الطابع النظري البحت لها. ولو كان بالجامعة قسم للفكر البحت لربما التحق به، إلا أن الرياضيات البحتة تبدو أقرب ما يكون إلى عالم الرموز والأشكال.

ولكن هناك عقبة واحدة تقف أمام تحقيق خطته الدراسية، وهي أن اللوائح الجامعية لا تسمح للطالب بدراسة الرياضيات

البحتة فقط، فمعظم الطلبة الذين يدرسون معه يدرسون خليطا من الرياضيات البحتة والرياضيات التطبيقية والفيزياء، وهو يرى أنه من المستحيل عليه أن يسير في هذا الاتجاه، فعلى رغم أنه - وهو صغير - كان لديه اهتمام عابر بمسائل الصواريخ والانشطار النووي، فليس لديه ميل لما يسمى بالعالم الحقيقي، ويعجز عن فهم الأشياء كما هي عليه في الطبيعة: لماذا تتوقف الكرة المرتدة عن الارتداد، مثلا؟ ولا يجد زملاؤه من الطلبة صعوبة في الإجابة عن هذا السؤال: وهو أن معامل مرونة الكرة أقل من واحد. ولكنه يتساءل لماذا يحدث ذلك؟ ولماذا معامل المرونة واحد بالضبط وليس أكثر. وعندما يسمع زملاؤه أسئلته هذه يهزون أكتافهم تعبيرا عن عدم اهتمامهم بأسئلته، فهم يرون أننا نعيش في العالم الحقيقي، وفي العالم الحقيقي معامل المرونة هو دائما أقل من واحد، ولكنه لا يقتنع بهذا الجواب.

ونظرا لأنه غير متعاطف مع العالم الحقيقي فهو يتجنب دراسة العلوم ويدرس بدلا منها مناهج في اللغة الإنجليزية والفلسفة والدراسات الكلاسيكية القديمة. وهو يريد أن ينظر إليه على أنه طالب يدرس الرياضيات، وتصادف أن يدرس بضعة مقررات فنية. ولكن الذي يحزنه أن الطلبة الذين يدرسون العلوم ينظرون إليه على أنه دخيل عليهم، وليس لديه اهتمام حقيقي بالرياضيات، التي يحضر محاضراتها ثم سرعان ما يختفي في مكان لا يعلمه إلا الله.

ونظرا إلى أنه سيصبح عالم رياضيات ينبغي عليه أن يقضي معظم وقته في دراستها، ولكن الرياضيات في نظره سهلة بينما

اللغة اللاتينية صعبة، حيث درجاته فيها منخفضة. وفي السنوات التي قضاها بالمدرسة الكاثوليكية تعلم قواعد النحو في اللغة اللاتينية، ويمكنه كتابة نثر صحيح، وإن كان بشكل بطيء، على نسق شيشرون، أما كتابات فرجيل وهوراس وما تتميز به من ترتيب عشوائي للكلمات وكلمات منفرة فتظل توقعه في حيرة.

وهو يدرس اللغة اللاتينية في مجموعة صغيرة معظم طلبتها يدرسون اللغة اليونانية أيضا؛ إذ يرون أن تعلم اليونانية يسهل عليهم تعلم اللاتينية. ويتعين عليه أن يكافح للحاق بهم، وألا يجعل من نفسه أضحوكة في أعينهم.

وأحد عوامل الجذب السرية في الرياضيات هو استخدامها للأبجدية اليونانية، وعلى رغم أنه لا يعرف من الكلمات اليونانية أكثر من hubris, arete, eleutheri، فهو يقضي ساعات طوالا لإتقان كتابة الحروف اليونانية ويضغط بشدة على الحروف من نوع «البودوني».

واللغة اليونانية والرياضيات هما في نظره أسمى المواد التي يمكن أن يدرسها أي طالب جامعي. وهو من بعيد ينظر باحترام وتقدير إلى أساتذة اللغة اليونانية التي لا يستطيع أن يدرس مقررات فيها: مثل «أنتون باب»، عالم البردي، و«فوريس بوب»، مترجم أعمال «سوفوكليس»، و«موريتس هيمسترا»، الذي كتب تعليقات عن «هيراكليتس». و«جون» يضعهم في منزلة سامية بالإضافة إلى «دوجلاس سيرز» أستاذ الرياضيات.

وعلى رغم كل ما يبذله من جهد في دراسة اللغة اللاتينية فإن درجاته فيها ليست مرتفعة، وخاصة بسبب دراسة التاريخ

اليوناني، الذي يقوم بتدريسه شاب إنجليزي شاحب الوجه، وتبدو عليه مظاهر التعاسة، واهتمامه الحقيقي يكمن في «ديجنيس أركتياس». وطلبة كلية الحقوق الذين يضطرون إلى دراسة اللغة اللاتينية يعرفون ضعفه ويعذبونه، وهم يحضرون إلى محاضراتهم متأخرين ويغادرونها قبل انتهاء موعدها، ويصنعون طائرات ورقية في أثناء المحاضرة، ويتهامسون وعندما يلقي المدرس إحدى النكات القديمة يضحكون بصوت أجش، ويدقون الأرض بأقدامهم من دون توقف.

وحقيقة الأمر هي أن جون وطلبة الحقوق كلهم يشعرون بالملل، وربما أستاذهم أيضا، وذلك ربما بسبب تقلبات أسعار القمح في عهد الإمبراطور الروماني كومودوس. ومن دون معرفة الحقائق لا يمكن معرفة التاريخ، وليس لديه صبر على حفظ الحقائق: فعندما يحل موعد الامتحان ويطلب منه كتابة أفكاره عن أسباب حادثة ما في عهد الإمبراطورية المتأخرة، لا يجد ما يكتبه ويحملق في ورقة الإجابة الخالية في بؤس وتعاسة.

وقد درس الطلبة «تاسيتوس» مترجما، وقرأوا مرارا وتكرارا ما ارتكبه الأباطرة من مظالم وتجاوزات وصدور العديد من الأحكام الجائرة، التي ليس لها من مبرر، وإذا أراد أن يصبح شاعرا فعليه أن يتلقى دروسا من «كاتولوس»، شاعر الحب، الذي يقوم الطلبة بترجمة أشعاره في قاعة الدرس، ولكن كتابات «تاسيتوس» المؤرخ، الذي يكتب بلغة إنجليزية صعبة، لا يستطيع أن يفهمها في نصها الأصلي هو الذي يحظى بإعجابه بالفعل.

وبناء على نصيحة «باوند» اتجه إلى قراءة فلوبير، بدءا برواية «مدام بوفاري»، ثم سلامبو التي تدور أحداثها حول قرطاج القديمة، بينما امتنع تماما عن قراءة «فيكتور هوجو»، والذي يقول عنه باوند إنه ثرثار كثير الكلام بشكل ممل، في حين أن فلوبير ينقل إلى النثر جواهر فن الشعر، تلك المهمة الصعبة. ومن عباءة فلوبير خرج عدة كتاب آخرين، أولهم هنري جيمز، ثم كونراد، ثم فورد ماكس فورد.

وهو معجب بكتابات فلوبير، خاصة ما كتبه عن «إيما بوفارتي» بعينيها الزرقاوين وشهوانيتها المضطربة. وهو يتخيل لقاءها ولكنه ليس واثقا من أن ذلك سبب كاف لإعجابه بـ «فلوبير»، إذ لا يزال شعوره المرهف فيه بعض من أثر «كيتس» القديم الذي يترسب في أعماقه.

ومما لا شك فيه أن إيما بوفارتي شخصية خيالية لن يلتقي بها في الطريق أبدا، ولكن تلك الشخصية لم تأت من فراغ؛ إذ تعود في أصولها إلى خبرة وتجارب مؤلفها بلحمه ودمه، تلك التجارب التي خضعت فيما بعد في تشكيلها للهيب الفن. ولو كانت هذه شخصية حقيقية لوجد مثلها نساء كثيرات في العالم الحقيقي. وحتى لو لم يكن الأمر كذلك، أي لا يوجد في العالم الحقيقي نساء يشبهن إيما تماما، فمن المؤكد أنه توجد نساء كثيرات تأثرن إلى حد كبير بقراءتهن للرواية، لدرجة أنهن يقعن في أسرها، ويتحولن إلى أشكال منها. وقد لا يكنَّ مثل إيما الحقيقية، ولكنهن إلى حد ما تجسيد حي لها.

ويطمع جون في أن يتمكن من قراءة كل ما يستحق القراءة قبل سفره إلى الخارج، حتى لا يصل إلى أوروبا وهو ريفي ساذج. وهو

يسترشد بـ إليوت وباوند في اختياره لما يقرأه، ولذلك يبتعد تماما عن قراءة مؤلفات «سكوت» و«ديكنز» و«ثاكرتي» و«ترولوب» و«مريديث»، وكذلك كتابات المؤلفين الألمان والإيطاليين والإسبانيين في القرن التاسع عشر، التي تعتبر في نظره غير جديرة بالاهتمام، بناء على نصيحة إليوت وباوند. وأما روسيا فربما خرج منها كتاب عمالقة كبار، ولكن الفنانين الروس ليس لديهم ما يتعلمه منهم الآخرون، فمنذ القرن الثامن عشر أصبحت الحضارة مسألة إنجليزية - فرنسية خالصة.

ومن ناحية أخرى توجد جيوب صغيرة لحضارة عظيمة في أزمنة قديمة، لا يمكن للمرء أن يتجاهلها: ليس أثينا وروما فحسب بل ألمانيا في عهد «فالترفون دير فوجلفاير»، «بروفانس» في عهد «أرنود انيال»، وفلورنسا في عهد دانتي و«جيدو كافالكانتي»، ناهيك عن الصين في عهد تانج، والهند في عهد المغول وإسبانيا في عهد المرابطين، ولذلك فإنه إن لم يتعلم اللغات الصينية والفارسية والعربية، أو على الأقل قدرا منها، يمكّنه من قراءة المؤلفات القديمة المكتوبة بها في ترجمة حرفية، فقد يكون إنسانا بربريا وغير متحضر. ولكن أنّى له أن يجد الوقت لتحقيق ذلك؟!

وفي بداية دراسته لمقررات اللغة الإنجليزية واجه بعض الصعوبات، وكان مدرس الأدب الإنجليزي شابا صغيرا من مقاطعة ويلز اسمه السيد جونز، وكان حديث عهد بجنوب أفريقيا وبداية عمله في التدريس. وسرعان ما اكتشف طلبة كلية الحقوق الذين كانوا يدرسون الإنجليزية - كمادة إجبارية مثل اللغة

الإنجليزية - عدم ثقته في نفسه: فكانوا يتثاءبون في وجهه، ويتظاهرون بالغباء، ويقلدون طريقته في الكلام، لدرجة أنه كان أحيانا يصاب باليأس التام.

وكان أول الواجبات المنزلية التي كلفهم بها كتابة دراسة تحليلية نقدية لقصيدة من تأليف «أندرو مارفيل». ولم يفهم جون ما المقصود تماما بالنقد التحليلي، إلا أنه بذل قصارى جهده، وقد أعطاه السيد جونز درجة «جاما»، وجاما ليست أقل درجة في سلم الدرجات؛ إذ هناك درجة أقل منها، وهي جاما ناقص، ناهيك عن درجات «دلتا» الأخرى، ولكن جاما ليست درجة جيدة. وكثير من الطلبة، ومن بينهم طلبة الحقوق، حصلوا على درجة «بيتا»، كما حصل طالب واحد على درجة ألفا ناقص. وعلى رغم أن زملاءه لم يكونوا مهتمين بالشعر، فقد عرفوا شيئا لم يعرفه هو، ولكن ما هو هذا الشيء؟ وكيف يتفوق الإنسان في اللغة الإنجليزية؟

والسيد جونز والسيد بريانت والآنسة «ويلكنسون» المدرسون بالمدرسة كانوا جميعا من الشباب، وكانوا في نظر جون لا حول لهم ولا قوة، وكانوا لا يظهرون ضجرهم من سلوك طلبة الحقوق، آملين أن يتوقفوا عن الشغب بعد أن يملوا من ذلك. وأما جون فلم يكن متعاطفا مع المدرسين في محنتهم، وكان يريد منهم إظهار السلطة وليس الخنوع والضعف.

وطوال السنوات الثلاث التي درس فيها الإنجليزية على يد السيد جونز كانت درجاته تتحسن ببطء، ولكنه لم يكن بالمرة أنبغ طالب في الفصل، وكان إلى حد ما يبذل قصارى جهده من دون

أن يعرف كيف تكون دراسة الأدب. ولم يجد صعوبة في دراسة فقه اللغة الإنجليزية وتطورها، مقارنة مع دراسة النقد الأدبي، فعلى الأقل في معرفة تصريفات الأفعال في اللغة الإنجليزية القديمة، أو التغيرات الصوتية التي طرأت على اللغة الإنجليزية الوسطى يعرف الإنسان الاتجاه السليم الذي يسلكه في الدراسة.

والآن وجون في الفرقة الرابعة يسجل في مقرر لدراسة النثر الإنجليزي القديم على يد بروفيسور «جي هوارث»، وكان الطالب الوحيد في هذا المقرر. وكان مشهورا عن الأستاذ هوارث أنه إنسان جاف ومتزمت ومتحذلق، ولكن جون لا يهتم بذلك، فهو ليس ضد المتحذلقين بل يفضلهم على محبي المظاهر.

ويلتقي جون بأستاذه مرة كل أسبوع في مكتبه، حيث يقوم الأستاذ بقراءة المحاضرة بصوت عال، بينما يسجل جون أهم النقاط والملاحظات. وبعد بضعة لقاءات يسلم الأستاذ إلى جون نص المحاضرة ليقرأها في منزله.

والمحاضرات مطبوعة على الآلة الكاتبة، وعلى شريط غير واضح، وورق أصفر اللون، ويخرجها الأستاذ من خزانة يضع فيها ملفا عن كل كاتب إنجليزي، بدءا من «أوستن»، وانتهاء بـ «ييتس». ويتساءل جون في قرارة نفسه: هل هذا ما يجب أن يفعله الإنسان لكي يكون أستاذا للغة الإنجليزية، أن يقرأ مؤلفات الكتاب المعروفين، ويكتب محاضرة عن كل منهم؟ وكم يختصر ذلك من سنوات من عمر الإنسان؟ وما أثر ذلك في روحه المعنوية؟

و«هوارث» أسترالي الجنسية، ويبدو أنه يرتاح إلى جون من دون أن يدري الأخير سر هذا الارتياح، وعلى رغم أن جون من

ناحيته لا يقول إنه يحب هوارث، فهو ميال إلى أن يحميه من النقد بسبب رعونته وقلة ذوقه، واتهامه لطلبة جنوب أفريقيا باطلا بأنهم لا يهتمون بالشخصيات التي يهتم هو بها، مثل «جاسكوين» و«ليلي»، وفي هذه الحالة شكسبير.

وفي آخر أيام الفصل الدراسي وعقب انتهاء الامتحانات النهائية يترك هوارث لجون ورقة يدعوه فيها إلى زيارته قائلا: «احضر إلى منزلي مساء الغد لنتناول شرابا معا».

ويقبل جون الدعوة ولكن على مضض، فزيادة على ما يتبادله من أحاديث مع أستاذه عن كتاب النثر في العصر الإليزابيثي، ليس لدى جون ما يضيفه، كما أنه لا يحب الشراب، وإذا تناول النبيذ يشعر بضيق ومرارة في فمه بعد الرشفة الأولى، ولا يفهم لماذا يتظاهر الناس بالاستمتاع بالشراب.

ويجلس جون في غرفة المعيشة ذات السقف المرتفع والضوء الخافت في منزل هوارث وزوجته بمنطقة الحدائق. ويكتشف جون أنه الوحيد المدعو إلى هذا اللقاء. ويتحدث هوارث عن الشعر الأسترالي وعن كينيث «سليسور» و«أ د. هوب». وبين الحين والآخر تمر زوجة هوارث أمامها جيئة وذهابا مرورا عابرا. ويشعر جون أنها غير مرحبة بوجوده، وتعتبره شديد التزمت، ويفتقر إلى التفاؤل والحماس وسرعة البديهة. واسم هذه الزوجة ليليان وهذا هو الزواج الثاني له. ومما لا شك فيه أنها كانت رائعة الجمال في شبابها، وأما الآن فهي مجرد امرأة قصيرة القامة رفيعة الساقين، تضع كمية كبيرة من المساحيق على وجهها، كما يقال إنها امرأة شهوانية، وتتصرف بأسلوب

مخجل يندى له الجبين، وذلك بعد احتسائها للشراب بشراهة حتى الثمالة.

وقد اكتشف جون أن أستاذه دعاه لغرض معين، إذ ينوي «هوارث» وزوجته السفر للخارج وعدم العودة قبل ستة أشهر، وسأله الأستاذ ما إذا كان مستعدا لأن يعيش في بيته ويرعاه أثناء غيابه، من دون دفع إيجار أو أي مصروفات أخرى، مقابل تحمل بعض المسؤوليات البسيطة تجاه المنزل.

ويقبل «جون» هذا العرض على الفور، ويشعر بالزهو لأن أستاذه طلب منه ذلك. كما أنه إذا ترك شقته في «موبراي يمكنه بسرعة توفير مبلغ يكفي لشراء تذكرة باخرة للسفر إلى إنجلترا مستقبلا».

ولهذا المنزل جاذبية خاصة بفخامته وامتداده على المنحدرات السفلية للجبل، على رغم وجود ممرات مظلمة وغرف مغلقة ذات رائحة كريهة تنبعث منها.

ولكن هناك عيبا واحدا في هذا العرض: في الشهر الأول سيشاركه في البيت اثنان من ضيوف آل هوارث، وهما سيدة من نيوزيلندا وابنتها ذات الأعوام الثلاثة. ولكنه سرعان ما اكتشف أن تلك المرأة مدمنة على تناول الخمر، لذلك يتجنب الاحتكاك بها تماما، إذ هو يكره الخمر ولم يذقها طوال حياته، وإذا حضر حفلة يغادرها مبكرا، حتى لا يسمع السكارى وهم يتلعثمون بكلمات تعبر عما في داخل أنفسهم. ويرى جون أن قائدي السيارات السكارى يجب أن تضاعف لهم العقوبة بدلا من تخفيفها. ولكن في جنوب أفريقيا أي تجاوزات ترتكب تحت تأثير الخمر ينظر إليها بعين

التساهل والتسامح، لدرجة أن أصحاب المزارع السكارى يضربون العمال بالمياط حتى الموت.

وهذا يجعله يفكر لماذا يلجأ الناس إلى أعمال الشر، فالأسوياء لا يميلون إلى الشر، وهو بالنسبة إليهم بمنزلة حالة هياج وانفعال يجب التخلص منها، ولكن بالنسبة إلى الفنانين فهم يحتاجون إلى أن يتعايشوا مع هذا الانفعال، سواء كان طبيعته طيبة أو سيئة، فالانفعال هو الذي يجعلهم فنانين، لذلك يجب أن يظل متوقدا. ولهذا السبب لا يشعر الفنانون بأنهم موجودون بكليتهم في هذا العالم، إذ إحدى أعينهم تتجه دائما نحو داخلهم. وأما بالنسبة إلى النساء اللواتي يحببن الفنانين فلا يمكن أن يكن موضع الثقة التامة. فإذا كانت روح الفنان شرارة وانفعالا معا فإن المرأة التي تحب أن تلسعها تلك الشرارة تسعى، في الوقت نفسه، إلى أن تكبت هذا الانفعال وتجعل الفنان إنسانا عاديا.

الفصل الرابع

يبحث جون عن وسيلة لزيادة دخله، لذلك يقوم بتدريس مجموعة مسائية أخرى في قسم الرياضيات، لطلبة الفرقة الأولى، الذين يُسمح لهم بتوجيه أسئلة إليه عن الرياضيات التطبيقية، بالإضافة إلى الرياضيات البحتة، ونظرا إلى أنه لم يدرس الرياضيات التطبيقية إلا لمدة عام واحد، فإن معلوماته في هذا التخصص لا تزيد كثيرا على معلومات الطلبة المفترض أن يساعدهم، ولذلك يقضي ساعات طوالا لتحضير الدروس.

وعلى رغم أنه يعيش في عالم خاص به يخيم عليه الهم والقلق، فإنه يشعر بما يدور حوله من اضطرابات يتعرض لها وطنه، فالقوانين التي يخضع لها الأفارقة، والأفارقة وحدهم، تزداد إجحافا وصرامة، ومظاهرات الاحتجاج تندلع في كل مكان، وفي منطقة «ترانسفال» تطلق الشرطة النار على جموع المتظاهرين، بل تستمر في إطلاق النار على ظهور الرجال والنساء والأطفال الهاربين من التظاهرات، وهذا الوضع يصيبه بالغثيان والاشمئزاز من بدايته إلى نهايته، فالقوانين في حد ذاتها، ورجال الشرطة المجرمون، والحكومة التي تدافع علنا عن القتلة وتندد بقتلى التظاهرات، والصحافة التي تخشى أن تقول الحق أو تصف ما يمكن أن يراه كل ذي عينين.

وبعد مذبحة «شاربفيل» لم تعد الأمور كما كانت عليه من قبل، فحتى منطقة الكيب المسالمة لم تخل من الإضرابات ومسيرات

الاحتجاج، وكلما تقوم مسيرة يحيط بها رجال الشرطة شاهرين بنادقهم، منتظرين أي حجة أو ذريعة لإطلاق النار.

ووصلت الأمور إلى طريق مسدود ذات مساء في أثناء وجوده مع المجموعة الدراسية في قاعة صغيرة، وهو يمر بين الطلبة لمعرفة ما يواجههم من صعوبات في حل التمارين المكلفين بها ومساعدتهم، وفجأة يفتح الباب على مصراعيه ويدخل أحد الأساتذة القدامى، ويدق بقبضته على الطاولة قائلا بصوت مختنق ووجه أحمر: «يرجى الانتباه! ضعوا الأقلام وانتبهوا لي، يقوم العمال في هذه اللحظة بمسيرة في شارع «دي فال»، وحرصا على سلامتكم، طُلب مني إبلاغكم بعدم مغادرة الحرم الجامعي، لحين صدور إشعار آخر. أكرر لن يسمح لأحد بالمغادرة، هذه أوامر الشرطة، هل لديكم أي أسئلة؟».

نعم، هناك سؤال واحد على الأقل يتبادر إلى الذهن وإن كان الوقت ليس مناسبا له: إلى أين يتجه الوطن الذي لا يستطيع فيه المدرس أن يلقي الدرس في أمان؟ وأما بالنسبة إلى أوامر الشرطة، فإنه لا يصدق، ولو لبرهة واحدة، أن قوات الأمن تحاصر الحرم الجامعي، وتمنع الدخول إليه لمصلحة الطلبة، بل إنها تفعل ذلك للحيلولة دون خروج الطلبة من هذا المكان - المعروف عنه أنه معقل اليساريين - والانضمام إلى المسيرة، هذا كل ما في الأمر.

ولم يعد هناك أمل في استمرار الدرس، إذ كانت القاعة تعج بالأحاديث بين الطلبة الذين بدأوا في إعداد حقائبهم استعدادا للمغادرة، متلهفين لمعرفة ما ستسفر عنه الأحداث.

ويسير جون خلف الجماهير عبر الجسر المطل على شارع «دي فال»، وقد توقفت حركة المرور تماما، واتجهت الجماهير نحو طريق «وولساك»، وسارت في خطوط متعرجة في كل صف منها عشرة أشخاص أو عشرون شخصا، ثم اتجهوا شمالا حتى وصلوا إلى الطريق السريع، وكان معظم المتظاهرين من الرجال في ملابس باهتة عبارة عن «أفرولات» عمال ومعاطف من مخلفات الجيش وطواق صوفية، وكان بعضهم يحمل عصيا، وجميعهم يسيرون بسرعة، وفي صمت، وكانت المظاهرة ضخمة بحيث تمتد على مدى البصر، ولو كانت هناك قوات أمن لكانت ستصاب بالرعب من هذا الحشد الهائل.

وسمع جون طالبا ملونا يسير بالقرب منه يقول: «إنه PAC(*)»، وكانت نظرته ثاقبة، وفي عينيه بريق، هل هو صادق فيما يقول، وكيف علم ذلك؟ وهل هناك علامات مميزة تدل على ذلك، والـ PAC ليس مثل ANC(**)، إذ هو أكثر تهديدا وخطورة ومن شعاراته «أفريقيا للأفريقيين! اقذفوا بالبيض في البحر!».

وبلغ حجم المسيرة عدة آلاف، وساروا جميعا في طريق متعرج وصولا إلى التل، وهم لا يشبهون الجيش في سيرهم، بينما هم بالفعل كذلك، كجيش، جرى استدعاؤه فجأة من قفار سهول الكيب، وعندما يصلون إلى المدينة ما الذي ستكون عليه الحال؟ على أي حال، لن يكون هناك ما يكفي من قوات الأمن لإيقاف المسيرة، ولا طلقات رصاص تكفي لقتلهم.

(*) مؤتمر عموم أفريقيا

(**) المؤتمر الوطني الافريقي الذي ينتمي إليه الزعيم نيلسون مانديلا (المترجم)

وعندما كان «جون» في الثانية عشرة من عمره اقتيد مع غيره من التلاميذ وحشروا في باص مدارس اتجه بهم نحو شارع «أدرلي»، حيث أعطيت لهم أعلام ذات ألوان برتقالي وأبيض وأزرق، وطلب منهم رفعها والتلويح بها لدى مرور موكب عربات مكشوفة يجلس فيها يان فان ريبيك وزوجته، التي كانت ترتدي ثوبا محتشما من ملابس «البوير»، ومواطنو «فورتريك» ببنادقهم القديمة، و«بول كروجر» بجسمه البدين وكرشه الضخم».

وتحدث رجال السياسة قائلين في خطبهم: بعد ثلاثمائة عام من التاريخ، وثلاثمائة عام من الحضارة المسيحية عند طرف أفريقيا (الجنوبي)، نقول شكرا للرب، ولكن الآن، وأمام ناظريهم، فإن الرب لا يحميهم، وهو يشاهد التاريخ يتعرض للهدم في ظل الجبل.

وفي السكون المحيط به ووسط الطلبة من خريجي مدرسة «روند بوش»، الثانوية للبنين والكلية الاسقفية بملابسهم الأنيقة، والذين كانوا قبل ذلك بنصف ساعة منهمكين في حساب زوايا المتجهات ويحلمون بمستقبل في عالم الهندسة المدنية، يلمس جون ما يشعرون به، من صدمة ورعب، إذ كانوا يتوقعون أن يستمتعوا برؤية عرض جميل، وأن يضحكوا ضحكة خفية وهم يشاهدون موكب أطفال في عمر الزهور، وليس مشاهدة ذلك المنظر الكئيب، الذي أفسد عليهم مساءهم، وكل ما يريدونه الآن هو العودة إلى بيوتهم، وشرب زجاجة كوكاكولا، وتناول ساندويتش ونسيان ما حدث.

ولكن ماذا كان شعور «جون»؟ هو لا يختلف عنهم، وكان كل ما يفكر فيه هو: هل ستستمر السفن في الإبحار غدا؟ ولسان

حاله يقول: يجب أن أغادر هذا المكان بأسرع ما يمكن وقبل فوات الأوان.

وفي اليوم التالي، وبعد أن انتهى كل شيء، وعاد المتظاهرون إلى بيوتهم، اختارت الصحف الأسلوب الذي تصف به ما حدث: التنفيس عن غضب مكبوت، نزع فتيل الكثير من مسيرات الاحتجاج التي اندلعت في مختلف أنحاء البلاد في أعقاب مذبحة شاريفيل بفضل التصرف السليم هذه المرة لقوات الأمن، وتعاون قادة المسيرة، ننصح الحكومة بأخذ عبرة مما حدث، يتضح من عناوين الصحف هذه أنها تحاول أن تخفف من هوّل الأحداث، ولكن ذلك لا يخدعه، فبمجرد سماع صفارة يمكن أن يخرج الرجال أنفسهم من أكواخ سهول الكيب، وثكناتها بأعداد أكبر وأشد قوة، من ذي قبل، مسلحين هذه المرة ببنادق من صنع الصين، ما الداعي للوقوف ضدهم إذا كنت لا تؤمن بما يدعون إليه؟

والآن، جاء دور الحديث عن قوة الدفاع، فعندما أنهى دراسته الثانوية كان شاب واحد فقط من ثلاثة يستدعى للخدمة العسكرية.

وكان جون سعيد الحظ لأنه لم يصبه الدور في التجنيد، ولكن تغير كل شيء الآن بعد صدور لوائح جديدة، إذ يمكن في أي وقت أن يجد إخطار استدعاء له موضوعا في صندوق البريد، مكتوبا عليه ما يلي: «يتعين عليك الحضور إلى القلعة في تمام الساعة التاسعة من صباح يوم كذا، ولا تحضر معك إلا لوازم الحمام»، ومعسكر التدريب الذي سمع عنه كثيرا موجود في مدينة

«فورتريكر هوجتي»، في منطقة «الترانسفال»، حيث يرسل المجندون من مدينة الكاب لتدريبهم بعيدا عن أهلهم، ويمكن في ظرف أسبوع أن يجد نفسه خلف أسلاك شائكة في ذلك المعسكر، يعيش في خيمة واحدة مع شباب من البلطجية والمجرمين من فئة «الأفريكانز»، ويتناول لحما بقريا معلبا (بولبيف)، ويستمع إلى «جوني راي» في إذاعة «سبرينجبوك»، وهو لا يمكنه أن يتحمل ذلك، وقد يقوم بقطع شريان يده، وليس أمامه سوى طريق واحد، وهو الهرب، ولكن كيف يهرب قبل تخرجه في الجامعة؟ إذ إن ذلك يصبح مثل السفر في رحلة طويلة، رحلة العمر، دون ملابس أو مال أو سلاح (مقارنة على مضض).

الفصل الخامس

في ساعة متأخرة... وبعد منتصف الليل يستلقي «جون» على أريكة في شقة «بول» الصغيرة في «بلسيز بارك» داخل كيس النوم الذي أحضره معه من جنوب أفريقيا، وفي الجانب الآخر من الغرفة ينام «بول» على سريره ويبدأ في الشخير. ومن خلال فتحة صغيرة في الستارة تسطع السماء بلون برتقالي مشوب باللون البنفسجي، وعلى رغم أن «جون» غطى قدميه بوسادة فإنه يشعر بهما باردتين كالثلج، لا بأس: إنه في لندن.

وهناك مكانان أوربما ثلاثة في العالم يمكن أن يعيش الإنسان حياته فيها بالطول والعرض وهي: لندن وباريس وربما فيينا. وتأتي باريس في المقدمة، فهي مدينة الحب والفن. ولكن لكي يعيش الإنسان في باريس يجب أن يكون قد تعلم الفرنسية في إحدى مدارس الطبقة الراقية، أما فيينا فهي لليهود العائدين إليها كحق مكتسب بالولادة: المنطق الوضعي، والموسيقى ذات النغمات الاثنتي عشرة على السلم الموسيقى، والتحليل النفسي. وتبقى لندن، التي يمكن لأبناء جنوب أفريقيا دخولها دون وثائق سفر، والتي يتحدث أبناؤها اللغة الإنجليزية، وقد تكون لندن قاسية القلب وتشبه المتاهة وباردة، ولكن خلف جدرانها الصارمة يعمل الرجال والنساء على قدم وساق في تأليف الكتب ورسم اللوحات ووضع الألحان الموسيقية، ويمر الإنسان عليهم يوميا في الطرقات من دون أن

يعرف أسرارهم، وذلك بسبب ما هو معروف عن الشعب البريطاني من تحفظ هو موضع الإعجاب.

ويدفع «جون» لـ «بول» جنيهين أسبوعيا نظير الإقامة معه في شقته الصغيرة، التي هي عبارة عن غرفة نوم واحدة وملحق يوجد به موقد غاز وصنبور ماء بارد (الحمام ودورة المياه بالطابق العلوي ومخصصة للمنزل بأكمله). وكل ما ادخره «جون» في جنوب أفريقيا وأحضره معه إلى لندن لا يزيد على ٤٨ جنيها، ولذلك يجب أن يبحث عن عمل في الحال.

يتوجه «جون» إلى مكاتب مجلس محافظة لندن ويسجل اسمه في كشف المدرسين الاحتياطيين المستعدين لشغل الأماكن الشاغرة على الفور. ويطلب منه حضور مقابلة للعمل في مدرسة ثانوية حديثة بمنطقة «بارنيت» الواقعة في نهاية الخط الشمالي لمترو الأنفاق. والشهادة الجامعية الحاصل عليها هي في الرياضيات واللغة الإنجليزية، لكن ناظر المدرسة يريده أن يقوم بتدريس الدراسات الاجتماعية، بالإضافة إلى الإشراف على حمام السباحة بالمدرسة مرتين أسبوعيا بعد الظهر. ولكن «جون» يعترض قائلا: «ولكني لست سباحا»! فيرد عليه الناظر: «ولكن يمكنك أن تتعلم السباحة، أليس كذلك؟».

ويغادر «جون» المدرسة حاملا نسخة من الكتاب المقرر في الدراسات الاجتماعية، وعليه أن يقوم خلال عطلة نهاية الأسبوع بإعداد الدرس للحصة الأولى. وما إن يصل إلى المحطة حتى يلعن نفسه لقبول هذه الوظيفة. ولكنه جبان وليست لديه الشجاعة الكافية للعودة إلى المدرسة وإبلاغ الناظر بأنه غيَّر رأيه. وفي

مكتب بريد «بلسيز بارك» يعيد الكتاب إلى الناظر مع ورقة صغيرة يكتب عليها: «لظروف طارئة لم تكن في الحسبان أجد من المستحيل أن أقوم بتأدية واجبي على أكمل وجه، لذلك أرجو قبول صادق اعتذاري».

ثم قرأ إعلانا في صحيفة الجارديان وبناء عليه سافر بالقطار إلى محطة البحوث والتجارب الزراعية بمنطقة «روثا مستيد» الموجودة خارج لندن، التي سبق أن عمل فيها كل من «هالستيد» و«ماكتيتر»، مؤلفا كتاب «تصميم التجارب الإحصائية»، وهو أحد الكتب التي كانت مقررة عليه في الجامعة، وبعد وصوله قام المسؤولون في المحطة باصطحابه في جولة فيها للتعرف على الحدائق والصوبات الموجودة بها، ثم أجريت له مقابلة سارت على ما يرام. والوظيفة التي تقدم لها هي مسؤول تجارب مبتدئ، وعلم أن مسؤوليات هذه الوظيفة تتمثل في وضع شبكات لنباتات التجارب، وتسجيل أطوال في ظروف متغيرة، وتحليل البيانات في جهاز الكمبيوتر بالمحطة، وذلك تحت إشراف أحد كبار المسؤولين، وأما الأعمال الزراعية الفعلية فيقوم بها عمال البساتين تحت إشراف مهندسين زراعيين لذلك يتوقع ألا تتسخ يداه.

لم تمضِ سوى بضعة أيام حتى يصله خطاب من المحطة الزراعية تبلغه فيه تعيينه في الوظيفة التي تقدم لها، وذلك براتب قدره ستمائة جنيه سنويا، ولم يتمالك جون نفسه من الفرحة؛ أن يعمل في روثامستيد، يا لها من خطوة موفقة لن يصدقها أحد في جنوب أفريقيا!

لكن هناك عيبا واحدا ظهر من الخطاب إذ ورد في نهايته ما يلي: «يمكن تدبير مسكن لكم بالقرية أو في وحدة سكنية تابعة للمجلس». ويرد جون عليهم بقبول هذا العرض قائلا إنه يفضل أن يستمر في السكن في لندن وأن يسافر بالقطار يوميا إلى روثامستيد.

وردا على ذلك يتلقى مكالمة هاتفية من مكتب شؤون الموظفين بالمحطة مفاده أن السفر يوميا ليس مناسبا من الناحية العملية، فالوظيفة المعروضة عليه ليست وظيفة مكتبية مقيدة بساعات عمل ثابتة، إذ عليه أن يبدأ العمل في ساعة مبكرة في بعض الأيام، كما سيتأخر في العمل في أيام أخرى، وقد يعمل في عطلة نهاية الأسبوع، ومثله مثل باقي العاملين عليه أن يسكن قريبا من المحطة. وطلب منه إعادة النظر في موقفه وإبلاغهم بقراره النهائي في هذا الصدد.

وهكذا لم تكتمل فرحته، فما جدوى كل هذا السفر الطويل؟.. الذي تكبده من «كيب تاون» إلى لندن إذا كان مصيره الإقامة في منطقة سكنية تبعد أميالا كثيرة عن المدينة، مع ضرورة الاستيقاظ مع بزوغ فجر كل يوم لقياس ما طرأ على نبات الفاصوليا من نمو. وهو يريد أن يعمل في روثامستيد، وأن يستفيد من الرياضيات التي قضى سنوات عديدة في دراستها، كما يريد في الوقت نفسه أن يحضر جلسات الشعر، وأن يلتقي الكتاب والرسامين، وأن تكون له علاقات عاطفية. فكيف للناس في روثامستيد أن يتفهموا ذلك؟ بينما الرجال منهم يرتدون الجاكتات التويد (الصوف الخشن) ويدخنون الغليون والنساء تساقط شعرهن ويضعن

نظارات ثقيلة تشبه عيني البومة! وهل بإمكانه استخدام كلمات مثل الحب والشعر أمامهن.

ولكن كيف يرفض هذا العرض؟ إنه قاب قوسين أو أدنى من الحصول على وظيفة بمعنى الكلمة، وأين؟ ... في إنجلترا. كلمة واحدة يجب أن يقولها: نعم، ثم يكتب لوالدته يبشرها بنبأ لطالما انتظرته، وهو أن ابنها يتقاضى راتبا جيدا وفي وظيفة محترمة، على أن تبلغ هي بدورها عماته هاتفيا بأن جون يعمل عالما باحثا في إنجلترا، وهذا كفيل بأن يضع نهاية لسلوكهن تجاهه وتصيد أخطائه وتهكمهن عليه، وهل هناك عمل أكثر استقرارا من عمل العالم والباحث؟

فالاستقرار هو الشيء الذي كان يفتقده دائما، وهو موطن الضعف لديه.

أما من حيث البراعة والمهارة فلديه ما يكفي منهما (وإن كان أقل مما تظن أمه، بل مما كان هو نفسه يظن)، وأما من حيث القوة فلم تكن من صفاته يوما ما، والعمل في روثامستيد - وإن لم يكن سيوفر له القوة وعلى الفور - فعلى الأقل سيعطيه مسمى وظيفيا ومكتبا وسيوفر له الحماية، ففي بداية السلم الوظيفي سيكون مسؤول أبحاث مبتدئا ثم يرقى إلى وظيفة مسؤول أبحاث، ثم مسؤول أبحاث أول: ومن المؤكد أنه خلف هذه الحماية المحترمة سيتمكن في السر من مواصلة العمل لترجمة الخبرة التي سيكتسبها إلى فن، وهو العمل الذي ولد من أجله.

تلك هي مزايا العمل في المحطة الزراعية، وأما مساوئها فتتمثل في كونها خارج لندن، مدينة الحب والخيال.

ولذلك يكتب خطابا للمحطة يقول فيه إنه بعد روية وتفكير عميقين رأى من الأفضل الاعتذار عن قبول هذه الوظيفة.

والصحف مملوءة بالإعلانات عن طلب تعيين مبرمجي كمبيوتر ويفضل في المتقدم أن يكون حاصلا على شهادة جامعية في العلوم، وإن لم يكن هذا شرطا جوهريا، وسبق أن سمع جون عن برمجة الكمبيوتر، لكن لم تكن لديه فكرة واضحة عنها، ولم تقع عيناه على كمبيوتر من قبل إلا في الرسوم المتحركة حيث يظهر فيها الكمبيوتر على شكل صندوق يقذف لفّات من الورق. وهو متأكد من عدم وجود أي أجهزة كمبيوتر على الإطلاق في جنوب أفريقيا.

ويقوم «جون» بالرد على إعلان من شركة IBM، وهي أكبر وأعظم شركة في مجال الكمبيوتر، وطلب منه الحضور لإجراء مقابلة له، فيذهب للمقابلة مرتديا البدلة السوداء التي أحضرها معه من كيب تاون، والشخص الذي أجرى له المقابلة شاب في الثلاثينيات من عمره، يرتدي أيضا بدلة سوداء، وإن كانت أرقى وأكثر أناقة.

وأول سؤال وجه إليه كان هل ينوي ترك جنوب أفريقيا للأبد، فيرد بالإيجاب فسئل لماذا، فيقول: «لأن وطني يتجه نحو الثورة»، وساد الصمت بعد أن تلفظ بكلمة الثورة، فربما لا تكون الكلمة المناسبة في أروقة IBM، ويكون السؤال التالي: «ومتى تظن أن الثورة ستقع؟» فيرد قائلا دون تردد: «بعد خمس سنوات»، وهذا ما توقعه الجميع بعد أحداث شاربفيل التي كانت بداية النهاية لنظام حكم البيض، والذي يتزايد يأسه يوما بعد يوم.

وبعد المقابلة طلب منه إجراء اختبار ذكاء له، وهو دائما يحب اختبارات الذكاء ويحصل فيها على درجات عالية، وهو عموما ينجح في الاختبارات والامتحانات أكثر من نجاحه في الحياة الواقعية.

وبعد بضعة أيام يعين «جون» في وظيفة مبرمج تحت التمرين بشركة IBM، على أن يرقى إلى وظيفة مبرمج إذا اجتاز الدورة التدريبية بنجاح، وأدى فترة الاختبار على أكمل وجه، على أن يصبح يوما كبير مبرمجين، وسيكون أول تعيين له في مكتب معالجة البيانات بشارع «نيومان» المتفرع «من شارع أكسفورد» في قلب منطقة «ويست إند» وستكون ساعات عمله من التاسعة صباحا حتى الخامسة مساء وبداية مرتبه ستكون سبعمائة جنيه في السنة.

ويقبل «جون» شروط العرض دون تردد.

وفي اليوم نفسه يطالع لوحة الإعلانات في إحدى محطات مترو الأنفاق في لندن، حيث يجد إعلانا عن طلب تعيين ملاحظ عمال محطة تحت التدريب، وبراتب قدره سبعمائة جنيها سنويا، على أن يكون المتقدم حاصلا على شهادة اتمام الدراسة الثانوية على الأقل، وألا يقل عمره عن إحدى وعشرين سنة، ويتعجب: هل جميع الوظائف في انجلترا راتبها واحد؟! وإذا كان الأمر كذلك فما جدوى الحصول على شهادة جامعية؟!.

وفي الدورة التدريبية التي يحضرها «جون» هناك زميلان آخران - أحدهما فتاة جذابة من نيوزيلندا والآخر شاب من أبناء لندن ذو وجه تكسوه البقع، بالإضافة إلى حوالي عشرة من عملاء

IBM وبعض رجال الأعمال، وإذا روعي العدل والإنصاف فينبغي أن يكون «جون» أفضل واحد في المجموعة، وربما أيضا الفتاة السابقة الإشارة إليها. وهي أيضا حاصلة على شهادة جامعية في الرياضيات. كان جون في الواقع - يجد صعوبة في فهم المواد التي تدرس في الدورة ويخطئ في حل التمرينات التحريرية، وفي آخر الأسبوع الأول من الدورة عقد امتحان للمتدربين لم ينجح فيه «جون» إلا بصعوبة، ولم يكن المدرب راضيا عنه، وعبر له عن ذلك، ويكتشف «جون» أنه ليس من الضروري أن يكون الإنسان مهذبا في عالم المال والأعمال.

ولا يوجد في البرمجة ما يستعصي عليه فهمه، ولكن حتى رجال الأعمال من زملائه في الدورة يجدون صعوبة في ذلك، وكان «جون» من السذاجة بحيث ظن أن برمجة الكمبيوتر هي عبارة عن ترجمة المنطق الرمزي والنظريات الموضوعة إلى رموز رقمية، وأن طبيعة العمل ستتناول أرقاما عن الأرصدة والتدفقات النقدية بين العميل «أ» والعميل «ب». ولكن ما الأرصدة والتدفقات النقدية؟ وما العلاقة بينها وبين الرياضيات؟ ويمكن أن يكون أيضا موظفا كتابيا يفرز البطاقات في مجموعات، أو ملاحظ عمال محطة تحت التدريب.

وفي نهاية الأسبوع الثالث يقصد الامتحان التحريري النهائي وينجح فيه «جون» ولكن دون تفوق، ومن ثم ينقل إلى شارع نيومان، حيث يخصص له مكتب في إحدى الغرف مع تسعة مبرمجين آخرين وجميع أثاث الغرفة باهت، وفي درج المكتب يجد ورقا ومسطرة وأقلام رصاص ومبراة ودفتر مواعيد صغيرا ذا غلاف

بلاستيكي أسود، مكتوبا عليه بأحرف كبيرة فكّر، وعلى مكتب رئيسه المباشر الموجود في زاوية الغرفة توجد لافتة مكتوب عليها «فكر، فكر هذا هو شعار IBM. ويفهم «جون» من ذلك أن IBM ملتزمة بالتفكير المستمر دون انقطاع، وأن على العاملين بالشركة أن يفكروا في جميع الأوقات حتى يحققوا المثل الأعلى الذي ينشده مؤسس شركة IBM «توماس ج. واتسون»، والذين لا يفكرون ليس مكانهم في IBM التي تمثل أرقى شركة في مجال الأجهزة المكتبية. وفي مقر الشركة في «هوايت بلينز» بولاية نيويورك توجد مختبرات تجرى فيها أحدث أبحاث علوم الكمبيوتر أكثر من الأبحاث التي تجرى في جميع جامعات العالم مجتمعة. ويتقاضى العلماء في تلك المختبرات مرتبات أفضل من مرتبات أساتذة الجامعات، وتوفر لهم جميع الإمكانات، وكل المطلوب منهم مقابل ذلك هو فقط أن يفكروا.

ومواعيد العمل الرسمية في مكتب شارع «نيومان» هي من التاسعة صباحا إلى الخامسة مساء، إلا أنه سرعان ما يكتشف أن الموظفين الرجال الذين يغادرون المكاتب في الخامسة تماما ينظر إليهم نظرة تنم عن عدم الرضا، وأما الموظفات اللاتي لديهن عائلات فيمكنهن الانصراف في الخامسة تماما دون لوم أو عتاب، والرجال ينتظر منهم أن يعملوا حتى السادسة على الأقل – وإذا كانت هناك أعمال عاجلة فقد يطلب العمل منهم طوال الليل مع استراحة قصيرة للتوجه إلى بار لتناول بعض الطعام. أما هو فيكره البارات ويستمر في العمل ونادرا ما ينصرف قبل العاشرة مساء.

إنه في إنجلترا، وفي لندن، ولديه وظيفة، وظيفة بمعنى الكلمة - أفضل من مجرد التدريس - يتقاضى عنها أجرا. لقد هرب من جنوب أفريقيا، وكل شيء سيسير على ما يرام، ولقد حقق هدفه الأول، ومن المفروض أن يكون سعيدا، إلا أنه بعد بضعة أسابيع يجد نفسه تعيسا ،وتزداد تعاسته يوما بعد يوم. ويصاب بنوبات من الفزع يقاومها بشق الأنفس. وأما في المكتب فكل ما تقع عليه عيناه عبارة عن مسطحات معدنية. وتحت أنوار النيون المائلة.

يشعر كأن شيئا يخنق روحه، والمبنى الذي به المكتب عبارة عن بلوك ليست له معالم مميزة ومكون من خرسان وزجاج ويبدو أنه ينبعث منه شيء عديم اللون والرائحة ينفذ الى دمه كأنه مخدر، ويقسم أن IBM تقتله وتحوله إلى شخص متبلد الحس مسلوب الإرادة، لكنه لا يستسلم. لقد سبق أن فشل في مدرسة بارنيت هيل الثانوية الحديثة ثم في روثامستيد، ولا يود أن يفشل للمرة الثالثة في IBM، فالفشل سيجعله صورة من والده، فهو من خلال عمله في هذه الشركة القاسية يمر بامتحان للعالم الحقيقي، وعليه أن يستجمع كل قواه ويتحمل لكي ينجح.

الفصل السادس

المهرب الوحيد من IBM هو الذهاب إلى السينما، وفي سينما «أفريمان» في منطقة «هاميستيد» يشاهد أفلاما من مختلف أنحاء العالم، ومخرجين لم يسمع عنهم من قبل، وقد عرضت أفلام «أنتونيوني» في موسم كامل حضره بأكمله، وأحد هذه الأفلام واسمه «ليكليس»، يتناول قصة امرأة تتجول في شوارع مدينة مهجورة، ضربتها حرارة الشمس، وتعاني الاضطراب والحزن، ويتساءل جون، ما سرّ حزنها؟ إذ إن وجهها لا يفصح عن شيء.

واسم هذه المرأة «مونيكا فيتي»، ولها ساقان جميلتان، ووجه جذاب، ونظرة تدل على أنها شاردة الذهن، مشغولة البال، ومونيكا تؤرقه، إذ يقع في حبها ويتخيل أنها تختاره من بين رجال العالم أجمعين، إذ تجد معه السلوى والراحة.

ولكن هل هو فعلا الحبيب الذي تبحث عنه مونيكا؟ وهل هو أفضل من الرجال الآخرين الذين يظهرون في أفلامها ويحاولون تخفيف أحزانها؟ والحزن الذي تعانيه مونيكا وغيرها من شخصيات أفلام «أنتونيوني» هو من نوع لا يعرفه، والواقع أنه ليس حزنا على الإطلاق، بل هو أعمق من ذلك، إنه الحصر النفسي، أي الشعور بالقلق والخوف، يرافقه عادة شعور بالاكتئاب، وهو يريد أن يتذوق طعم ذلك الشعور على الأقل ليعرف كنهه، ولكن مهما حاول فلن يجد في قلبه شيئا يمكن أن ينطبق عليه

هذا الوصف، ويبدو أن هذا الشعور ذو طابع أوروبي محض، ولم يجد طريقه إلى إنجلترا بعد، ناهيك عن المستعمرات البريطانية.

وقرأ «جون» مقالا في صحيفة «الأوبزرفر» يقول فيه كاتبه إن تناول السينما الأوروبية لهذا الشعور مبعثه الخوف من فناء العالم بالسلاح النووي، إلا أنه غير مقتنع بذلك، ولا يعتقد أن ما يجعل مونيكا تهيم على وجهها في شوارع «باليرمو» تحت أشعة الشمس المحرقة هو القنبلة الهيدروجينية، فالمسألة أكثر تعقيدا من ذلك، كما يتغلغل هذا الشعور بالخوف والقلق في أعماق شخصيات أفلام «بيرجمان»، وهو السبب فيما يعانونه من وحدة وانعزال لا شفاء منهما، إلا أن صحيفة «الأوبزرفر» تقول إنه يجب عدم أخذ ذلك مأخذ الجد، لأنه عبارة عن ادعاء وتظاهر ليسا غريبين عن ليالي أقصى شمال أوروبا الطويلة، وما فيها من إفراط في الشراب.

وحتى الصحف التي يفترض أنها ليبرالية كـ «الجارديان» و«الأوبزرفر»، فهي معادية لحياة العقل والفكر، كما بدأ جون يكتشف ذلك، فعندما تكتب عن موضوع مهم وجاد سرعان ما تعالجه بأسلوب تهكمي، والبرنامج الثالث بالإذاعة هو المنبر الصغير الوحيد الذي يتناول الفن الجديد، كالشعر الأمريكي والموسيقى الإلكترونية والفن التعبيري التجريدي، تناولا جادا، وتتجه إنجلترا الحديثة إلى أن تكون بصورة مزعجة بلدا لا يهتم بالثقافة الرفيعة، ولا يختلف كثيرا عن إنجلترا التي رسمها، «و. هـ. هنلي» ومارشات للاحتفالات التي تظهر فخامتها وجلالها، والتي هاجمها باوند بشدة في عام ١٩١٢. ويتساءل جون: ما

الذي يفعله في إنجلترا إذن؟ هل كان حضوره إلى إنجلترا خطأ كبيرا؟ وهل لا تزال هناك فرصة للانتقال إلى مدينة أخرى؟ وهل باريس مدينة الفن والفنانين، مناسبة أكثر من لندن، إذا أمكنه بطريقة ما إتقان اللغة الفرنسية؟ وماذا عن «ستوكهولم»، التي ينتمي إليها بروحه؟ ولكن ماذا عن اللغة السويدية، وكيف سيجد لقمة العيش فيها؟

وفي مكاتب IBM يجب أن يحتفظ جون بخيالاته عن مونيكا، وعن تأثره بباقي الفنانين لنفسه، ولأسباب لم يفهمها يجد أن أحد زملائه المبرمجين واسمه «بيل بريجز» يميل إليه، ويريد أن يتخذه صديقا، وبيل قصير القامة، ويكسو وجهه حب الشباب، وله صديقة اسمها «سينثيا» ينوي أن يتزوجها، ويتمنى أن يتمكن قريبا من دفع مقدم ثمن شراء منزل في «ويمبلدون»، ويتحدث بلكنة لندنية واضحة، ويدخر أمواله في حساب بإحدى جمعيات بناء المساكن، بينما يتحدث باقي المبرمجين بلكنة طلبة مدارس المتفوقين، التي ليست لها علامات مميزة، ويبدأون عملهم اليومي بتصفح صحيفة «التلجراف»، لمعرفة أسعار الأسهم في الصفحات التي تتناول الشؤون المالية.

وعلى رغم أن «بيل بريجز» أصوله الاجتماعية متواضعة، فليس هناك ما يمنع من أن ينجح في شركة IBM، فهي شركة أمريكية لا تعترف بالتقسيم الطبقي في بريطانيا، وسر قوتها يكمن في أنه باستطاعة أي شخص، أيا كان مستواه الاجتماعي، أن يصل فيها إلى القمة، لأن كل ما يهمها هو الولاء والإخلاص والعمل بكل جد واجتهاد وتركيز، ومما لا شك فيه أن «بيل» مخلص في عمله

ويشعر بالولاء نحو IBM، ولديه إلمام بالأهداف الكبرى للشركة، وبمركز معالجة البيانات، وفي هذه النواحي يتفوق بيل على جون.

ويحصل موظفو IBM على كوبونات للغداء، ويمكن مقابل ثلاثة بنسات ونصف تناول وجبة محترمة، ويفضل جون الذهاب إلى «بارليونز» في شارع «توتنام كورت»، حيث يتناول تشكيلة منوعة من السلطات، إلا أن المكان المفضل لباقي المبرمجين، هو محل «شميت» في شارع «تشارلوت»، ولذلك يذهب جون مع بيل إلى ذلك المطعم، ويتناول وجبة مكونة من شرائح لحم العجل بالبقسماط أو لحم أرنب بري، وعلى سبيل التغيير، يذهبان أحيانا إلى محل أثينا في شارع جورج لتناول «المسقعة»، وبعد الغداء، إذا لم يكن هناك مطر يقومان بجولة سريعة في الشوارع قبل العودة إلى المكتب.

وهناك موضوعات كثيرة اتفق جون وبيل اتفاقا ضمنيا على عدم الخوض فيها، لدرجة أن جون متعجب حيث لم يعد هناك أي موضوع آخر للنقاش، ومن الموضوعات التي اتفقا على عدم الحديث فيها حياتهما الخاصة وعائلاتهما وتربيتهما في الصغر والسياسة والدين والفن، وأما كرة القدم، فمسموح الكلام عنها، ما دام جون لا يعرف أي شيء عن النوادي الإنجليزية، ولم يتبق للحديث عنه إلا الأحوال الجوية، وإضرابات سائقي القطارات، وأسعار المساكن، والأمور المتعلقة بشركة IBM، مثل خططها المستقبلية وعملائها ومشروعاتهم، ورأيهم في الشركة.

معنى ذلك أن الحديث بينهما ممل وكئيب، ولكن يقابل ذلك أنه قبل شهرين فقط كان «جون» قرويا ساذجا ينزل بقدميه على

رصيف ميناء «ساوث هامبتون» الذي يكسوه المطر، وأما الآن فهو في قلب مدينة لندن لا يميزه أحد، بزيه الموحد ذي اللون الأسود، عن أي موظف آخر في لندن، ويتبادل الآراء في القضايا اليومية مع مواطن عريق من أبناء لندن، ويراعي الأصول والتقاليد في الحديث، وإذا استمر نجاحه على هذا المنوال، وإذا كان حريصا في مخارج ألفاظه أثناء حديثه، فلن يكون غريبا وسط الجماهير في لندن، بل سيصبح مع مضي الوقت مواطنا إنجليزيا.

والآن وبعد أن أصبح لجون دخله الخاص أمكنه تأجير غرفة خاصة له في شارع متفرع من طريق «آرتشواي»، في شمال لندن، وتقع الغرفة في الطابق الثاني من المنزل، وتطل على مستودع للماء، ويوجد فيها مدفأة تعمل بالغاز، وفجوة صغيرة بجدار الغرفة، بها موقد غاز وأرفف لوضع الطعام وأدوات المائدة، كما يوجد عداد للغاز في أحد أركان الغرفة يعمل بواسطة وضع عملة معدنية فيه.

وطعامه ثابت لا يتغير، وهو مكون من: التفاح وعصيدة الشوفان والخبز والجبن ونقانق صغيرة بالبهارات يقوم بقليها على الموقد، وهو يفضل تلك النقانق الصغيرة على العادية، لأنها تحتاج لحفظها في الثلاجة، كما لا ينزل منها دهون في المقلاة عند قليها، وهو يعتقد أنها مصنعة بخليط من اللحم ونشا البطاطس، ولكنه لا يرى بأسا في ذلك.

ونظرا إلى أنه يغادر الغرفة في الصباح الباكر ويعود من العمل متأخرا، فهو نادرا ما تقع عيناه على جيرانه من السكان، وسرعان ما وضع لنفسه روتينا ثابتا... فهو يقضي أيام السبت في زيارة

المكتبات وصالات الفنون والمتاحف ودور السينما، وفي أيام الآحاد، يقرأ جريدة «الأوبزرفر» في غرفته، ثم يذهب إلى السينما أو يمشي في شوارع منطقة «هيث».

وأسوأ أوقاته هي مساء السبت والأحد، حيث تقتله الوحدة، التي عادة ما ينجح في الخروج منها، تلك الوحدة التي لا يمكن تمييزها عن طقس لندن بضبابه ومطره، أو من البرد القارس للأرصفة، والصمت يجعله يشعر ببلادة الحس، وعبارات التحية، وما شابهها التي يتبادلها في IBM هي أفضل من الصمت.

وكل أمله هو أن تخرج امرأة من بين تلك الجماهير التي لا ملامح لها، امرأة تستجيب لنظراته، وتسير بجواره وتصادقه ثم تختفي في الظلام، ثم تظهر من جديد في اليوم التالي وتلتقي به، وتعود وتظهر يوما بعد يوم لتغير من نمط حياته، وتطلق فيضا من الشعر على نمط «قصائد لـ أورفيوس»، لـ «ريلكن».

ويصله خطاب من جامعة «كيب تاون» مفاده أنه نظرا لنجاحه بمرتبة الشرف، فسيحصل على منحة مالية قدرها مائتا جنيه لاستكمال دراسته العليا.

وهذا مبلغ صغير ولا يكفي للالتحاق بأي جامعة إنجليزية، وعلى أي حال، فبعد أن وجد وظيفة يجب عليه ألا يفكر في التوقف عن الدراسة، وبدلا من أن يرفض المنحة لم يجد أمامه سوى خيار واحد، وهو التسجيل في درجة الماجستير بالمراسلة بجامعة «كيب تاون»، وقام بالفعل بتعبئة طلب التسجيل وبعد تفكير عميق كتب «الأدب»، تحت بند «التخصص الدقيق»، وكان من الأفضل أن يختار الرياضيات، ولكن ليست لديه المهارة الكافية

للاستمرار في دراستها، وقد تكون الرياضيات أرقى وأسمى من الأدب، ولكن على الأقل لا يوجد في دراسة الأدب ما يخيفه أو يرهبه، وأما عن موضوع البحث في رسالة الماجستير، فتداعبه فكرة دراسة مقاطع صغيرة من شعر «أيزرا باوند»، ولكنه في النهاية يقرر دراسة روايات «فورد مادوكس فورد»، لأن ذلك على الأقل لا يتطلب معرفة اللغة الصينية.

وكان اسم فورد عند ولادته «هوفر»، وهو حفيد الرسام فورد مادوكس براون، وقد نشر أول كتاب له عام ١٨٩١، وهو في سن الثامنة عشرة، وبعد ذلك، وحتى وفاته عام ١٩٣٩، كان يكسب قوت يومه من الأعمال الأدبية فقط، وقد أطلق باوند عليه لقب أعظم كاتب نثر في عصره، وانتقد الإنجليز لتجاهلهم إياه، وجون نفسه سبق أن قرأ خمسا من روايات فورد - «الجندي الطيب» - وأربعة كتب أخرى تشكل «نهاية الاستعراض»، وهو مقتنع بما يقوله باوند، كما أنه منبهر بتسلسل الأحداث والحبكة القصصية لدى فورد، ومهارته في الإشارة العابرة إلى حدث معين، بحيث يتضح بعد عدة فصول أنه الموضوع الرئيسي في القصة.

ويتأمل جون أعمال فورد ويقول: إذا كان قد كتب مثل هذه الروائع، فمن المؤكد أن هناك روائع أخرى لم يهتم بها أحد، وموجودة فقط كأرقام في سجلات المكتبات، وبإمكانه أن يجعلها ترى النور، ويبدأ جون على الفور في قراءة الأعمال الكاملة لفورد، ويقضي نهار كل سبت في قاعة المطالعة بالمتحف البريطاني، وكذلك في مساء يومين من كل أسبوع يتأخر إغلاق القاعة فيهما.

ويشعر جون بخيبة الأمل من أعمال «فورد في بداياته، ولكنه يواصل ملتمسا له العذر إذ لم يكن قد أتقن فن الكتابة بعد.

وفي أحد أيام السبت، يتبادل الحديث مع قارئة تجلس بجواره ويتناولان الشاي معا في قاعة الشاي بالمتحف، واسمها «أنا»، وهي بولندية المولد، ولا تزال تتحدث بلكنة أجنبية خفيفة، وهي تعمل باحثة، وتتردد على قاعة المطالعة كجزء من عملها، وهي في الوقت الحاضر تبحث عن مصادر عن حياة «جون سبيك»، مكتشف منابع النيل، وأما هو، فيحدثها عن «فورد» وتعاونه مع جوزيف كونراد، وعن الوقت الذي قضاه كونراد في أفريقيا، وعن حياته الأولى في بولندا، وطموحه فيما بعد لأن يصبح من أثرياء الريف الإنجليزي.

وبينما هما يتحدثان، يتعجب جون: هل هو فأل حسن أنه وهو طالب يدرس «فورد» يلتقي في المتحف البريطاني بإحدى مواطنات كونراد؟ وهل «أنا» هي المرأة الموعودة؟ وهي بالتأكيد ليست جميلة، كما أنها تكبره سنا، وهي نحيفة، وهزيلة الوجه، تلبس حذاء منخفضا وبسيطا، وتنورة رمادية غير واضحة المعالم، ولكن بأي صفة يمكن له أن يقول إنها تستحق أكثر من ذلك؟

وكان على وشك أن يطلب منها الخروج معا إلى السينما مثلا، ولكن خانته الشجاعة.

ويلاحظ جون أن من بين المترددين على قاعة المطالعة من يعانون مثله من الوحدة، ومنهم رجل هندي ذو وجه تملأه الثقوب، وتنبعث من جسمه رائحة بثور وضمادات متسخة، وفي كل مرة يذهب جون إلى دورة المياه يسير ذلك الشخص خلفه ويهم

بالحديث إليه، ولكنه يتوقف عن ذلك، وأخيرا وبينما هما واقفان امام حوض الغسيل، يتحدث ذلك الهندي إليه، ويسأله بحدة: هل هو طالب في الكلية الملكية، ويرد جون: بل في جامعة «كيب تاون»، ثم يدعوه لتناول الشاي معه في قاعة الشاي، حيث يبدأ في حديث طويل عن أبحاثه التي تدور حول التركيب الاجتماعي لجمهور مسرح «الجلوب»، وهذا الموضوع لا يهم جون، ولكنه يحاول بكل جهده الإنصات إليه.

ويفكر جون في حياة العقل، ويتساءل: هل هي ما كرسنا حياتنا لها، أنا وغيري من الذين يشعرون بالوحدة، ويتجولون في أروقة المتحف البريطاني؟ وهل سنكافأ على ذلك يوما ما؟ وهل ستنجلي وتتقشع العزلة، أم أن حياة العقل هي المكافأة؟

الفصل السابع

الساعة الآن الثالثة بعد ظهر السبت، و«جون» موجود بقاعة المطالعة منذ الصباح؛ يقرأ رواية «همبتي دمبتي» لفورد، وهي رواية مملة يغالب النوم من يقرأها.

وبعد برهة قصيرة ستغلق قاعة المطالعة، بل وسيغلق المتحف البريطاني العظيم أبوابه، وقاعة المطالعة مغلقة أيام الأحد، ومن الآن وحتى السبت التالي ستقتصر مطالعته على ساعة يقتنصها من وقته بين الحين والآخر كل مساء. فهل سيثابر على القراءة حتى انتهاء دوام المكتبة رغم أنه يقاوم النوم؟ وما الفائدة من هذا الموضوع برمته؟ وما جدوى حصول مبرمج كمبيوتر على ماجستير في الأدب الإنجليزي إذا كانت البرمجة هي حياته؟ وأين هي الروائع التي كان يعتزم اكتشافها و«همبتي دمبتي» بالتأكيد ليست من هذه الروائع، لذلك يطوي الكتاب ويجمع أوراقه ويغادر المكتبة.

وخارج المكتبة كان الليل قد بدأ يرخي سدوله، وسار «جون» عبر شارع «جريت راسل» بخطوات متثاقلة نحو طريق «توتنام كورت»، ثم اتجه جنوبا صوب شارع «تشارنج كروس»، حيث كان جانبا الشارع يَعُجَّان بالشباب، وإذا تحرينا الدقة يمكن القول إن «جون» من جيلهم، ولكنه لا يشعر بذلك، بل يشعر بأنه بلغ منتصف العمر قبل الأوان، وأصبح أحد أولئك الباحثين بلونهم الشاحب ومظاهر الإرهاق التي تبدو عليهم، وجلدهم يتقشف بمجرد لمسه. ولكنه يشعر في أعماق نفسه بأنه لا يزال طفلا لا يعرف مكانه في هذا العالم، ويشعر

بالخوف والرعب وعدم الاستقرار. وماذا هو فاعل في هذه المدينة الباردة الضخمة، حيث إن مجرد العيش فيها يعني أن تكون يقظا طوال الوقت حتى لا تتعرض للسقوط؟

والمكتبات الموجودة بشارع «تشارنج كروس» تظل مفتوحة حتى السادسة مساء، ومعنى ذلك أنه سيجد مكانا يأوي إليه حتى تلك الساعة، وبعدها سيخرج إلى الشوارع يسير على غير هدى وسط زحام الباحثين عن المتعة ليلة السبت. ويمكنه للحظة أن يسير خلفهم متظاهرا بأنه أيضا يبحث عن المتعة، وأنه ذاهب إلى مكان ما للقاء أحد الأشخاص، ولكنه في النهاية يتوقف عن كل ذلك، ويركب القطار عائدا إلى محطة «آرنشاوي» وإلى غرفته الموحشة.

ومكتبة «فويلز» التي سمع عنها، حتى وهو في «كيب تاون»، أصابته بخيبة الأمل، فما تدعيه هذه المكتبة من أنها تضم كل كتاب صدر هو كذب وافتراء. ومعظم العاملين بالمكتبة أصغر منه سنا، ولا يعرفون مكان الكتب. وهو يفضل مكتبة «ديلونز»، رغم أن الكتب فيها موضوعة على الأرفف بطريقة عشوائية، وهو يحاول التردد على هذه المكتبة مرة في الأسبوع للاطلاع على كل ما هو جديد.

ومن المجلات التي وجدها في مكتبة «ديلونز» مجلة «ذي أفريكان كوميونيست»، التي سبق أن سمع عنها ولكنه لم يطلع عليها، حيث إنها ممنوعة في جنوب أفريقيا، ودهش «جون» إذ وجد أن من بين كُتَّاب المجلة بعض زملائه من الطلبة من «كيب تاون»، وهم من النوع الذين كانوا ينامون طوال النهار ويذهبون إلى الحفلات في المساء، ويحتسون الخمر حتى الثمالة، ويعيشون عالة على آبائهم، ويرسبون في الامتحانات، ويتأخرون في التخرج سنتين عن زملائهم. ولكنهم هنا

في لندن يكتبون مقالات جادة ورصينة، ويتناولون موضوعات مثل اقتصاديات العمالة المهاجرة او الانتفاضات الشعبية بمنطقة «ترانسكي» الريفية، فمن أين لهم الوقت لمعرفة كل هذه الأشياء في ظل الرقص والشراب؟

إلا أن السبب الحقيقي الذي يجعله يتردد على مكتبة «ديلونز» هو الاطلاع على المجلات الشعرية، وتوجد مجموعة من تلك المجلات ملقاة على الأرض خلف المدخل الأمامي للمكتبة. ومن هذه المجلات «أمبيت» و«أجندة» و«بون»، وبعض الأوراق المنسوخة على الاستنسل من أماكن بعيدة مثل «كيل»، وأعداد من مجلات لا تصدر بصورة منتظمة، ومجلات قديمة من أمريكا، ويشتري «جون» نسخة من كل منها، ويأخذها معه إلى منزله، حيث ينكب على قراءتها للتعرف على كتاب المقالات، وعما إذا كان بإمكانه أن يكتب عن موضوعات معينة إذا أتيحت له فرصة النشر.

والمجلات البريطانية حافلة بقصائد شعرية متواضعة القيمة، وتتناول أفكارا وخبرات يومية، ولم تكن لتثير الاهتمام لو نشرت قبل ذلك بنصف قرن. أين ذهب طموح الشعراء البريطانيين؟! ألم يعلموا أن إدوارد توماس وعالمه ذهبا إلى غير رجعة؟ ألم يستوعبوا الدرس من «باوند» و«إليوت»، ناهيك عن «بودلير» و«ريمبو» والكتاب الإغريق الساخرين، والكتاب الصينيين؟!

ولكن قد يكون حكمه على الشعراء الإنجليز جاء متسرعا، فربما لم يطلع على المجلات المناسبة، وربما هناك مطبوعات أخرى أكثر جرأة ولكنها غير متوافرة بمكتبة «ديلونز»، أو ربما هناك مجموعة من الشعراء المبدعين المتشائمين من المناخ السائد لدرجة أنهم لا يهتمون

بإرسال المجلات التي تنشر فيها قصائدهم إلى مكتبة «ديلونز»، ومن هذه المجلات «بوتشيج أوسكور»، ولكن أين يجدها؟ وإذا كانت هذه المجموعة المتورة موجودة فكيف يتعرف عليها ويلتقي بها؟

وأما عن كتاباته هو فيأمل قبل أن يدركه الموت أن يترك بضع قصائد يقوم أحد الباحثين المخلصين بتحقيقها وطباعتها في كتيب صغير أنيق يجعل من يقرأها يهز رأسه إعجابا، يا له من أمل! ويا له من إحساس بالضياع! إلا أن القصائد التي يكتبها يتناقص عدد أبياتها يوما بعد يوم، بل وتصبح أقل قيمة. ويبدو أنه لم تعد لديه القدرة على نظم أشعار من النوع الذي كان يكتبه عندما كان في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة، والتي - وإن كانت تملأ صفحات طويلة، وبها تكرار وغير مناسبة في بعض أجزائها - كانت تتميز بالجرأة والجدة والطرافة، وكانت تلك القصائد في معظمها نتاج لوعة الحب وكذلك نهمه للقراءة. والآن، وبعد أربع سنوات لا يزال يعاني الحزن واللوعة، ولكن حزنه أصبح معتادا بل مزمنا كالصداع، والقصائد التي يكتبها قصيرة ومتدنية المستوى، وأيا كان الموضوع الذي يفترض أنها تتناوله فهو يسكن قلبه بما يعانيه من حصار نفسي ووحدة وتعاسة، ولكنه يدرك أن هذه القصائد الجديدة تفتقر إلى الحيوية، بل والرغبة في استكشاف الطريق المسدود الذي يواجه روحه بصورة جادة.

والواقع أنه مرهق على الدوام، وهو يجلس أمام مكتبه الرمادي اللون، وتنتابه نوبة قوية من التثاؤب يحاول إخفاءها. وفي المتحف البريطاني تتراقص الكلمات أمام عينيه، وكل ما يريده هو أن يضع رأسه بين ذراعيه ويستسلم للنوم.

ولكنه لا يمكن أن يقبل أن تكون حياته في لندن من دون تخطيط وبلا معنى، وقبل قرن من الزمان كان الشعراء يفقدون صوابهم بتعاطي الأفيون أو الخمور حتى يمكنهم، وهم على شفا الجنون، أن يصفوا تجاربهم الخيالية، وهم بذلك تحولوا إلى عرافين ومنجمين، وجون ليس ميالا إلى الأفيون أو الخمور لخوفه من أن تضر صحته، ولكن الإرهاق والتعاسة...، أليس لهما المفعول نفسه؟ وهل الحياة على شفا الانهيار النفسي تختلف عن الحياة على شفا الجنون؟ ولماذا يعتبر الانزواء في غرفة مهملة على الضفة الغربية لنهر التايمز، لا يدفع عنها إيجارا، أوالتنقل من مقهى إلى آخر أشعث أغبر، تفوح منه روائح كريهة ويتسول المشروبات، تضحية أكبر ومحوا للشخصية أكبر من ارتداء بدلة سوداء وإنجاز الأعمال المكتبية التي تحطم الروح، والاستسلام للوحدة المؤدية إلى الموت أو الحب من دون لهفة؟ ولا شك أن شراب «الأبسانت» والملابس الرثة تعتبر موضة قديمة الآن، وعلى أي حال ما وجه البطولة في التهرب من دفع الإيجار لصاحب البيت؟

و«ت.س.إليوت» كان يعمل في أحد البنوك، و«والاس ستيفنز» و«فرانز كافكا» كانا يعملان في شركات التأمين، وكل منهم عانى بطريقته الخاصة أكثر من معاناة «بو» و«ريمبو». وليس من العيب أن يحذو أحد حذو «إليوت» و«ستيفنز» و«كافكا». وقد اختار «جون» أن يرتدي بدلة سوداء مثلهم، وتحمل ذلك من دون أن يستغل أو يغش أحدا. وفي العصر الرومانتيكي أصيب عدد كبير من الفنانين بالجنون، وعبروا عن جنونهم في صورة شعر أو لوحات فنية تعكس هلوستهم وهذيانهم، وقد انتهى ذلك العهد، وأما جنونه هو، إذا كان مقدرا له أن يعانيه، فسيكون مختلفا - هادئا ومتحفظا. وسينزوي في

أحد الأركان منحني الظهر، كالرجل ذي الرداء في النقش المحفور لـ «دورر»، منتظرا على مضض أن تنتهي حصته من العذاب، وبعد ذلك سيخرج أقوى مما كان لأنه تحمل العذاب.

تلك هي القصة التي يحكيها لنفسه عندما يكون في حالة نفسية جيدة، ولكن عندما تكون حالته النفسية سيئة يتساءل عما إذا كانت انفعالاته المملة والرتيبة يمكن أن يتولد عنها شعر عظيم؟ والنزعة الموسيقية القوية التي كانت بداخله بدأت تخفت، فهل النزعة الشعرية لديه هي أيضا في طريقها إلى التلاشي؟ وهل سيضطر إلى التحول من الشعر إلى النثر؟ وهل حقيقة النثر التي يحاول أن يخفيها الكاتب هي أنها من مستوى الدرجة الثانية، الذي يلجأ إليه كتاب يفتقرون إلى الإبداع؟

والقصيدة الوحيدة التي كتبها طوال العام السابق، والتي يحبها كثيرا، لا تضم سوى خمسة أبيات.

زوجات صيادي سرطان البحر

اصبحن معتادات على الاستيقاظ وحيدات

لأن ازواجهن منذ قرون يخرجون للصيد عند بزوغ الفجر

ونومهم ليس مضطربا مثلي

إذا كنت قد ذهبت فاذهب إذن إلى صيادي سرطان البحر البرتغاليين

«صيادو سرطان البحر البرتغاليون»: إنه مسرور في قرارة نفسه لأنه أدخل مثل هذه العبارة العادية في القصيدة، بل إن القصيدة نفسها إذا نظرنا إليها نظرة فاحصة وجدنا أنها ليست ذات قيمة كبيرة، وهو يحتفظ بمجموعة من الكلمات والعبارات - سواء الواضحة أو الغامضة - التي تنتظر أن تجد لها مكانا في أشعاره، مثل

كلمة Preferid (أي الحماس الشديد)، التي سيستعملها يوما ما في قصيدة قصيرة لاذعة، سيحكي عنها التاريخ أنها ابتكرت لكي تكون مكانا لكلمة واحدة، مثلما يصمم بروش كي توضع عليه جوهرة واحدة، وستبدو القصيدة كأنها تدور حول الحب أو اليأس، لكنها تنبثق كلها عن كلمة واحدة جميلة ذات جرس رنان غير واثق تماما من معناها.

ولكن، هل تكفي القصائد القصيرة اللاذعة نواة لمستقبل شاعر؟ ليس هناك عيب في شكل تلك القصائد، إذ يمكن دمج التعبير عن عالم الأحاسيس كله في كلمة واحدة، كما أثبت الإغريق ذلك مرارا وتكرارا. إلا أن قصائده القصيرة لا تتوافر فيها هذه الخاصية، إذ تفتقر إلى الأحاسيس وكثيرا ما تكون نظرية ومستندة إلى الكتب فقط.

ويقتبس «جون» في يومياته هذه الجملة نقلا عن إليوت: «الشعر ليس متنفسا للانفعالات بل هو مهرب منها، وهو ليس تعبيرا عن الشخصية بل هروب منها» ويستدرك «إليوت» قائلا في مرارة: «ولكن الذين لديهم شخصية وانفعالات يعرفون معنى الرغبة في الهروب منهما».

«وجون» يخاف من إطلاق العنان لعواطفه وانفعالاته لكي تجري فوق سطور الورقة، فما إن تبدأ في الانطلاق لا يعرف كيف يوقفها، وهي في هذه الحالة تشبه قطع شريان ثم الوقوف متفرجا على دم الحياة وهو ينزف، والنثر لحسن الحظ لا يحتاج إلى عواطف وانفعالات، إذ له هدف يعبر عنه، وهو يشبه صفحة ماء هادئة بلا أمواج يسير المرء فوقها على هواه، محدثا أشكالا على سطحها.

ويخصص «جون» أسبوعا يبدأ فيه تجاربه في كتابة النثر. والقصة التي يتناولها في هذه التجارب - إذا اعتبرت قصة بمعنى الكلمة - ليس لها حبكة أو عقدة حقيقية، وكل الأحداث المهمة فيها مكانها في رأس الراوي، وهو شاب صغير مجهول الاسم يشبهه، يأخذ فتاة إلى شاطئ مهجور وينظر إليها وهي تستحم، ثم بحركة صغيرة لا شعورية منها يقتنع فجأة بأنها غير مخلصة له، ويعلم أنها تشعر بذلك ولا تعيره اهتماما. هذا كل ما في الأمر وهذه نهاية القصة.

وبعد أن انتهى من كتابة هذه القصة لا يعرف كيف يتصرف فيها، وهو لا يريد أن يعرضها على أي أحد سوى الفتاة الأصلية مجهولة الاسم، ولكنه فقد كل اتصال بها، وهي لا تعرف نفسها على أي حال، إلا إذا عرفها أحد بنفسها. وتقع أحداث هذه القصة في جنوب أفريقيا، والشيء الذي يؤرقه هو أنه لا يزال يكتب عنها ويفضل أن ينسى حياته في جنوب أفريقيا، مثلما ترك جنوب أفريقيا نفسها، إذا كانت جنوب أفريقيا بداية سيئة وعقبة كأداء في طريقه: أسرة ريفية مغمورة، وتربية مدرسية فاشلة، ولغة الأفريكانز، التي تخلص منها جميعا بصورة أو بأخرى. فهو الآن في العالم العظيم يكسب قوت يومه بيده، ويسير في حياته بصورة لا بأس بها، ولذلك فهو ليس في حاجة لمن يذكره بجنوب أفريقيا. وإذا هبَّ إعصار شديد وأمواج عاتية من المحيط الأطلسي غدا وغطت الطرف الجنوبي من القارة الأفريقية، فلن يذرف دمعة واحدة لأنه سيكون من بين الناجين.

ومما لا شك فيه أن القصة التي كتبها ضعيفة المستوى، إلا أنها ليست سيئة، وعلى رغم ذلك فهو لا يرى جدوى من محاولة نشرها، لأن الإنجليز لن يفهموها، لأن الشاطئ المشار إليه في القصة يختلف

عن فكرة الإنجليـز عن الشـواطئ، التي هي في نظرهم عـبـارة عن حصى ترتطم بها الأمواج الصغيرة. فهم لن يروا مساحة شاسعة من الرجال عند سفح صخور تضربها موجات عارمة، مع طيور النورس وغربان البحر تصيح بصوت عال وهي تصارع الريح.

ويبدو أن هناك جوانب أخرى يختلف فيها النثر عن الشعر، ففي الشعر يمكن أن يقع الحدث في أي مكان، إذ لا يهم أن تعيش زوجات الصيادين في «كالك باي» أو البرتغال أو ولاية «مين». وأما النثر فيجب أن يظهر فيه مكان محدد للحدث. و«جون» ليس ملما إلماما تاما بإنجلترا، بحيث يكتب عنها نثرا، بل هو ليس متأكدا من أنه يستطيع الكتابة عن أحياء لندن التي هو على دراية بها، وعن الحشود التي تمشي متثاقلة في طريقها إلى أعمالها، وعن البرد والمطر، والبيوت الصغيرة التي نوافذها من دون ستائر، وتستخدم لمبات الكهرباء ٤٠ وات. وإذا حاول الكتابة عن ذلك فهو يخشى أن يكون ما يكتبه عن لندن لا يختلف كثيرا عما يمكن أن يكتبه أي موظف أعزب آخر عنها، وقد تكون له رؤيته الخاصة عن لندن لكنها لا تختلف عن غيرها من الرؤى. وإذا كانت هذه الرؤية حادة فلأنها ضيقة وحسب، وهي ضيقة لأنها تجهل ما يجري حولها. وهو لم يتحكم في لندن، وإذا كان هناك من يتحكم في الآخر فإن لندن هي التي تتحكم فيه!

الفصل الثامن

هل محاولات جون الأولى في عالم النثر تمثل بداية تغيير لاتجاه حياته؟ وهل هو على وشك أن يهجر الشعر؟ هو ليس واثقا من ذلك، ولكن إذا كان ينوي كتابة نثر، فسوف يمضي إلى نهاية الشوط، ويتخذ من هنري جيمز مثلا يحتذى، وهنري جيمز يعلم القارئ كيف يتسامى فوق الجنسية، إذ لا يعرف من يقرأ روايته، هل تدور أحداثها في لندن، أم في باريس أم في نيويورك، وتتناول موضوعات أرقى وأسمى من روتين الحياة اليومية، وشخصيات رواياته غير مطالبين بدفع إيجار، ولا أن تكون لهم وظائف دائمة، وكل المطلوب منهم هو الانخراط في أحاديث مفرطة في الدقة، الهدف منها إحداث تحولات دقيقة في القوة، بحيث لا تراها إلا العين المجرية، وعندما تحدث تلك التحولات بصورة كافية يؤدي ذلك إلى حدوث تغيير مفاجئ ونهائي، وتوازن القوى بين شخوص القصة، وبذلك تكون القصة قد وصلت إلى غايتها وتنتهي عندها.

ويحاول جون أن يقلد أسلوب جيمز في الكتابة، ولكنه يكتشف أن ذلك أصعب مما كان يظن، فلكي يجعل الشخصيات التي يحلم بها تشارك في حديث مفرط في الدقة، فإن ذلك هو بمنزلة جعل الثدييات تطير، إذ سترفرف تلك الثدييات بأذرعها لحظة أو لحظتين محمولة على الهواء ثم تسقط.

وهنري جيمز في حساسيته وشعوره المرهف، يفوق جون بلا شك، ولكن ذلك لا يفسر كل ما يلاقيه من فشل، ويريد جيمز أن

يقنع القارئ بأن أهم شيء هو تبادل الحديث، والكلام بين الناس، وجون مستعد لأن يقبل هذا المبدأ، ولكنه لا يستطيع السير على هديه، لأنه في لندن، المدينة التي تمزقه فيها عجلة الحياة القاسية بتروسها الحادة، المدينة التي يجب أن يتعلم فيها الكتابة، وإلا فلماذا أتى إليها أصلا؟!

وعندما كان لا يزال طفلا بريئا كان يعتقد أن الشطارة هي المعيار الوحيد للنجاح، وأنه كلما كان الإنسان ماهرا استطاع تحقيق كل ما يرغب فيه، إلا أن التحاقه بالجامعة عرفه قدر نفسه، وأظهر له أنه هيهات أن يكون الأمهر بين زملائه، والآن وهو في لندن يواجه الحياة بواقعها المر، والتي ليس فيها حتى امتحانات يركن إليها، ويبدو له أن الشيء الوحيد الذي يمكنه أن يؤديه على أكمل وجه هو أن يكون بائسا، إذ في البؤس هو أنبغ طالب، ويبدو أنه لا حدود للبؤس والتعاسة اللذين يمكنه أن يجلبهما لنفسه ويتحملهما، وحتى وهو يسير متلكئا في الشوارع الباردة في هذه المدينة الغريبة على غير هدى، لمجرد أن يشعر بالتعب، حتى يستطيع - على الأقل - أن يخلد إلى النوم عندما يعود إلى غرفته، وهو في ذلك لا يشعر في قرارة نفسه بأي رغبة بأن ينهار تحت ثقل البؤس والتعاسة، فهو لا يستطيع العيش إلا في جو من التعاسة، كما تعيش السمكة في الماء، ولو ألغيت التعاسة من الوجود، فلن يعرف ما هو فاعل بنفسه.

ويقول جون لنفسه إن الإنسان لا يتعلم شيئا من السعادة، في حين أن التعاسة تؤهل الإنسان لمواجهة المستقبل، إذ هي مدرسة للروح، ومن وسط أمواجها يخرج الإنسان إلى الشاطئ البعيد،

وقد تطهرت روحه وامتلك القوة التي تمكنه من مواجهة التحديات في عالم الفن.

إلا أن التعاسة ليست حماما يتطهر فيه الإنسان، بل هي على العكس بركة مياه راكدة، والإنسان لا يخرج من كل نوبة جديدة من نوبات البؤس والتعاسة أكثر ذكاء وقوة، بل أكثر غباء وضعفا، والمعروف أن البؤس والتعاسة لهما أثر مطهر في نفس الإنسان، فكيف يحدث ذلك؟ فهل لم يسبح جون إلى أعماق البؤس؟ وهل عليه أن يسبح إلى ما وراء البؤس والوصول إلى السوداء (الانقباض النفسي) والجنون؟ ولم يسبق له أن قابل أحدا يمكن اعتباره مجنونا بمعنى الكلمة، ولكنه لم ينس «جاكلين» التي كانت باعترافها تخضع للعلاج، والتي قضى في صداقتها ستة أشهر فشلت خلالها في إطلاق شرارة الإبداع المقدسة، التي تجلب البهجة والنشوة، بل كانت على العكس مريضة بالوسواس وتصرفاتها غريبة، ومن الصعب التعامل معها. وهل هو من ذلك الصنف من البشر الذي يجب أن ينزل إلى مستواه قبل أن يصبح فنانا؟ وعلى أي حال، سواء أكان مجنونا أم بائسا كيف يمكنه أن يكتب عندما يتملكه الإرهاق والتعب، مثل يد في قُفّاز تقبض على رأسه، وتعصر مخه؟ وهل ذلك ما يفضل أن يطلق عليه امتحانا، امتحانا مقنعا دائما ما يفشل فيه، وبعد التعجب والإرهاق هل هناك امتحانات أخرى في الطريق عددها مثل عدد الدوائر الموجودة في «جحيم دانتي»؟

وهل التعب والإرهاق هما مجرد الامتحان الأول الذي يجب أن يجتازه الأساتذة العظام والكبار، مثل «هولدرلين» و«بليك» و«باوند» و«إليوت»؟ وهو يتمنى أن يمنح فرصة العودة إلى الحياة

لمدة دقيقة واحدة، بل ثانية واحدة ليعرف معنى أن يحترق في شعلة الفن المقدسة.

والمعاناة والجنون والحب هي ثلاثة طرق لجلب النار المقدسة إلى الإنسان، وقد وصل إلى أدنى مراتب المعاناة، وكان على صلة بالجنون، ولكن ماذا عن الحب؟ والكل يقول إن الحب والإبداع متلازمان، وهو لا يشك في ذلك، ونظرا إلى أن الفنانين مبدعون فهم يمتلكون سر الحب، والمرأة ترى بغريزتها النار التي تشتعل في داخل الفنان، علما بأن المرأة لا تمتلك هذه النار المقدسة (باستثناء سابو، إيملي برونتي)، والمرأة تصادق الفنان، بحثا عن لهيب الحب الذي تفتقده، ومن خلال هذه الصداقة يعود الفنان إلى عمله أكثر ثراء وقوة، كما يتغير شكل حياة المرأة.

وتسامي «هنري جيمز» عن الاهتمام بمجرد الحياة له تأثير عميق في جون، ولكنه مهما حاول لا يمكنه أن يشعر بيد جيمز الخفية تمتد إلى وجهه وتمسح جبينه وتباركه، وينتمي جيمنز إلى الماضي، فعندما ولد جون كان جيمز قد مات قبل ذلك بعشرين عاما. وكان جيمس جويس لا يزال حيا، وإن كان قاب قوسين أو أدنى من الموت، وهو يحب جويس، بل ويحفظ بضع فقرات من رواية يوليسيس عن ظهر قلب، ولكن جويس مرتبط عاطفيا ووطنيا ببلده أيرلندا، وبأحوالها أكثر من اللازم، بحيث من الصعب اعتباره ضمن العظماء، وأما إيزرا باوند وت. س. إليوت، فعلى رغم أنهما يتهاويان وتحيط بهما الأساطير، فلا يزالان على قيد الحياة، أحدهما في «رابالو» والآخر هنا في لندن، ولكن إذ كان «جون» ينوي أن يهجر الشعر أو يهجره الشعر، فما الذي سيستفيده من باوند وإليوت؟

وتبقى شخصية واحدة من عظماء العصر الحالي، وهو: د هـ. لورانس، الذي مات أيضا قبل ولادة جون، ولكن لا يمكن اعتبار ذلك حادثا عرضيا، لأنه مات في ريعان شبابه، وكان أول ما قرأه جون لـ لورانس، وهو طالب في المدرسة، رواية «عشيق الليدي تشاترلي»، وهي أكثر الكتب الممنوعة سوء سمعة، وعندما كان في السنة الثالثة بالجامعة كان قد قرأ جميع مؤلفات لورانس، ما عدا كتاباته المبكرة، كما كان زملاؤه من الطلبة يقبلون على قراءته أيضا. وقد تعلموا من لورانس كيف يحطمون القشرة الهشة التي تغلف تقاليد الحضارة والمدنية لكي يخرج منها جوهرها الحقيقي.

وجون نفسه كان حريصا على ألا يقلد لورانس تقليدا أعمى، فشخصيات لورانس النسائية تشعر جون بعدم الارتياح، لأنهن لن يشعرن بتأنيب الضمير، ولتلك الشخصيات معاييرهن الخاصة بالعفة والطهارة، كما يتميزن بالبرود العاطفي، وفي كثير من الأحيان يفضلن الوحدة أو الوجود مع أخواتهن.

وكان جون في الأسابيع القليلة السابقة على مغادرته لـ «كيب تاون» قد بدأ علاقة عاطفية مع فتاة اسمها «كارولين»، كانت تدرس المسرح، وتطمح في أن تكون ممثلة، وكانا يذهبان إلى المسرح معا، ثم يقضيان ساعات طويلة يتناقشان في مزايا «أنُوي» مقابل سارتر، وما يتميز به يونيسكو على بيكيت، الذي كان الكاتب المفضل لدى جون، وإن لم يكن كذلك لدى كارولين، التي اعتبرت كتاباته غاية في الحزن والكآبة، ولكن كان السبب الحقيقي في رأي جون لعدم حبها لـ «بيكيت» هو أنه لم يكتب أجزاء للمرأة، وبناء على إلحاحها كان جون قد بدأ في كتابة مسرحية شعرية

عن «دون كيشوت»، إلا أنه سرعان ما وجد نفسه في طريق مسدود، إذ إن عقل البطل الإسباني القديم كان بعيدا جدا، ولم يتمكن جون من الدخول إليه، ولذلك كف عن هذه المحاولة.

والآن وبعد مضي بضعة أشهر، تظهر كارولين في لندن وتتصل به، ويتقابلان في «هايد بارك»، ولا تزال سمرة أبناء نصف الكرة الجنوبي تكسو بشرتها، وهي تمتلئ حيوية وفرحة لوجودها في لندن ولقائها به، وكثيرا ما يتجولان في الحديقة، ومع حلول الربيع أصبحت الأمسيات التي يقضيانها سويا أطول والأرض مغطاة بأوراق الشجر، ثم يركبان أحد الباصات إلى «كينزنجتون».

وقد أعجب «جون» بحيويتها وعزيمتها، إذ لم يمض على وصولها إلى لندن سوى أسابيع قليلة، ومع ذلك ثبتت أقدامها فيها، إذ وجدت وظيفة وأرسلت سيرتها الذاتية إلى كل المسارح، وتستأجر شقة في أحد الأحياء الراقية مع ثلاث فتيات إنجليزيات، ويسألها جون كيف تعرفت عليهن فترد قائلة إنهن صديقات.

ويستأنف «جون» وكارولين علاقتهما العاطفية، ولكنها كانت صعبة من بدايتها، فالوظيفة التي وجدتها كانت نادلة «جرسونة»، في أحد النوادي الليلية في منطقة ويست إند، وساعات عملها غير ثابتة.

ولكن بمضي الوقت، بدأت كارولين تشعر بالملل بسبب علامات الحزن والوجوم التي ترتسم على وجهه دائما، وأما من جهته هو، فلم يجد فيها إلا فتاة عادية قادمة مثله من كيب تاون، وليست الفتاة الجميلة التي كان يحلم بلقائها في أوروبا، لذلك انقطعت علاقتهما.

الفصل التاسع

والفتيات في إنجلترا لا يلتفتن إليه ولا يُعِرْنَه أي اهتمام، ربما لأن مظهره، وخاصة ملابسه غير الأنيقة، يدل على أنه من أبناء المستعمرات، فعندما لا يكون مرتديا بدلة شركة IBM فإنه يرتدي قميص صوف فانلا رماديا وجاكيتا رياضيا أخضر أحضرهما معه من «كيب تاون»، بينما الشبان الذين يراهم في القطارات أو الشوارع يرتدون بنطلونات سوداء ضيقة وأحذية مدببة وجاكيتات ضيقة، وبها عدة أزرار. كما أنهم يطلقون شعورهم لتتدلى على جباههم وآذانهم، بينما شعره هو قصير من الخلف والجانبين، مع فرق في وسط الرأس صممه له حلاق القرية منذ أن كان طفلا، ولم تعترض عليه IBM. وفي أثناء ركوبه القطار تلقي الفتيات نظرة عليه تتفحصنه من منبت شعره إلى أخمص قدميه في ازدراء واحتقار.

وهناك شيء غير عادل تماما في المأزق والموقف الحرج اللذين يتعرض لهما «جون»، وهو يريد أن يعترض على ذلك، لكنه لا يعرف أين ولمن. فما نوع الوظائف التي يعمل بها منافسوه، والتي تسمح لهم بارتداء ما يحبونه؟ وعلى أي حال لماذا يرغم على اتباع أحدث صيحات الموضة؟ أليس لجوهر الإنسان أي قيمة؟ والشيء المعقول أن يشتري لنفسه بدلة مثلهم ويرتديها في عطلات نهاية الأسبوع، ولكنه عندما يتخيل نفسه مرتديا مثل هذه الملابس، التي هي في نظره ليست غريبة على شخصيته فحسب، بل هي أيضا لاتينية في طابعها أكثر منها إنجليزية، فإن مقاومته لها تزداد، ولا يمكنه أن

يفعل ذلك لأن معناه أنها ليست من طبيعته، وإنما هي لمجاراة الشبان مثله.

ولندن حافلة بالفتيات الجميلات اللاتي يأتين إليها من كل حدب وصوب، للعمل في المنازل أو لدراسة اللغة الإنجليزية أو لمجرد السياحة، وشعورهن تتدلى على وجوههن، وعيونهن ذات ظلال سوداء، يحيط بها بعض الغموض الرقيق، وأجملهن الفتيات السويديات الطويلات ذوات البشرة العسلية، كما أن للإيطاليات بعيونهن اللوزية وقوامهن الممشوق، سحرهن وجاذبيتهن الخاصة، وهن أكثر دفئا وحرارة من السويديات المبتسمات الضعيفات، ولكن هل سيجد الفرصة ليتعرف على ذلك بنفسه، وإذا كانت لديه الشجاعة الكافية للتحدث مع هؤلاء الفتيات الجميلات فماذا سيقول لهن؟ وهل سيعتبر كذابا إذا قدم نفسه على أنه عالم رياضيات وليس مبرمج كمبيوتر؟ وهل يمكن أن تعجب فتاة من أوروبا بعالم رياضيات، أم هل من الأفضل أن يقول لها إنه، على رغم مظهره الخارجي المنفر، شاعر؟

وهو أحيانا ما يحمل معه في جيبه كتاب شعر من تأليف «هولدرلاين»، أو «ريلكي» أو «فاليبو» في أحيان أخرى، وعندما يكون في القطار يضع هذا الكتاب أمامه ويقرأه في زهو وتفاخر – إنه امتحان، ولا ينتظر أن تهتم به وتقدر ما يقرأه إلا فتاة غير عادية، تكتشف فيه روحا غير عادية أيضا، ولكن لا توجد فتاة واحدة في القطار تعيره أدنى اهتمام. ويبدو أن من أول الأشياء التي تتعلمها الفتيات لدى وصولهن إلى إنجلترا ألا يظهرن أي اهتمام لإشارات صادرة من الرجال.

وقد تأثر برأي «ريلكي» القائل إن ما نطلق عليه كلمة الجمال هو مجرد لمحة أولى عن الخوف والرعب، وإن الناس يرتمون أمام الجميلات ليشكروهن لأنهن يأنفن من تحطيمهم. وهل ستقوم هؤلاء الفتيات الجميلات بتحطيمه أيضا لو تجرأ على الاقتراب منهن... تلك الفتيات القادمات من عوالم أخرى... الملائكة اللواتي سيعتبرنه أتفه من ذلك؟

وفي أثناء قراءته لإحدى المجلات الشعرية - ربما «أمبيت» أو «أجندة» - يقرأ إعلانا عن ورشة عمل تقيمها الجمعية الشعرية أسبوعيا لمصلحة الكتّاب الشبان الذين لم تنشر أعمالهم. ويذهب «جون» لحضور تلك الورشة في الزمان والمكان المحددين مرتديا بدلته السوداء، وعند الباب تنظر إليه المسؤولة نظرة شك وريبة وتسأله عن سنه، فيقول واحد وعشرون، وهذا كذب فهو في الثانية والعشرين. ويجلس «جون» على كرسي من الجلد وينظر الحاضرون إليه ويحيونه عن بعد. ويبدو أنهم يعرفون بعضهم البعض، وهو الوحيد الجديد عليهم، وكلهم أصغر منه سنا، بل هم مراهقون، ما عدا رجلا أعرج في منتصف العمر، يبدو أنه مسؤول كبير في الجمعية. ويتبادل هؤلاء الشعراء إلقاء أحدث قصائدهم، وعندما جاء دوره قرأ قصيدة تنتهي بهذه الكلمات: «... الهائجة المعبرة عن عدم قدرتي على التحكم».

والرجل الأعرج غير معجب باختيار «جون» لكلماته وألفاظه، فكلمة incontinence بالنسبة إلى أي شخص سبق أن عمل في المستشفيات تعني سلس البول، أو ما هو أسوأ من ذلك.

ويعود جون إلى الجمعية الشعرية في الأسبوع التالي، وبعد انتهاء الجلسة يتناول القهوة مع فتاة ألقت قصيدة عن وفاة صديق في حادث

سيارة، وهي قصيدة جيدة وهادئة وصادقة. وقد علم منها أنها طالبة في الكلية الملكية بلندن، وكانت ترتدي ملابس محتشمة عبارة عن تنورة سوداء وجورب طويل أسود، ويتفقان على اللقاء مرة أخرى، وبالفعل يلتقيان في ميدان ليستر بعد ظهر يوم سبت، وقد ترددا في الذهاب إلى السينما، ولكنهما، كباقي الشعراء، ملتزمان بالاستمتاع بالحياة بطولها وعرضها.

والشعب الفرنسي هو أكثر شعوب الأرض حضارة ومدنية، وجميع الكتاب الذين يحترمهم تشربوا الثقافة الفرنسية، ومعظمهم يعتبر فرنسا نبع الروح بالنسبة إليهم، وإيطاليا أيضا إلى حد ما، وإن كانت إيطاليا قد مرت بظروف صعبة، وعندما كان «جون» في الخامسة عشرة أرسل حوالة بريدية بمبلغ خمسة جنيهات وعشرة شلنات لمعهد «بيلمان» ثمن شراء كتاب في قواعد اللغة الفرنسية، ودفتر تمارين عليه حلها وإعادتها إلى المعهد لتصحيحها، وفي الصندوق الخشبي الذي أحضره معه من «كيب تاون» يحتفظ بخمسمائة بطاقة كتب على كل منها كلمة فرنسية رئيسية واحدة لكي يحفظها عن ظهر قلب، ولكن ذهنه يختزن بعض الجمل والعبارات الفرنسية مثل je viens (أي لتوي) وil me faux (أي يجب عليّ)، إلا أن جهوده ذهبت أدراج الرياح، إذ هو ليس شغوفا بتعلم الفرنسية، وعندما يستمع إلى أسطوانات اللغة الفرنسية ففي معظم الأحيان تختلط عليه الكلمات وتتشابك، ولكنه يفهم النصوص الفرنسية البسيطة، من دون أن يتردد جرسها داخل أذنيه، وباختصار، اللغة الفرنسية تطرده ولا يجد سبيلا للدخول إليها.

وكان المفروض من الناحية النظرية أن يكون تعلم اللغة الفرنسية

سهلا بالنسبة إليه، إذ هو يعرف اللغة اللاتينية، وأحيانا يقرأ بعض النصوص اللاتينية بصوت عال من قبيل الاستمتاع بها، ولكنها ليست لاتينية العصر الذهبي أو الفضي، ولكن اللاتينية المكتوب بها في الكتاب المقدس، المعتمد في الكنيسة الكاثوليكية، التي لا يراعى فيها الترتيب القديم للكلمات، وهو يقرأ كتبا إسبانية من دون صعوبة، إذ يقرأ مؤلفات «سيزار فاليو» في نصوص بلغة مزدوجة، كما يقرأ لـ «نيكولاس» «جويين» و«بالونيرودا». واللغة الإسبانية مليئة بكلمات ذات أصوات نابية لا يستطيع أن يستشف معناها، ولكن ذلك لا يهمه، إذ جميع الحروف منطوقة حتى لدى مضاعفة حرف (R).

إلا أن اللغة التي يميل إليها بالفعل هي الألمانية، وكثيرا ما يستمع إلى إذاعة «كولونيا»، وإذا كانت برامجها مملة يتحول إلى إذاعة برلين الشرقية، ويفهم ما يسمعه في معظم الحالات، وهو يقرأ الشعر الألماني ويفهمه بسهولة، ويعجب بالكلمات الألمانية لأن كل مقطع فيها يعطي وزنه الصحيح. ولا يزال صدى لغة «الأفريكانز» يتردد في أذنيه، ولذلك لا يجد صعوبة في فهم قواعد اللغة الألمانية، بل بالعكس يستمتع بطول الجمل الألمانية وبمجموعة الأفعال التي تأتي في نهاية الجملة، وتمر عليه أوقات وهو يقرأ الألمانية من دون أن يشعر بأنه يقرأ لغة أجنبية، وهو يكثر من قراءة مؤلفات «إنجبرج نجمان» كما يقرأ لـ «برتولت بريشت» و«هانز إنزنسبرجر»، وهناك ثرثرة وتكرار للكلمات في اللغة الألمانية يجذبانه إليها دون أن يفهم تماما سبب ذلك، ويتساءل ما إذا كان ذلك ليس سوى تخيل. ولا يجد جون أحدا يقرأ الشعر الألماني ليسأله عن ذلك، كما لا يعرف أحدا يعلم اللغة الفرنسية، ولكن لا شك أن هناك الآلاف في هذه المدينة الضخمة من

المتبحرين في الأدب الألماني، وآلاف غيرهم يقرأون أشعارا باللغات الروسية والمجرية واليونانية والإيطالية ويترجمونها، بل ويكتبون بها: شعراء يعيشون في المنفى شعورهم طويلة ويضعون نظارات ذات إطار عاجي، ونساء وجوههن ذات مسحة أجنبية حادة وشفاه غليظة جذابة، وفي المجالات التي يجدها في مكتبة ديلونز ما يدل دلالة كافية على وجود أولئك الشعراء، إذ عثر على ترجمات من صنع أيديهم. ولكن كيف يتهيأ له أن يلتقي بهم؟ وماذا يفعل هؤلاء الأشخاص المتميزون عندما لا يقرأون أو يكتبون أو يترجمون؟ هل من الممكن أن يكون جالسا بينهم دون أن يدري في سينما إيفري مان؟ أو يسير بينهم في «هامبستيد هيث»؟.

ودون تفكير يسير في «الهيث» خلف زوجين يشبه أحدهما الآخر. والرجل طويل وملتح، والمرأة شقراء الشعر ينحدر على ظهرها. وهو متأكد أنهما روسيان، إلا أنه عندما يقترب منهما ويختلس السمع إليهما يكتشف أنهما إنجليزيان يتحدثان عن أسعار الأثاث في محل «هيلز».

يتبقى بعد ذلك هولندا، ولديه معرفة قوية بالهولنديين، وهذه على الأقل تعتبر ميزة بالنسبة إليه. وهو يتساءل، هل توجد دائرة للشعراء الهولنديين مثل باقي الدوائر في لندن؟ وإذا كانت هذه الدائرة موجودة بالفعل، فهل معرفته للغة الهولندية تؤهله لدخول هذه الدائرة؟ ودائما ما كان «جون» ينظر إلى الشعر الهولندي على أنه ممل إلى حد ما، ولكن اسم «سيمون فنكلوج» منتشر كثيرا في المجلات الشعرية، وهو الوحيد الذي ظهر على الساحة العالمية. وجون يقرأ كل ما يكتبه هذا الشاعر في المتحف البريطاني، ولكنه لا يشعر بالميل نحوه، لأن أشعاره

فظة ولا تتسم بالسلاسة، وتفتقر إلى بعد مهم في الشعر وهو الغموض، وإذا كان هذا الشاعر هو كل ما يمكن أن تقدمه هولندا من الشعراء فإن «جون» على حق في شكوكه، أي أن الشعب الهولندي هو أكثر شعب ممل وغير جذاب وغير محب للشعر، ولذلك فهو ليس في حاجة إلى المزيد من التراث الهولندي، بل قد يكون من الأفضل ألا يعرف إلا لغة واحدة.

وبين الحين والآخر تتصل به «كارولين» في مكتبه ويتفقان على اللقاء، وبمجرد أن يتقابلا تظهر له عدم صبرها عليه، إذ تتساءل كيف يقطع هذه المسافة الطويلة للقدوم إلى لندن ثم يقضي أيامه لإجراء عمليات حسابية على آلة حاسبة، وتطلب منه الخروج إلى الهواء الطلق، فلندن مدينة هي بمنزلة معرض لأحدث الابتكارات ووسائل المتعة والتسلية والترويح عن النفس، وألا يكون منطويا على نفسه.

ويرد عليها «جون» قائلا: «بعضنا ليس مخلوقا للمتعة»، ولا تحاول كارولين أن تفهم ماذا يقصد بذلك وتعتبره إحدى نكاته الصغيرة.

ولم تذكر «كارولين» لجون بالمرة كيف تحصل على المال الذي يمكنها من تأجير شقة في حي راق مثل «كينزنجتون» وشراء ملابس جديدة باستمرار، وهو يعلم أن زوج والدتها في جنوب أفريقيا يعمل في تجارة السيارات، ولكن هل هذا العمل يدر عليه دخلا كبيرا يكفي لأن يجعل ابنة زوجته تعيش حياة المتعة في لندن، وماذا تعمل كارولين بالضبط في النادي الليلي؟ هل تقوم بوضع المعاطف في الغرفة المخصصة لذلك؟ هل تقوم بجمع البقشيش وحمل صواني المشروبات؟ أم أن عملها في النادي الليلي كلمة مهذبة تخفي وراءها شيئا آخر؟!

ومن بين الأشخاص الذين تعرفت عليهم في النادي الليلي الممثل المعروف لورانس أوليفييه، الذي أبدى اهتماما برغبتها في العمل كممثلة مسرحية، ووعدها بدور لها في مسرحية لم يحددها فيما بعد، كما دعاها إلى زيارته في مسكنه الريفي. ويفكر «جون» فيما قالته «كارولين» ويشك في أنها غير صادقة، ولكن هل «لورانس أوليفييه» هو الذي يكذب على «كارولين» أم هي التي تكذب عليه؟ ومن المؤكد أن «أوليفييه» بلغ سن الشيخوخة الآن وله أسنان صناعية. ويتساءل «جون» هل يمكن أن تحمي «كارولين» نفسها من أوليفييه، هذا بفرض أنه هو بالفعل الذي دعاها إلى منزله؟ ولماذا يحتاج رجال في سنه إلى معرفة فتيات صغيرات؟ وهل من المناسب أن يغار «جون» منه، أم أن الغيرة أصبحت في خبر كان هنا في لندن عام ١٩٦٢؟ وإذا كان هذا الشخص «أوليفييه» بالفعل فسوف يعاملها معاملة كل من يزوره في مسكنه الريفي، بما في ذلك إرسال سائق لاستقبالها في المحطة، ووجود رئيس الخدم لتقديم العشاء لهما. ولن تهتم كارولين بأن تذكر لأوليفييه لدى وجودها بمسكنه أن هناك منافسا له في معرفتها يعمل موظفا في شركة آلات حاسبة، ويعيش في غرفة متفرعة من شارع «آرتشواي» يكتب فيها أشعارا بين الحين والآخر.

ولا يفهم «جون» لماذا لا تريد كارولين أن تقطع علاقتها به، على رغم أنه موظف بسيط في نظرها، وتستمر العلاقة بينهما ولكن بصورة غير منتظمة، إلى أن يظن أنها اختفت تماما من حياته.

الفصل العاشر

كانت نيته لدى وصوله إلى لندن أن يجد وظيفة ويدخر مبلغا من المال، وعندما يتجمع لديه مبلغ كبير يترك الوظيفة، ويكرس وقته للكتابة إلى أن تنفد نقوده ويعود للبحث عن وظيفة مرة أخرى وهكذا، إلا أنه سرعان ما اكتشف أن هذه الخطة ساذجة، فراتبه في شركة IBM قبل الاستقطاعات ستون جنيها شهريا، يمكن أن يدخر منها عشرة جنيهات على أكثر تقدير، ويمكن بعد عمل سنة أن يستريح من العمل لمدة شهرين، ولكن معظم هذه المدة سيضيع في البحث عن وظيفة جديدة، وأما المنحة الدراسية التي يتلقاها من جنوب أفريقيا فلا تكاد تكفي لدفع مصروفات الجامعة.

وجون يعلم أنه ليس حرا في تغيير جهة العمل، إذ طبقا للوائح الجديدة المنظمة لإقامة الأجانب في إنجلترا يجب موافقة وزارة الداخلية على أي تغيير في جهة العمل، ولا يحق له الإقامة في إنجلترا إذا كان من دون عمل، ولذلك إذا استقال من IBM فعليه الحصول على وظيفة أخرى على الفور، وإلا عليه أن يغادر البلاد.

والفترة التي قضاها في خدمة IBM جعلته يعتاد على روتين العمل بها، ومع ذلك، لا يزال يعتبر أيام العمل مرهقة، ودائما ما تحثه الشركة هو وزملاءه في الاجتماعات والمذكرات على ألا ينسوا أنهم في طليعة العاملين في مجال معالجة البيانات، ولكنه يشعر بأنه مثل إحدى شخصيات «ديكنز» الذي يعمل كاتبا ويجلس على كرسي ينسخ أوراقا بالية والملل باد على وجهه.

والشيء الوحيد الذي يقطع هذا الروتين الممل يحدث في الحادية عشرة والنصف صباحا عندما تأتي عاملة بعربة الشاي، وتصب كوبا من الشاي الإنجليزي أمام كل موظف قائلة: «تفضل يا عزيزي»، وفي تمام الساعة الخامسة تحدث حركة شديدة أثناء انصراف السكرتيرات ومشغلي البطاقات المثقبة من العمل؛ لأنهم لا يودون عمل ساعات إضافية، وأما هو فينتظر إلى أن يحل الظلام فيترك مكتبه، ويتجول في الشركة ثم يخرج للراحة والاستجمام، وفي غرفة الأجهزة بالطابق الأرضي توجد خزائن ذاكرة ضخمة للجهاز رقم ٧٠٩٠. وهذه الغرفة خالية من الموظفين في أغلب الأحيان، ولذلك يمكنه تشغيل برامج على جهاز كمبيوتر رقم ١٤٠١، بل وتشغيل ألعاب أيضا دون أن يراه أحد، وفي مثل تلك الأوقات، يجد أن وظيفته ليست محتملة فحسب، بل ممتعة أيضا، وليس لديه مانع من أن يقضي الليلة بأكملها في المكتب يشغل بعض البرامج من ابتكاره، إلى أن يشعر بحاجته إلى النوم فيقوم بتنظيف أسنانه في الحمام، وبعد ذلك يفرد حقيبة نومه تحت مكتبه وينام، وهذا في نظره أفضل من اللحاق بآخر قطار والمشي متثاقلا عبر شارع «آرتشواي» حتى يصل إلى مسكنه، لكن شركة IBM ليست راضية تماما عن هذا السلوك.

ويقيم جون صداقة مع إحدى عاملات تثقيب البطاقات واسمها «رودا» ذات ساقين ممتلئتين نوعا ما، ولكن بـ ـرتها جذابة وناعمة، وهي تؤدي عملها بكل جد واجتهاد، وأحيانا يقف جون عند مدخل الغرفة، وينظر إليها وهي تعمل وتنحني على

لوحة المفاتيح التي تعمل عليها، وهي تشعر أنه يراقبها، ولكنها لا تعيره أي اهتمام.

وهو لا يتحدث مع رودا خارج نطاق العمل، ولغتها الإنجليزية بحروف العلة وهمزة الوصل التي تكثر منها تجعله يجد صعوبة في فهمها، وهي مواطنة إنجليزية تختلف في نشأتها عن نشأة زملائه المبرمجين المتخرجين من المدارس الثانوية، وهي منغلقة على نفسها خارج العمل.

وعندما وصل جون إلى إنجلترا كان قد هيأ نفسه للتعامل مع ما هو معروف عن البريطانيين من برود في عواطفهم، ولكن العاملات في IBM يخرجن عن هذه القاعدة، إذ يتمنن بدفء عواطفهن، وعلى رغم أن أولئك الفتيات ينافسن السويديات في الفتنة والسحر، فإن «جون» ميال إليهن نظرا لهدوئهن واعتدال مزاجهن، وحبهن للمرح والفكاهة، وهو يريد أن يتعرف على رودا أكثر من ذلك، ولكن كيف؟ وهي تنتمي إلى قبيلة أجنبية، فالحواجز التي تفصل بينه وبينها، ناهيك عن تقاليد الغزل في القبيلة، تصيبه بالإحباط، وتثبط عزيمته.

وتقاس كفاءة العمل في «نيوتن ستريت» بمدى استخدام العاملين فيها لجهاز كمبيوتر، موديل رقم ٧٠٩٠، ذلك أن هذا الجهاز هو جوهرة هذه الشركة، وسبب وجودها، وعندما يكون الجهاز مغلقا فهذا معناه عدم كفاءة - وهي جريمة - ولذلك فإن الهدف الأسمى للعاملين في المكتب هو تشغيل هذا الجهاز ليل نهار دون توقف، والعملاء الأكثر من غيرهم في استخدام الجهاز هم الأكثر قيمة ومكسبا للشركة، وهم خاضعون إلى سلطة كبار المبرمجين، وجون ليست له علاقة بهم.

إلا أنه حدث ذات يوم أن وجد أحد العملاء الجادين صعوبة في التعامل مع بطاقات البيانات، وكلف جون بمساعدته، واسم هذا العميل «بومفريت»، وهو رجل ضئيل الجسم، ويرتدي بدلة «مكرمشة»، ونظارة طبية، ويأتي إلى لندن كل خميس من مكان ما شمال إنجلترا، ويحضر معه عددا من صناديق البطاقات المثقبة، ويحجز الجهاز رقم ٧٠٩٠ لتشغيله لمدة ست ساعات، تبدأ من منتصف الليل، ومن الثرثرة والأقاويل المنتشرة في المكتب سمع أن البطاقات تحتوي على بيانات النفق الهوائي الخاص بقاذفات القنابل البريطانية الجديدة من طراز TSR - 2، الذي يجري تصميمه لمصلحة سلاح الطيران الملكي البريطاني، ومشكلة «بومفريت» وزملائه في الشمال هي أن النتائج التي أخرجها الكمبيوتر في الأسبوعين الأخيرين تبدو متضاربة وليست ذات معنى، وهذا معناه إما أن نتائج الاختبارات خاطئة، وإما أن هناك خطأ ما في تصميم الطائرة، والمهمة التي كلف بها جون كانت إعادة قراءة البطاقات على الجهاز الاحتياطي رقم ١٤٠١، وإجراء اختبارات لتحديد ما إذا كان هناك خطأ في تثقيب البطاقات، ويظل جون يعمل إلى ما بعد منتصف الليل، ويفحص كل بطاقة واحدة تلو الأخرى على جهاز قراءة البطاقات، وفي النهاية يتأكد أن ليس هناك ثمة خطأ في تثقيب البطاقات، ومعنى ذلك أن النتائج كانت بالفعل متناقضة، وتلك مشكلة حقيقية.

تلك مشكلة حقيقية: بالمصادفة البحتة، وبطريقة بسيطة جدا، انضم جون إلى مشروع TSR - 2، وأصبح جزءا من المجهود الدفاعي البريطاني، وساهم في تطوير خطط بريطانيا لقصف

موسكو بالقنابل، فهل هذا هو ما جاء من أجله إلى لندن: أن يشارك في الشر، الشر الذي لا ثواب له حتى في الخيال؟ وهل هناك رومانسية في سهر الليل بطوله لمساعدة «بومفريت»، مهندس الطيران، بنظرته الهادئة والعاجزة وحقيبته المكتظة بالبطاقات، لكي يلحق بآخر قطار متجه شمالا حتى لا يتأخر عن موعد الاجتماع في المختبر صباح الجمعة؟ ويذكر جون في خطاب لأمه أنه عمل في تشغيل بيانات النفق الهوائي الخاص بذلك المشروع، ولكن أمه ليست لديها أدنى فكرة عنه.

وتتوقف اختبارات النفق الهوائي، ويكف «بومفريت» عن الحضور إلى لندن ويتابع جون قراءة الصحف لمعرفة المزيد عن أخبار ذلك المشروع، ولكنه لا يجد شيئا، ويبدو أنه أصبح في طي النسيان.

والآن، وبعد فوات الأوان يتساءل جون في قرارة نفسه ما الذي كان سيحدث لو أنه تلاعب في بيانات المشروع المذكور عندما كانت البطاقات في حوزته، من دون أن يراه أحد؟ فهل كان مشروع قاذفات القنابل برمته مصيره البلبلة والاضطراب؟ أم سيكتشف المهندسون العاملون في الشمال عبثه وتلاعبه؟ وهو من جهة يود أن يؤدي ما عليه لإنقاذ روسيا من القصف الجوي، ومن جهة أخرى يشعر بالتزام أدبي نحو بريطانيا التي يعيش في ضيافتها، بينما هو يقوم بتخريب سلاحها الجوي، على أي حال، كيف سيعرف الروس أن هناك شخصا مغمورا يعمل في شركة IBM في لندن يتعاطف معهم، ويمنحهم فرصة بضعة أيام لالتقاط الأنفاس في الحرب الباردة.

وهو لا يعرف سر عداوة الإنجليز للروس، فبريطانيا وروسيا كانتا معا في جبهة واحدة في كل الحروب منذ عام ١٨٥٤، ولم يسبق للروس أن هددوا بغزو بريطانيا، فلماذا إذن يقف البريطانيون إلى جانب الأمريكيين الذين يتصرفون كالبلطجية في أوروبا، بل وفي كل أنحاء العالم؟ وهو لا يعتقد أن الشعب البريطاني يحب الشعب الأمريكي بالفعل، والصحف البريطانية تحمل الكثير من رسومات الكاريكاتير التي تسخر من السياح الأمريكان وهم يدخنون السيجار ويسيرون ببطونهم البارزة، ويرتدون قمصانا مزركشة زاهية الألوان من جزر هاواي، ويلوحون بالدولارات في أيديهم، ويرى جون أن بريطانيا ينبغي أن تحذو حذو فرنسا، وتنسحب من حلف «الناتو» تاركة الأمريكيين وأصدقاءهم الجدد في ألمانيا الغربية يبثون أحقادهم ضد روسيا.

وهناك تغطية إخبارية كبيرة في الصحف للحملة المناهضة للأسلحة النووية تظهر فيها صور لرجال نحيلي الجسم وفتيات بسيطات بشعرهن القذر يحملون لافتات ويرددون شعارات، ولكن ذلك لا يستميله لهذه الحملة. ومن جهة أخرى كان «خروشوف» قد انتهى للتو من توجيه ضربة معلم، وذلك ببنائه قواعد صواريخ في كوبا مضادة للصواريخ الأمريكية الموجهة نحو روسيا. وهدد الرئيس كنيدي بقصف روسيا ما لم تقم بإزالة هذه الصواريخ من كوبا. وهذا هو السبب الذي أدى إلى قيام هذه الحملة، وذلك خوفا من مشاركة القواعد الأمريكية في بريطانيا في توجيه ضربة نووية إلى روسيا، ويظل جون متمسكا بموقفه.

وتقوم طائرات التجسس الأمريكية بالتقاط صور لطائرات النقل الروسية، وهي تعبر المحيط الأطلسي في طريقها إلى كوبا، ويقول الأمريكان إن هذه الناقلات تحمل عددا أكبر من الصواريخ، وتظهر هذه الصواريخ في الصور على هيئة أشكال مبهمة مغطاة بمشمع ثقيل ومحاطة بلون أبيض، وهذه الأشكال في رأي جون قد لا تكون سوى قوارب نجاة، وهو يتعجب لأن الصحف لم تشك في صحة الرواية الأمريكية. والصيحات التي يرددها المؤيدون للحملة المذكورة تقول: «استيقظوا فنحن على شفا الإبادة النووية»، ويتساءل جون «هل هذا صحيح؟ وهل سيفنى الجميع بمن فيهم هو؟».

ويذهب جون إلى ميدان «الطرف الأغر» لمشاهدة حشد جماهيري هائل مؤيد لنزع الأسلحة النووية، وحرص على الوقوف بعيدا ليثبت أنه مجرد متفرج، وكان هذا أول حشد جماهيري شاهده، ولكن التلويح بالأيدي وترديد الشعارات والتعبير عن الانفعالات بصورة حادة تجعله ينفر من مثل هذه التجمعات بصورة عامة، ذلك أن الحب والفن هما الوحيدان في رأيه اللذان يستحقان أن يهبهما الإنسان نفسه دون تحفظ أو تردد، وكان هذا التجمع هو نهاية مسيرة امتدت لمسافة خمسين ميلا قام بها مؤيدو الحملة المناهضة للأسلحة النووية، بدأت قبل ذلك بأسبوع من «الدرماستون»، وهي محطة الأسلحة النووية البريطانية، وظلت صحيفة «الجارديان» لمدة أسبوع تنشر صور المشاركين في المسيرة وهم يتصببون عرقا، والآن وبعد أن وصلت المسيرة إلى ميدان الطرف الأغر، أصبحت حالتهم النفسية أكثر توترا، وأخذ جون يستمع إلى الخطباء وتأكد أنهم، أو بعضهم على الأقل،

يؤمنون بما يرددون، إذ يعتقدون أن لندن في سبيلها لأن تُقصف بالقنابل، وأنهم جميعا في طريقهم إلى الموت.

ويتساءل جون هل هم على حق، وإذا كانوا كذلك فمن الظلم بالنسبة إلى الروس وإلى سكان لندن وإليه هو شخصيا قبل الجميع أن يحترقوا ويصبحوا رمادا نتيجة للروح العدوانية لدى الأمريكان.

وتخطر على باله صورة الشاب نيكولاي روستوف، في ميدان القتال في «أوسترليتيز»، وهو ينظر كأرنب مخدر إلى الجنود الفرنسيين وهم يهاجمونه، بالسوانكي والسنج الحادة ويتساءل: لماذا يريدون أن يقتلوني، رغم أن جميعهم يعطفون عليّ؟!

ويا لمفارقات القدر! من المقلاة إلى النار؟! لقد هرب من «الأفريكانز»، الذين كانوا يريدون تجنيده في الجيش بالقوة، ومن السود الذين كانوا يريدون أن يرموه في البحر، والآن يجد نفسه فوق جزيرة سرعان ما ستتحول إلى رماد: ما نوع هذا العالم الذي يعيش فيه؟ وأين يجد مكانا يتحرر فيه من الغليان السياسي؟ ويتراءى له أن السويد بعيدة عن مثل هذه النزاعات، ويتساءل هل بإمكانه أن يتخلص من كل شيء حوله، ويركب أول سفينة متجهة إلى استكهولم؟ وهل من الضروري أن يعرف اللغة السويدية حتى يسمح له بالدخول؟ وهل السويد في حاجة إلى مبرمجي كمبيوتر؟ وهل في السويد أجهزة كمبيوتر أصلا؟

وتتفرق المسيرة ويعود إلى منزله، وكان المفروض أن يقرأ كتاب «الوعاء الذهبي»، أو يكتب بعض القصائد، ولكن ما فائدة ذلك؟ بل ما فائدة أي شيء في الحياة؟

وبعد بضعة أيام، تنتهي الأزمة، ويتراجع خروشوف خوفا من تهديدات كنيدي، وتصدر الأوامر للناقلات بالعودة إلى روسيا مع تفكيك الصواريخ السابق وضعها في كوبا، ويحاول الروس البحث عن كلمات يفسرون بها موقفهم، إلا أنه من الواضح لي أنهم تعرضوا للإذلال، والكوبيون وحدهم هم الذين خرجوا من هذه الواقعة التاريخية، وقد تعزز مركزهم، ويقسمون دون خوف أو وجل أن الصواريخ - الصواريخ وحدها - هي التي سيدافعون بها عن ثورتهم حتى آخر قطرة من دمائهم، وهو معجب بموقف الكوبيين وبفيدل كاسترو، فهو على الأقل ليس جبانا.

وفي أحد الأيام يزور جون متحف «تيت»، ويندمج في حديث مع فتاة يعتقد أنها سائحة، وهي شقراء وترتدي نظارة، وتبدو واثقة من نفسها، أي من ذلك النوع من الفتيات الذي لا يميل إليه، وإن كان يعجبه، وعلم من الفتاة أن اسمها «أستريد»، وأنها من النمسا، وبالتحديد من «كلاجنفورت» وليس فيينا، واتضح له أن أستريد ليست سائحة، بل تعمل في أحد المنازل مقابل تعلمها اللغة الإنجليزية، وفي اليوم التالي يذهبان إلى مشاهدة أحد الأفلام، حيث يكتشف على الفور أن مزاجيهما مختلفان، ولكن عندما تدعوه إلى زيارة المنزل الذي تعمل به لا يمانع، وهي تعيش في غرفة صغيرة ذات ستائر كتان ذات خطوط في شكل مربعات وغطاء سرير من النوع نفسه، وتضع دمية على الوسادة، ويتناول جون الشاي معها ومع صاحبة المنزل، وهي امرأة إنجليزية تنظر إليه دون اهتمام ولسان حالها يقول: هذا بيت أوروبي ولا نريد فيه شخصا غير متحضر من أبناء المستعمرات، أو فردا من البوير،

وإلا ركلناه بأقدامنا. وهذا ليس الوقت المناسب لأن يوجد شخص من جنوب أفريقيا في إنجلترا.

وقد أعلنت جنوب أفريقيا أنها أصبحت جمهورية انطلاقا من حقها في ذلك، وبعدها مباشرة طُردت من الكومنولث البريطاني، وقد أراد البريطانيون بذلك أن يبعثوا برسالة لا تدع مجالا للشك، إذ يكفيهم ما لاقوه من البوير ومن حكام جنوب أفريقيا، تلك المستعمرة التي سببت لهم متاعب أكثر من قيمتها، سيكونون سعداء لو اختفت جنوب أفريقيا - بالتدريج - من الأفق، وهم قطعا لا يريدون أن يشاهدوا المساكين البيض من جنوب أفريقيا يطرقون أبوابهم كأيتام يبحثون عن ذويهم، وهو واثق من أن أستريد ستعرف من هذه السيدة الإنجليزية أنه ليس موضع ترحيب في بيتها.

ونظرا إلى ما يعانيه من وحدة، وربما من باب العطف والشفقة على هذه الفتاة الأجنبية المسكينة بلغتها الإنجليزية الركيكة، فإنه يدعوها إلى الخروج معه مرة أخرى، وتستمر اللقاءات بينهما في الأسابيع التالية، إلى أن ينشغل كل منهما بشؤونه وتتوقف الاتصالات بينهما لبعض الوقت.

الفصل الحادي عشر

منذ بضع سنوات، عندما كان لا يزال طفلا صغيرا في أسرة تحاول قدر طاقتها أن تكون أسرة عادية، كان والداه يذهبان إلى الرقص كل ليلة سبت، وكان ينظر إليهما وهما يتأهبان لذلك، وإذا سهر حتى عودتهما من الرقص، فإنه يسأل أمه عما يحدث بالضبط في صالة الرقص بالفندق «الماسوني» في مدينة «ورسستر»، لأنه يريد أن يعرف مانوع الرقصات التي تؤديها هي وأبوه، وما إذا كانا يتظاهران بالنظر أحدهما إلى عيني الآخر، وما إذا كانا يرقصان معا فقط أم - كما هي الحال في الأفلام الأمريكية - يسمح لشخص غريب بأن يضع يده على كتف فتاة ويأخذها من الشخص الذي يراقصها، وهذا الشخص يبحث بدوره عن فتاة أخرى يراقصها، أو يقف في أحد أركان الصالة يدخن سيجارة والوجوم بادٍ على وجهه.

ويتعجب «جون» لماذا يتحمل المتزوجون مشقة ارتداء الملابس والذهاب إلى أحد الفنادق للرقص، في حين أن بإمكانهما عمل ذلك بغرفة المعيشة في بيتهما بمصاحبة الموسيقى في المذياع. ولكن يبدو بالنسبة إلى أمه أن الرقص في ليلة السبت بالفندق «الماسوني» مهم، لأنه يمنحها الحرية، كما لو كانت تركب حصانا أو دراجة. وهي كانت بالفعل ترقص وتركب الخيل قبل أن تتزوج، أو على حد قولها قبل أن تصبح سجينة في هذا البيت. إلا أن عنادها لم يؤد إلى نتيجة، فالشخص الذي كان يعمل في مكتب

والده، والذي كان يوصلهما إلى الفندق، غيّر مكان سكنه أو توقف عن توصيلهما. وكان الفستان الأزرق اللامع والبروش الفضي والقفاز الأبيض والقبعة الصغيرة المضحكة التي كانت تضعها على جانب رأسها مصيرها جميعا إلى الخزائن والأدراج، وهكذا انتهى كل شيء.

ولكن بالنسبة إليه كان مسرورا لتوقف سهرات السبت الراقصة، من دون أن يصرح بذلك، إذ لم يكن راضيا عن خروج أمه أو شرود ذهنها الذي يسيطر عليها في اليوم التالي للرقص. ولم يكن يرى للرقص أي معنى، وكان يتجنب مشاهدة الأفلام التي بها مشاهد راقصة، لأنه غير مقتنع بمناظر الحماقة والبلاهة التي تكسو وجوه الراقصين. ولكن تصر أمه على أن الرقص تمرين جيد يعلم الإنسان الإيقاع السليم والاتزان، ولكنه غير مقتنع بذلك إذا أراد الناس ممارسة نوع من الرياضة يمكنهم ممارسة ألعاب الجمباز أو حمل الأثقال الخفيفة أو الجري.

ولم يغير «جون» رأيه عن الرقص في السنوات التالية لانتقاله من مدينة «ورسستر». ولكن عندما التحق بالجامعة وجد أنه من المحرج أن يذهب إلى الحفلات دون أن يعرف الرقص، لذلك التحق بمدرسة للرقص ودفع مصاريفها من مصروفه الشخصي، حيث تعلم عدة رقصات مختلفة مثل رقصة «فوكس تروت» السريعة «والفالس» و«التويست» و«التشاتشا». ولكن ذلك كله ضاع سدى، إذ بعد بضعة شهور كان قد نسي كل شيء، إذ كان في قرارة نفسه يريد النسيان، وهو يعرف لماذا حدث ذلك، فهو لا يندمج تماما في الرقص حتى في أثناء الدروس، وكانت قدماه

هما اللتان تتحركان ولكنه جامد في داخله، دون استجابة، ولذلك لا يزال في قرارة نفسه لا يجد سببا لذهاب الناس إلى الرقص.

وللرقص معنى إذا فسّر كشيء آخر يفضل الناس عدم البوح به. وهذا الشيء الآخر هو الشيء الحقيقي، إذ الرقص هو مجرد غطاء، فدعوة فتاة للرقص معناها دعوتها لإقامة علاقة عاطفية معها. وهذا في رأيه شيء واضح، ولذلك يتعجب لماذا يهتم الناس بالرقص في المقام الأول، ولماذا يرتدون زيا خاصا؟ ولماذا يقومون بتلك الحركات التقليدية؟ لماذا كل هذا الدجل؟

والموسيقى الراقصة القديمة بإيقاعاتها الفجة التي تقوم بالفندق الماسوني دائما ما تشعره بالملل، وأما الموسيقى الأمريكية التي تفتقر إلى الذوق السليم، والتي يرقص الشباب من جيله على نغماتها، فهو يكرهها كراهية لا حدود لها. وإذا عدنا إلى جنوب أفريقيا نجد أن جميع الأغاني التي تقدم في الإذاعة هي من أمريكا. والصحف تحمل أخبار تقاليع نجمات السينما الأمريكية، التي يقلدهن الناس من دون تفكير، مثل رقصة «الهولاهوب»، ما السبب في ذلك؟ ولماذا نتبع أمريكا في كل شيء؟! وبعد أن تخلصت هولندا - والآن بريطانيا - من جنوب أفريقيا، فهل قرر أبناء جنوب أفريقيا أن يصبحوا أشباه الأمريكان، على رغم أن معظمهم لم تقع أعينهم على أي أمريكي حقيقي في حياتهم؟!.

وعند قدوم جون إلى بريطانيا كان يتوقع أن يتخلص من الأمريكان، ومن الموسيقى والهوس بالتقاليع الأمريكية، ولكن ما أزعجه أنه وجد البريطانيين أكثر حرصا على تقليد الأمريكان تقليدا أعمى. والصحف الشعبية تنشر صورا لفتيات يصرخن

مع هز رؤوسهن بشدة في الحفلات الموسيقية، والرجال بشعرهم المتدلي على أكتافهم يصرخون ويتأوهون بلكنة أمريكية زائفة، ويحطمون الجيتار الذي يعزفون عليه. وهذه المناظر كلها لا تعجب «جون».

والشيء الوحيد المحترم والراقي في بريطانيا هو «البرنامج الثالث» بالإذاعة، وأول ما يحرص عليه بعد عناء عمل يوم في IBM هو العودة إلى منزله والاستماع في هدوء إلى البرنامج الثالث، حيث يستمتع بموسيقى لم يسمعها من قبل، أو أحاديث رصينة وجادة. وهو مواظب على سماع هذا البرنامج كل ليلة دونما انقطاع. ويذاع البرنامج الثالث على الموجة الطويلة فقط، ولو كان يقدم على الموجة القصيرة لكان قد التقطه واستمع إليه وهو في كيب تاون، وفي هذه الحالة ما لزوم الحضور إلى لندن؟

ويقدم البرنامج الثالث سلسلة أحاديث بعنوان «الشعر والشعراء» عن شاعر روسي اسمه «جوزيف برودسكي»، اتهم بأنه عالة على المجتمع وحكم عليه بالسجن خمس سنوات مع الأشغال الشاقة، وأودع معسكر اعتقال في شبه جزيرة «أرتشانجيل» في منطقة متجمدة في شمال البلاد، ولا يزال يقضي مدة السجن. ويتأمل جون في هذا الوضع، وهو جالس في غرفته الدافئة في لندن يرتشف القهوة ويأكل حلوى مكونة من الزبيب والمكسرات ويفكر في برودسكي، الشاعر الشاب الذي في مثل سنه والمحكوم عليه بتكسيرالأخشاب طوال اليوم، ثم يضمد أصابع يديه المصابة بقضمة الصقيع ويترقيع أحذيته البالية، وكل طعامه رؤوس السمك وشوربة الكرنب. ويقول «برودسكي» في إحدى قصائده:

«مظلم مثل ما بداخل الإبرة». وهذا المقطع من الشعر يظل عالقا في ذهن جون لا يفارقه أبدا، ولو ركز ذهنه ليلة بعد أخرى في كتابة الشعر، ولو انتبه مجرد انتباه إلى الوحي والإلهام وهما يهبطان عليه لتمكن من كتابة بيت من الشعر يضاهي ما كتبه «برودسكي»؛ إذ هو يعلم أن خياله هو من خيال برودسكي نفسه، ولكن أنّى يتأتى له أن تصل كلمته إلى برودسكي في سجنه؟

وقد تعرف جون أكثر فأكثر على برودسكي من خلال القصائد المذاعة في البرنامج الثالث ولا شيء سواه، والشعر بمقدوره أن يؤدي وظيفة واحدة، ألا وهي التعبير عن الصدق والحقيقة، ولكنه وهو في لندن لا يعرف عن «برودسكي» أي شيء، ويفكر في كيفية إبلاغ هذا الشاعر المحاط بالثلوج بأنه معه قلبا وقالبا، ولا يفارقه ليل نهار.

وجوزيف برودسكي، وإنجبورج باخمان، وزبيجنيو هربرت... كل منهم يطفو فوق ألواح خشبية قذفت في بحار أوروبا المظلمة، ويتحدثون عبر الأثير، وتصل كلماتهم عبر موجات اللاسلكي إلى غرفته، كلمات شعراء عصره، يتحدثون عن الشعر وعما يمكن أن يكون، وبالتالي عما يمكن أن يكون هو. ومما يسعده أنه يشاركهم الحياة على كوكب واحد. ولو قدر له أن يبعث برسالة إليهم لقال: «وصلتني الرسالة في لندن، يرجى الاستمرار في البث».

وعندما كان في جنوب أفريقيا سمع قطعتين من كونشرتو الكمان بعنوان «الليلة الصافية»، من تأليف «شونبرج» و«برج»، والآن لأول مرة يسمع موسيقى «أنتون فون فيبرن»، وكان جون قد قرأ عن فيبرن كلاما غير مشجع وأن ما يؤلفه ليس موسيقى بل

مجرد أصوات عشوائية. ويستمع جون إلى الموسيقى لحنا بعد الآخر وهو منحن بجسمه نحو المذياع، وهي ألحان باردة كبلورات ثلجية متشابكة بعضها مع بعض، كنجوم في السماء، وبعد دقيقة أو دقيقتين من الإنصات إلى الموسيقى ينتهي كل شيء. وقد لقي «فيبرن» مصرعه على يد جندي أمريكي عام ١٩٤٥، وفسر الحادث على أنه قتل خطأ حدث في زمن الحرب. وهكذا راح إلى غير رجعة ذلك العقل الذي ابتكر كل هذه الأصوات، وفترات الصمت، وفترات الصوت - الصمت.

ويذهب جون ذات يوم لمشاهدة معرض لوحات للفنانين التعبيريين التجريديين بمتحف «تيت»، ويقف لمدة ربع ساعة يتأمل احدى لوحات «جاكسون بولوك»، محاولا أن يبدو إنسانا ناضجا خوفا من أن يقول عنه أحد سكان لندن إنه ريفي جاهل، ولكنه لم يفهم شيئا من اللوحة أو مغزاها. وفي الغرفة المجاورة في المتحف وجد لوحة ضخمة مثبتة في أعلى الحائط لا تزيد على كونها بقعة سوداء طويلة على أرضية بيضاء والبطاقة الموضوعة أسفلها مكتوب عليها «في رثاء الجمهورية الإسبانية - ١٩٢٤»، من رسم «روبرت ماذرويل». ويقف جون مشدوها أمام هذه اللوحة بما يحمله الشكل الأسود من تهديد وغموض، إذ يخرج منه صوت طرق على قرص نحاسي يهز جون من أعماقه هزا عنيفا، ويشعره بالرعب. ويتعجب جون من أين تستمد هذه اللوحة عديمة الشكل قوتها. وهي لا تشبه إسبانيا ولا أي شيء آخر بالمرة، ومع ذلك تملأ نفسه بالتشاؤم. وهي ليست لوحة جميلة، ولكنها تعكس الجمال بصورة مهيبة، ومن أين لماذرويل

هذه القوة التي ليست لـ بولوك أو فان جوخ أو رمبرانت؟ وهل هي القوة نفسها التي تجعل قلبه يميل إلى امرأة معينة دون غيرها؟ وهل هذه اللوحة تشبه شكلا كامنا في روحه؟ وماذا عن المرأة التي ستكون من نصيبه؟ وهل لا يزال طيفها يحوم في داخله المظلم؟ وكم عليه أن ينتظر قبل أن تكشف عن نفسها؟ وعندما تفعل ذلك هل سيكون مستعدا؟ وهو لا يعرف جوابا لتلك التساؤلات، ولكن إذا أمكنه لقاؤها - تلك المرأة الموعودة - كندّ لها فسيكون حبهما بلا شك لا مثيل له ونشوة على شفا الموت، وعندما يعود إلى الحياة بعد ذلك سيكون إنسانا جديدا، وميض الفناء كتلامس قطبين متنافرين أو زواج توأمين، ثم الولادة البطيئة من جديد. ويجب أن يكون مستعدا لذلك، وهذا هو كل المطلوب منه.

وقد أقامت سينما «إفريمان» أسبوعا لأفلام (المخرج) «ساتياجيت راي»، ويحرص جون على مشاهدة ثلاثية «أبو» في ثلاثة أيام متتالية اندمج فيها بشدة، وجد تجسيدا لوالديه في شخصية والدة «أبو»، وشخصية والده المتسلط والمستهتر مع إحساسه بالذنب ووخز الضمير أثناء مشاهدته لتلك الأفلام، إلا أن الموسيقى المصاحبة للأفلام هي أكثر شيء يؤثر فيه، وخاصة التأثيرات والتفاعلات المركبة التي تحدث بين الطبول والآلات الوترية، وكذلك الألحان الطويلة المعزوفة على الناي، التي نظرا إلى عدم إلمامه بنظرية الموسيقى لا يعرف ما اذا كان مداها أو نوعها هو الذي يأخذ بالألباب ويجعل المشاهد يعيش في حالة من الشجن تستمر طويلا حتى بعد انتهاء الفيلم أم لا.

وقبل ذلك كان جون يجد في الموسيقى الغربية، وفي مقدمتها ألحان «باخ»، كل ما يريده، ولكنه الآن يسمع شيئا لا يجده في «باخ»، وإن كانت هناك ملامح منه، ألا وهو سعادة العقل المفكر وهو يستسلم لرقص الأصابع ويتردد جون على محلات الأسطوانات بصفة مستمرة ويجد في أحدها أسطوانة من النوع الكبير لعازف على آلة «الستيار» الهندية اسمه الأستاذ «فيلايات خان» مع شقيقه الأصغر، كما يتضح ذلك من صورته على الأسطوانة، الذي يعزف على آلة «الفينا» الوترية، ومعهما عازف على الطبلة لم يذكر اسمه - ولا يمتلك جون جهاز جراموفون، ولكن بإمكانه أن يستمع داخل المحل إلى الدقائق العشر الأولى من الأسطوانة، ويجد فيها كل ما يحبه: استعراض تتابع النغمات، ودغدغة المشاعر، والإحساس القوي بالنشوة. ولا يكاد جون يصدق أنه سعيد الحظ، إذ أمامه قارة جديدة، وهذا كله مقابل تسعة شلنات فقط لا غير. ويأخذ جون الأسطوانة معه إلى البيت ويضعها في غلافها المصنوع من الورق المقوى إلى أن يأتي اليوم الذي يتمكن فيه من الاستماع إليها مرة أخرى.

وفي الغرفة أسفل غرفته يعيش زوجان هنديان مع طفلهما الرضيع، الذي يبكي أحيانا بصوت ضعيف، ويتبادل جون التحية مع الرجل بهز الرأس عندما يتقابلان على الدرج، وأما المرأة فنادرا ما تخرج من البيت. وذات مساء سمع جون طرقا على الباب ووجد جاره الهندي، الذي دعاه لتناول وجبة معه بشقته في مساء اليوم التالي وقبل الدعوة ولكن بتردد، إذ هو ليس معتادا على كثرة التوابل في الطعام الهندي، ويخشى أن يأكل وهو يتفتف

فيجعل نفسه أضحوكة. وعندما يذهب «جون في الموعد المحدد يرحب به المضيف ويطلب منه الجلوس على راحته. وهذه الأسرة هي من جنوب الهند، وهما نباتيان، ويقول الزوج إن التوابل الحارة ليست جزءا أساسيا من الطعام الهندي، وإنها تضاف فقط لإخفاء طعم اللحم المنتن، وإن طعام جنوب الهند حلو المذاق، وثبت ذلك من الطعام الذي قدم لجون والذي كان عبارة عن شورية جوز الهند بحب الهال والقرنفل وبيض أومليت.

ويعمل الزوج مهندسا، وقدم مع زوجته إلى إنجلترا منذ عدة سنوات، ويقول الزوج إنهما سعيدان هنا في هذه الشقة، التي هي أفضل مكان عاشا فيه منذ قدومهما إلى إنجلترا، فالغرفة فسيحة والبيت هادئ ومنظم. وهما بالطبع لا يحبان الطقس في إنجلترا، ولكن الزوج يقول، وهو يهز كتفيه: يجب على الإنسان أن يتقبل الأشياء بحلوها ومرها، بما لها وما عليها ولم تشارك الزوجة في الحديث إلا لماما، إذ بعد تقديم الطعام ذهبت إلى أحد أركان الغرفة، حيث تضع رضيعها في سريره، ويقول الزوج تفسيرا لذلك إنها لا تجيد الإنجليزية.

وهذا الجار المهندس معجب بالعلوم والتكنولوجيا الغربية، ويقول إن الهند متخلفة. وجون عادة ما يشعر بالملل من كثرة الثناء على الأجهزة والآلات الحديثة، إلا أنه لا يعترض على كلام مضيفه، فهو أول شخص في إنجلترا يدعوه إلى منزله، وفضلا عن ذلك فهذه الأسرة هي من الملونين وتعرف أنه من جنوب أفريقيا، وعلى رغم ذلك قدمت له يد الصداقة، وهو يشعر بالامتنان لها. والسؤال الذي يطرح نفسه هو كيف يعبر عن

عرفانه بالجميل لها، وهل من المناسب أن يدعو هذه الأسرة إلى غرفته بالطابق العلوي ويقدم لهما شورية معلبة ثم مكرونة بصلصة الجبن، بدلا من النقانق، أم هل هناك طريقة أخرى لشكرها على كرم الضيافة؟ ويمر أسبوع يتلوه أسبوع آخر وهو يزداد حرجا. وفي الصباح كان ينتظر خروج المهندس إلى عمله ثم يخرج منعا للحرج. ويفكر جون في ضرورة القيام بمبادرة أو تصرف بسيط تعبيرا عن رد الجميل، ولكنه لا يعرف ماذا يفعل، وتمر الأيام دون أن يتخلص من هذه الحيرة. ويتساءل بينه وبين نفسه هل هناك عيب في شخصيته، ولماذا يعقد الأمور البسيطة؟ فإذا كانت تلك هي طبيعته فما جدوى ذلك، وكيف يغيرها؟ ولكن هل تلك هي طبيعته فعلا؟ إنه يشك في ذلك، ويشعر بأنه مرض معنوي وحقارة ودناءة وضعف الروح، ولا يختلف ذلك في جوهره عن بروده مع النساء. وكيف بالإنسان يبدع فنا في حالة مرضية كتلك الحالة؟ وإذا كان الجواب نعم، فماذا ستكون علاقة ذلك بالفن؟

وفي أحد أكشاك بيع الصحف بمحطة مترو الأنفاق «بهامبستد» يجد إعلانا جاء فيه ما يلي: «مطلوب شخص رابع ليعيش في شقة مشتركة بمنطقة (سويس كوتيج) غرفة مستقلة، مطبخ مشترك». وهو لا يحب أن يعيش في شقة مشتركة ويفضل العيش بمفرده، ولكن العيب في أن يعيش بمفرده أنه لن يتخلص من عزلته أبدا، ولذلك يتصل بالشخص المعلن ويتفق معه على موعد. وعندما يذهب في الموعد المحدد يقوم شخص بمعاينة الشقة معه، وهو أكبر منه ببضع سنوات وملتح ويرتدي بدلة زرقاء

تشبه تلك التي كان يرتديها (الزعيم الهندي) نهرو، ولها أزرار ذهبية في الوسط. واسم هذا الشخص «ميلكوس» وهو من المجر، والشقة نفسها نظيفة وجيدة التهوية، والغرفة المعروضة عليه أوسع أو أحدث من التي يسكنها حاليا. ويوافق جون دون تردد ويقول لميلكوس: هل أدفع عربونا الآن؟ ويرد ميلكوس قائلا إن المسألة ليست بهذه البساطة، ويطلب منه ترك اسمه ورقم هاتفه لوضعهما على القائمة.

وينتظر جون ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع يتصل هاتفيا وترد عليه فتاة قائلة إن ميلكوس غير موجود، ويسألها عن الغرفة فتقول إنها استؤجرت منذ يومين. وكانت الفتاة تتحدث بلكنة أجنبية وصوت مبحوح قليلا، وهو لا يشك في أنها جميلة وذكية ولها خبرة في الحياة، ولا يتساءل إن كانت مجرية. ويقول لنفسه لو كانت هي التي استأجرت الغرفة لكانت الآن تشاركه الشقة، من هي؟ وما اسمها وهل هي حبيبته الموعودة التي كتبها القدر له، أم أن قدره الآن ضاع منه؟ من هو ذلك السعيد الذي حظي بهذه الغرفة وبالمستقبل الذي كان من حقه هو؟ وعندما قام جون بمعاينة الشقة تولد لديه انطباع بأن ميلكوس غير متحمس لتأجيرها له، وبأنه (أي ميلكوس) كان يبحث عن شخص يزيد من دخل الشقة وليس فقط ريع الإيجار، شخص يجلب المرح والأناقة والرومانسية أيضا. ولكن بنظرة واحدة وجد أن جون يفتقر إلى كل ذلك، ولذلك رفضه.

وكان من المفروض أن يأخذ جون زمام المبادرة وأن يقول لنفسه: أنا لست كما يبدو علي، قد يكون مظهري يدل على أني موظف

كتابي، إلا أنني في حقيقة الأمر شاعر، أو مشروع شاعر، وفضلا عن ذلك سأدفع حصتي في الإيجار بانتظام ووفقا للأصول المرعية، وهذا ما لا يفعله معظم الشعراء»، ولكنه لم يعبر عن ذلك، ولم يدافع عن نفسه أو عن مهنته ولو بذلّة، والآن ضاع كل شيء.

ويتعجب جون كيف أن شخصا مجريا يتحكم في شقة في منطقة أرستقراطية مثل سويس كوتيج، ويلبس على أحدث طراز، ويستيقظ براحته وبجواره من دون شك الفتاة الجميلة ذات الصوت المبحوح، بينما هو يظل يكدح طوال اليوم في شركة IBM ويعيش في غرفة موحشة متفرعة من طريق آرتش واي؟ ويتساءل كيف وقعت مفاتيح المنع في يد ميلكوس؟ ومن أين يجد هؤلاء الناس ما يكفيهم من مال ليعيشوا حياة ملؤها الراحة؟

وجون يكره أولئك الذي يخالفون القانون، لأن مخالفة القانون لا تجعل للحياة معنى، كما فعل إيفان كرامازوف عندما سلم بطاقته وانسحب. إلا أن لندن مليئة بالخارجين على القانون، ويبدو له أنه الشخص الغبي الوحيد الذي يحترم القانون هو وغيره من الموظفين الذين يرتدون البدل السوداء ويضعون على أعينهم نظارات، أولئك المعذبون الذين يلتقي بهم دائما في القطار ماذا يفعل إذن؟ هل يفعل كما فعل إيفان أو ميلكوس؟ وفي كلتا الحالين هو الخاسر، لأنه يفتقر إلى موهبة الكذب والغش والخداع ومخالفة القانون، كما أنه ليس ميالا للمتع والملابس الفاخرة، وموهبته الوحيدة هي أنه يجد لذة في البؤس والتعاسة. وإذا كانت هذه المدينة لا تكافئ التعساء، فما جدوى بقائه فيها؟

الفصل الثاني عشر

في كل أسبوع يصله خطاب من أمه مرسل بالبريد الجوي في ظرف أزرق فاتح، والعنوان مكتوب بخط جميل وبأحرف كبيرة، وهو يشعر بالسخط والضيق حين تؤكد له أمه في خطاباتها أن حبها له لن يتغير، ألا تفهم أمه أنه عندما رحل من كيب تاون قطع كل علاقة له بالماضي؟ وكيف يجعلها تتقبل حقيقة أن عملية التحول التي جرت في داخله، وجعلت منه شخصا آخر، والتي بدأت عندما كان في الخامسة عشرة، ستستمر من دون هوادة إلى أن ينمحي كل ما في ذاكرته عن أسرته ووطنه؟ متى ستفهم أنه ابتعد عنها الآن إلى درجة أنه أصبح غريبا عنها؟ وتحكي له أمه في خطاباتها أخبار الأسرة وأحدث مهامها الوظيفية (انتقالها من مدرسة إلى أخرى للعمل مكان المدرسين الذين هم في إجازات مرضية)، وتختم خطاباتها متمنية له أن يكون في أحسن صحة، وأن يلبس ملابس ثقيلة، راجية ألا يكون قد أصيب بالإنفلونزا التي سمعت أنها اكتسحت أوروبا، ولم تذكر له أي شيء عن الأحوال في جنوب أفريقيا لأنه أوضح لها أنه لم يعد يهتم بها.

ويذكر جون في أحد خطاباته لأمه أنه نسي قفازه في القطار خطأ، وعلى الفور، ترسل له طردا بالبريد الجوي يحتوي على قفاز مصنوع من جلد الغنم، والطوابع التي على الطرد قيمتها أكبر من قيمة القفاز نفسه.

وأمه تكتب خطاباتها مساء الأحد، وتضعها في صندوق البريد ليجمعها ساعي البريد صباح الإثنين، ويمكنه بسهولة أن يتخيل منظر الشقة التي يعيش فيها أبوه وأمه وأخوه، والتي انتقلوا إليها بعد أن اضطروا إلى بيع البيت الذي كانوا يمتلكونه في «رودنبوش»، الآن انتهوا من تناول العشاء، وتنظف أمه المائدة، وتلبس نظارتها، وتقرب الأباجورة منها، ويسألها أبوه: «ماذا ستفعلين الآن؟»، إذ هو يكره أمسيات الأحد، وبعد أن يكون قد قرأ صحيفة «أرجوس» من الغلاف إلى الغلاف، ولم يعد هناك ما يمكن عمله، وترد عليه لإسكاته قائلة وهي تزمزم شفتيها امتعاضا: «يجب أن أكتب لجون»، وتبدأ الخطاب قائلة: «حبيبي جون».

ويتساءل جون: ما الذي تهدف إليه هذه المرأة العنيدة السمجة من كتابة هذه الخطابات؟ ألا تريد أن تفهم أن إعادة تأكيدها أنها مخلصة له لن تجعله يلين ويعود؟ ألا تريد أن تفهم أنه شخص غير عادي؟ يجب أن تركز حبها على أخيه وتنساه هو، فأخوه إنسان أكثر بساطة وبراءة، وله قلب حنون، فليتحمل أخوه عبء حبها، وليفهم أنه من الآن فصاعدا أصبح ابنها الأول وحبها الأول، وأن جون أصبح منسيا، ومن حقه أن يعيش على هواه.

وهي تكتب له كل أسبوع، لكنه لا يريد أن يعاملها بالمثل، ولا يكتب لها إلا بين الحين والآخر. ولا يكتب إلا أسطرا قليلة، ولا يقول شيئا سوى أنه على قيد الحياة، وهذا أسوأ ما في الأمر، وهذا هو الفخ الذي بنته أمه له، الفخ الذي لم يجد طريقا للخروج منه بعد، فهو إذا قطع كل صلة بها، ولم يكتب لها على الإطلاق،

فسوف تتخيل أسوأ النتائج الممكنة، ومجرد فكرة أن الحزن سيحطم قلبها - عندئذ - يجعله يرغب في أن يصم أذنيه ويغمض عينيه، وما دامت أمه حية فهو لن يجرؤ على أن يموت، ولذلك فإن حياته ليست ملكا له، وقد لا يكون مستهترا طائشا في حياته، وعلى رغم أنه لا يحب نفسه بصفة خاصة، يجب عليه، من أجل أمه، أن يهتم بنفسه ويلبس ملابس ثقيلة، وأن يتناول أغذية صحية، ويتعاطى فيتامين ج للوقاية من الإنفلونزا، وأما فكرة الانتحار فهي مستبعدة.

وهو يتلقى أخبار جنوب أفريقيا من خلال إذاعة الـ «بي. بي. سي» وصحيفة «مانشستر جارديان»، وهو يرتاع من قراءة خبر ورد في «الجارديان» عن صاحب مزرعة ربط أحد عماله في شجرة، وضربه بالسياط حتى الموت، ويتجمع الناس في مكان الحادث، حيث يطلق رجال الشرطة النار عليهم بصورة عشوائية لتفريقهم، كما يقرأ خبرا آخر مفاده أن أحد السجناء وُجد ميتا في زنزانته متدليا من السقف، وحول رقبته بطانية وعلى وجهه آثار كدمات ودماء... رعب على رعب، وشناعة على شناعة من دون انقطاع، وبلا رحمة ولا هوادة.

وجون يعرف آراء أمه، التي تقول: إن العالم لا يفهم جنوب أفريقيا فهما جيدا، ولا يقدرها حق قدرها، كما تقول إن شعب جنوب أفريقيا أفضل حالا من أي شعب آخر في أفريقيا، وإن الإضرابات والمظاهرات هي من فعل مثيري الشغب من الشيوعيين، وأما بالنسبة إلى عمال المزارع الذين يتقاضون أجورهم على هيئة وجبات رخيصة، وأطفالهم يرتدون ملابس على

شكل أكياس من الجوت لوقايتهم من البرد، فتعترف أمه بأن ذلك من العار، وتقول: إن هذا لا يحدث إلا في منطقة «الترانسفال» التي يسبب سكانها من «الأفريكانز» بأحقادهم الشديدة، وقلوبهم القاسية إعطاء صورة سيئة عن البلاد.

ولا يتردد جون في إبداء رأيه لأمه، الذي مفاده أنه يجب على الروس، بدلا من إلقاء خطب في الأمم المتحدة، أن يغزوا جنوب أفريقيا من دون إبطاء، وذلك بإنزال قوات من جنود المظلات في «بريتوريا» وإلقاء القبض على «فيرفورد» وأتباعه، وإيقافهم صفا واحدا أمام الحائط وإطلاق النار عليهم جميعا، ولم يفكر جون في الخطوة التالية التي يجب أن يقوم بها الروس بعد ذلك، وكل ما يهمه أن العدل يجب أن يأخذ مجراه، وأما أي شيء بعد ذلك فهو سياسة، وهو ليس مهتما بالسياسة، ويعود جون بالذاكرة إلى ما حدث في جنوب أفريقيا في الماضي، عندما داس الأفريكانز الناس بأقدامهم لأنهم - على حد زعمهم - سبق أن داس عليهم الآخرون، فلتدر عليهم الدوائر مرة أخرى، وليكن الرد على القوة بقوة أكبر منها، وهو سعيد لأنه بعيد عن ذلك كله.

وجنوب أفريقيا هي بمنزلة قيد حول رقبته، وهو يريد أن يتخلص منه بطريقة ما لكي يستطيع التنفس.

ويرى جون «أنه ليس من الضروري شراء صحيفة «مانشستر جارديان»؛ إذ هناك صحف أخرى أسهل منها كصحيفة «التايمز» أو الـ «ديلي تلجراف» مثلا، ولكن «الجارديان» موثوق بها، وتهتم بنشر أخبار جنوب أفريقيا حتى لو أدى ذلك إلى أن تتقبض روحه خوفا عندما يقرأ أسوأ الأخبار.

مرت عدة أسابيع دون أن يتصل بـ «أستريد» وإذا بها هي التي تتصل به وتقول إنها ستغادر إنجلترا وتعود إلى النمسا، وقد لا تراه مرة أخرى، ولذلك اتصلت به لتودعه، وتحاول «أستريد» أن تبدو متماسكة في حديثها عبر الهاتف، ولكن يبدو من صوتها أنها كانت تبكي، ويطلب جون لقاءها حيث يتناولان القهوة معا.

وهو يريد أن يعاملها معاملة أفضل، ويكون ألطف معها مراعاة لصغر سنها ومعاناتها من الوحدة في تلك المدينة الكبيرة، كما يريد أن يجفف دموعها ويعيد الابتسامة إلى شفتيها، وأن يثبت لها أن قلبه ليس قاسيا كما يبدو عليه، وأنه يريد تدليلها كما تدلله هو وأن يصغي إليها ويعيرها اهتمامه، وهي تحكي عن أمها وإخوتها في النمسا، لكنه يريد أن يكون حريصا، لأنه إذا كان أكثر دفئا معها فقد تلغي سفرها وتبقى في لندن.

ومعنى ذلك، أن شخصين مهزومين يواسي كل منهما الآخر، بما في ذلك من إذلال شديد، وقد يتزوجان ويقضيان بقية عمريهما، يرعى كل منهما الآخر كالمرضى والمعاقين.

والآن، وفي شهر ديسمبر، عاد الطقس إلى قسوته من جديد، فالثلج يتساقط ثم يذوب ثم يتجمد من جديد، والمشاة على الأرصفة يجب أن يكونوا حذرين في خطواتهم ويمشون خطوة خطوة، كما لو كانوا يتسلقون الجبال، والضباب الكثيف يغلف المدينة محملا بغبار الفحم والكبريت، وتنقطع الكهرباء، وتتوقف القطارات، ويموت المسنون في منازلهم من التجمد، وكما جاء في الصحف كان هذا أسوأ شتاء شهدته بريطانيا في القرن العشرين.

وأثناء سيره في طريق «أراتشواي» تنزلق قدماه على الثلج،

وهو يضع كوفية على وجهه محاولا عدم التنفس، وتفوح روائح الكبريت من ملابسه، وهناك طعم كريه في فمه، وعندما يسعل يخرج من حلقه بلغم أسود، وأما في جنوب أفريقيا فهو الصيف، ولو كان هناك لذهب إلى شاطئ ستراندفورتين وركض مرحا ميلا بعد ميل فوق الرمال البيضاء، وتحت سماء زرقاء رائعة، وأثناء الليل تتفجر أنبوبة الماء في غرفته، وتغرق الأرضية، وعندما يستيقظ يجد نفسه محاطا بطبقة من الثلج.

وتصف الصحف ما حدث بأنه يشبه الغارات الجوية النازية على لندن، إذ انتشرت في لندن مطاعم تقدم الشوربة للمشردين على يد نساء متطوعات أجنبيات يعملن في خدمة بريطانيا، كما قام عمال الإصلاح بعملهم طوال الليل، وتعلق الصحف على ما حدث قائلة: إن تلك الأزمة أظهرت المعدن الأصيل لأبناء لندن الذين يواجهون المحن والشدائد بهدوء وقوة، بل بروح مرحة.

وأما بالنسبة إلى جون، فهو قد يلبس مثل سكان لندن، ويذهب إلى العمل مثلهم، ويعاني البرد القارس مثلهم، لكنه لا يتمتع بما لديهم من صفات، إذ تمر عدة أيام أحد من دون أن يعتبره سكان لندن واحدا منهم، بل على العكس، ينظرون إليه على أنه واحد من الأجانب الذين - لأسباب واهية - يختارون العيش في بلدان لا ينتمون إليها، ويتساءل جون في قرارة نفسه: إلى متى سيعيش في إنجلترا قبل أن يُسمح له بأن يعتبر نفسه مواطنا بريطانيا؟ وهل يكفي الحصول على جواز سفر بريطاني، أم أن اسمه الغريب سيجعله أجنبيا إلى الأبد؟ ولكن ما معنى أن يصبح مواطنا إنجليزيا؟ فإنجلترا هي موطن شعبين عليه أن يختار أحدهما:

الطبقة المتوسطة، والطبقة العاملة، وقد حدد جون اختياره، فهو يلبس الزي الموحد للطبقة المتوسطة، ويقرأ صحفها ويقلدها في الحديث، ولكن هيهات أن تكفي هذه المظاهر الخارجية للانتماء إلى تلك الطبقة، فانتماؤه الكامل إلى تلك الطبقة، وليس العضوية المؤقتة فيها، التي تصلح إلى ساعات معينة في أوقات محددة، قد حُسم في رأيه منذ سنوات، بل أجيال طوال، وفقا لقواعد ستظل دوما مجهولة لديه، وأما بالنسبة إلى الطبقة العاملة فهو لا يشاركها في أنشطتها الترويحية، ويكاد لا يفهم حديثها، ولم يشعر أبدا بأدنى بادرة ترحيب منها، والفتيات العاملات في IBM لديهن أصدقاء من الطبقة العاملة نفسها، ويفكرن في الزواج وإنجاب الأطفال والحصول على وحدة سكنية من المجلس البلدي، وحينما يتحدث إليهن أحد حديثا وديا يرددن عليه بفتور شديد، وإذا كان يعيش في إنجلترا، فإن ذلك ليس بدعوة من الطبقة العاملة البريطانية.

ووفقا للتقارير المنشورة التي اطلع عليها، يعيش في لندن آلاف غيره من أبناء جنوب أفريقيا، كما يوجد الكثير من الكنديين والأستراليين والنيوزيلانديين بل والأمريكيين، ولكنهم ليسوا مهاجرين، بل قدموا إلى بريطانيا للاستقرار فيها، ولكي يصبحوا مواطنين بريطانيين. وقد قدموا إلى بريطانيا للمتعة أو الدراسة، أو جمع مبلغ من المال يكفيهم لجولة في أوروبا، وبعد أن يحققوا رغباتهم من العيش في العالم القديم يعودون إلى بلادهم، حيث يبدأون حياتهم الحقيقية. كما يوجد أوروبيون في لندن، وهم لا يأتون إليها لدراسة اللغة فقط، بل إن بعضهم مهاجرون من الكتلة

الشرقية، بل من ألمانيا النازية السابقة، إلا أن وضعهم مختلف عن وضعه، فهو ليس لاجئا، لأن وزارة الداخلية البريطانية سترفض طلبه اللجوء إليها، وسيتعرض لأسئلة مثل: ما الجهة التي تضطهدك؟ ما الجهة التي تريد الهرب منها؟ ويرد قائلا: إنني أهرب من الملل، ومن النزعة المادية المبتذلة في الحياة، والانهيار الأخلاقي، ومن العار، ولكن ماذا سيكون نتيجة ردوده هذه؟

ويصل جون إلى محطة بادنجتون في السادسة مساء، ويسير عبر شارع «فيدافيل» أو «كيلبورن هاي رود» تحت أعمدة الكهرباء صفراء اللون، ويشاهد جماهير غفيرة من أبناء جزر الهند الغربية عائدين إلى منازلهم، يلفون كوفيات حول رقابهم للوقاية من الصقيع، ويسيرون وظهورهم منحنية؛ واضعين أيديهم في جيوبهم، وجلودهم لونها رمادي، كما لو كانت مغطاة بمسحوق، ويتعجب جون من السبب الذي جعلهم يأتون من جامايكا وترينيداد إلى مدينة بلا قلب، مثل لندن، حيث يشع البرد من أرصفة الشوارع، وحيث يقضي الناس ساعات النهار في مشقة وعناء، ويقضون الليل وهم يميلون بأجسامهم نحو مدفأة الغاز في غرفة مستأجرة، جدرانها يتساقط الطلاء منها، وأثاثها أكل الدهر عليه وشرب، ومن المؤكد أنهم ليسوا جميعا هنا بحثا عن الشهرة في عالم الشعر.

وزملاؤه في العمل مهذبون ولا يفصحون عن رأيهم في الزائرين الأجانب، ولكن في بعض لحظات صمتهم يشعر أنه ليس على الرحب والسعة في بلدهم، كما أنهم لا يعبرون عن رأيهم في أبناء جزر الهند الغربية، ولكن ثمة كتابات على

الحائط تقول: «ارحلوا عنا أيها الزنوج»، و«ممنوع دخول الملونين»، وكذلك على نوافذ المساكن المعروضة للإيجار، وبدأت الحكومة، شهرا بعد شهر، تشدد من قوانين الهجرة، ويحجز القادمون من جزر الهند الغربية على أرصفة ميناء «ليفربول»، إلى أن يصيبهم اليأس ثم يشحنون إلى حيث أتوا، وإذا كان لا يشعر بأنه ليس موضع ترحيب بمثل هذه الصراحة والوضوح، فربما يكون السبب الوحيد لذلك هو البدلة ماركة «موس براذرز» التي يرتديها، ولون بشرته الشاحب.

الفصل الثالث عشر

«بعد تفكير عميق توصلت إلى القرار التالي...»، «بعد روية ومراجعة النفس توصلت إلى النتيجة التالية...».

قضى جون حتى الآن أكثر من عام كامل في خدمة IBM، بشتائه وربيعه وخريفه وصيفه، ثم جاء شتاء آخر، ونحن الآن في بداية ربيع آخر. وحتى وهو الآن في مبنى شارع نيومان، الذي يشبه الصندوق وبنوافذه المغلقة، يشعر بتغير لطيف في الجو، لكن لا يمكنه الاستمرار في هذا الوضع، ولا يمكنه أن يضحي بحياته أكثر من ذلك في سبيل المبدأ القائل بأن على الإنسان أن يكدح في سبيل لقمة العيش، وهو المبدأ الذي سار عليه، وإن كان لا يعرف من أين استقاه. كما لا يستطيع أن يثبت لأمه إلى الأبد أنه قد كون لنفسه حياة مستقرة، وأن عليها أن تكف عن القلق عليه. وهو عادة لا يعرف ماذا يدور في عقله، ولا يهتم بمعرفة ذلك، إذ يرى أن معرفة الإنسان لعقله معناها انطفاء شرارة الإبداع. وفي حالته هو لا يمكنه أن يعيش على الدوام في تردده المعهود، ولذلك يجب أن يترك IBM أيا كان ثمن الذل الذي يجب أن يدفعه.

وطوال العام الماضي أصبح خط يده أصغر فأصغر وحروفه أكثر غموضا. والآن يجلس أمام مكتبه يكتب خطاب استقالته؛ محاولا أن تكون الحروف أكبر وأوضح وتدل على ثقة الكاتب في نفسه.

«بعد تفكير عميق توصلت إلى نتيجة مفادها أن مستقبلي ليس في IBM. وطبقا لشروط العقد أتقدم بإخطار مدته شهر». ثم يوقع الخطاب ويضعه في ظرف ويغلقه ويوجهه إلى دكتور «ب. ل. ماكيفر» مدير قسم البرمجة، ويضعه بحذر في المكان المخصص للمراسلات الداخلية من دون أن يلاحظه أحد، ثم يعود إلى مكتبه. وكان أمامه حتى الساعة الثالثة عندما يحين وقت جمع البريد لإعادة التفكير في الاستقالة وسحبها وتمزيقها. ويتخيل أنه بمجرد أن يتسلم ماكيفر كتاب الاستقالة سيكون قد قضي الأمر وسبق السيف العذل. وفي اليوم التالي سينتشر في أروقة الشركة نبأ استقالة الشاب الجنوب أفريقي، أحد العاملين مع د. ماكيفر، وأحد المبرمجين العاملين بالطابق الثاني. ولن يرغب أحد في التحدث إليه، وسيرسل إلى مدينة «كوفنتري»، وسينظر إليه على أنه إنسان فاشل وقليل الهمة ومنحط أخلاقيا.

وفي الساعة الثالثة تأتي امرأة وتجمع البريد وهو ينحني على الأوراق التي أمامه وقلبه يدق بشدة. وبعد نصف ساعة يستدعيه ماكيفر للحضور إلى مكتبه ويسأله بغضب، ولكن بهدوء، وهو يشير إلى كتاب استقالته: «ما هذا؟» فيرد جون قائلا: «لقد قررت الاستقالة»، فيسأله عن السبب، وكان جون يظن أن ماكيفر سيأخذ استقالته على محمل سيئ، إذ هذا الشخص الذي أجرى له المقابلة ووافق على تعيينه وتغاضى عما قيل عن جون من أنه مجرد شخص عادي من أبناء المستعمرات، يبحث له عن مستقبل في عالم الكمبيوتر، ويجب على ماكيفر أن يبرر لرؤسائه الخطأ الذي ارتكبه.

وماكيفر طويل القامة، ويرتدي ملابس أنيقة، ويتحدث بلكنة أكسفورد، وليس له اهتمام بالبرمجة كعلم أو مهارة أو مهنة أو أي شيء آخر، إذ ينصب اهتمامه على كونه مديرا. وهو ماهر في الأعمال التالية: توزيع المهام على الموظفين، وإدارة وقتهم، وتحفيزهم، ويستغل كل طاقاتهم مقابل ما يتقاضونه من أجر.

ويسأل ماكيفر مرة أخرى وقد بدأ صبره ينفد: لماذا؟

ويرد جون قائلا: العمل في IBM لا يرضيني على المستوى الإنساني، ولا يحقق لي ذاتي.

- استمر.

- كنت أطمع في شيء آخر.

- وما هو هذا الشيء؟

- كنت أطمع في إقامة صداقات.

- وهل جو العمل غير ودي؟

- كلا على الإطلاق، فالعاملون في الشركة يعاملونني معاملة طيبة، ولكن هذا شيء والصداقة شيء آخر.

وكان جون يأمل في أن يكون كتاب استقالته آخر كلمة يقولها، ولكنه كان ساذجا، إذ كان عليه أن يدرك أنهم سيعتبرون استقالته مجرد أول طلقة في الحرب.

ويوجه ماكيفر كلامه إلى جون مرة أخرى قائلا: «وماذا بعد؟ إذا كان في نفسك شيء تريد أن تقوله فهذه هي آخر فرصة لك».

- ليس هناك شيء آخر.

- نعم، فهمت الآن، ليس هناك شيء آخر فأنت تفتقد الصداقات ولم تجد أصدقاء.

- نعم، هذا صحيح، وأنا لا ألوم أحدا، فربما الخطأ خطئي.
- ولهذا السبب تريد أن تستقيل؟
- نعم.

والكلمات التي تفوه بها جون بدت حمقاء، بل هي حمقاء بالفعل، وقد استُدرج لأن يقول ذلك، وكان عليه أن يتوقعه. إذ هم يريدونه أن يدفع ثمن استقالته ورفضه العمل في الوظيفة التي قدمت له في IBM، الشركة الرائدة في عالم الكمبيوتر، وهو في ذلك يشبه لاعب شطرنج مبتدئا يحشر في زاوية ويموت الملك في عشر حركات، ثم في ثماني حركات، ثم في سبع حركات. وهذا درس له في السيطرة والهيمنة، حسنا دعهم يفعلون ما يريدون، دعهم يختارون حركاتهم في اللعب، ودعهم يقصدون عليه خط الرجعة ويتنبأون بحركاته إلى أن يشعروا بالملل من اللعبة ويتركوه، يذهب إلى حال سبيله.

وبحركة عنيفة من يده ينهي ماكيفر المقابلة. وتوقف الأمر مؤقتا عند هذا الحد، إذ يمكنه الآن العودة إلى مكتبه دون التزام بالعمل بعد انتهاء الدوام، وفي مقدوره مغادرة الشركة في الخامسة والاستمتاع بالمساء بحريته ودون قيود. وفي صباح اليوم التالي يمر ماكيفر أمام مكتب جون دون أن يرد عليه التحية، ثم تبلغه السكرتيرة بضرورة التوجه على الفور إلى إدارة شؤون العاملين بالمركز الرئيسي للشركة في حي المال والأعمال بلندن.

ومن الواضح أن الشخص المسؤول في هذه الإدارة أخذ علما بشكوى جون من فشله في إقامة صداقات في الشركة، ويضع أمامه ملفا، ويتناول في استجوابه النقاط الموجودة فيه واحدة تلو

الأخرى، ويسأله منذ متى وهو غير سعيد في عمله، وهل سبق له في أي مرحلة أن بحث ذلك مع رئيسه المباشر؟ وإذا كان الجواب لا، فلماذا؟ وهل زملاؤه غير ودودين معه بالفعل؟ لا؟ إذن هل يود الاستمرار في تقديم الشكوى؟

وكلما تذكر الكلمات: صديق والصداقة وودود ازدادت غرابتها، وإذا كان يبحث عن أصدقاء فعليه أن يتذكر الشخص الذي نصحه بالانضمام إلى أحد الأندية، ولعب البولينج، وتطيير نماذج الطائرات، وجمع طوابع البريد، دون أن ينتظر من جهة عمله - شركة IBM للأجهزة المكتبية العالمية ومنتجة الآلات الحاسبة الإلكترونية والكمبيوتر - أن توفر له الأصدقاء.

ومما لا شك فيه أن موظف شؤون العاملين على صواب، إذ الشكوى ليست من حقه في هذا البلد الذي يتعامل فيه الناس ببرود، ألم يعجب بالإنجليز بسبب عواطفهم الجامدة؟ أليس ذلك ما يدعوه إلى كتابة رسالة ماجستير عن أعمال فورد مادوكس فورد، الكاتب نصف الألماني، والذي يشيد بميل الإنجليز إلى ما قل ودل في حديثهم؟

ولكن جون يستمر في شرح شكواه وهو يتلعثم، ولذلك لم يفهم موظف شؤون العاملين كلامه، كما لم يفهم أساس الشكوى في حد ذاتها، والكلمة التي أطلقها على ذلك هي الاعتقاد الخاطئ، والعبارة المناسبة التي وصف بها الشكوى هي: الموظف وقع تحت اعتقاد خاطئ. ولكن جون يشعر بأن هذا الموظف غير متعاون معه ولا يريد أن يساعده، وهم يصنفونه على هواهم.

ويحرص هذا الموظف حرصا شديدا على معرفة الخطوة التالية التي ينوي أن يتخذها جون. وهل الحديث عن عدم وجود صداقات مجرد غطاء لإخفاء نيته في الانتقال إلى إحدى الشركات المنافسة لـ IBM؟ وهل قدمت له وعود وحوافز؟ ولكن جون يؤكد بشدة أنه لا ينوي العمل في أي وظيفة أخرى أو أي شركة أخرى، وهو يريد أن يترك IBM لأنه يريد أن يتحرر من قيود الوظيفة - هذا كل ما في الأمر.

وتزداد تفاهة جون، ويبدو كلما واصل الحديث أنه لا يعيش في دنيا المال والأعمال، ولكنه يحتفظ بالسر لنفسه، وهو أنه يريد أن يترك الشركة ليصبح شاعرا.

وفجأة ودونما انتظار، ووسط كل هذه الضجة، تأتيه مكالمة من كارولين تقول له إنها تقضي إجازة في «بنجور رجيس» على الساحل الجنوبي لبريطانيا، وإنها ليست مرتبطة بأي عمل، وتدعوه إلى الحضور بالقطار لقضاء يوم السبت معها. وبالفعل يذهب إلى هناك حيث تقابله في المحطة ثم يستأجران دراجتين هوائيتين من محل في الشارع الرئيسي، ويسيران بهما في طرق ريفية خالية عبر حقول القمح البيضاء. وكان الطقس يميل إلى الحرارة على غير العادة، ولذلك كان يتصبب عرقا. ولم يكن يرتدي ملابس مناسبة لهذا الطقس (فانيلا رمادية صوف وجاكيت)، أما كارولين فكانت ترتدي تونيك قصير بلون الطماطم وصندلا. وكان شعرها الأشقر يلمع في الشمس، وكذلك ساقاها وهي تحرك بدلات الدراجة، ويسألها ماذا تفعل في هذا المكان فتجيب أنها تقيم مع إحدى عماتها التي لم ترها منذ زمن بعيد،

ولا يسأل جون أي أسئلة أخرى. وكانت كارولين قد أحضرت معها بعض الساندويتشات التي يتناولانها معا وهما جالسان في ظل إحدى أشجار القسطل.

ويقول لها جون: لقد استقلت من شركة IBM.

عظيم. وماذا ستفعل بعد ذلك؟

لا أدري. أريد فقط أن أهيم على وجهي لبعض الوقت.

وتنتظر كارولين لكي يحدثها أكثر عن خططه ومشروعاته وأفكاره، ولكن دون جدوى، يا له من إنسان غبي وبليد! ولماذا تهتم فتاة مثل كارولين به، وهي التي تأقلمت على الحياة في إنجلترا وحققت نجاحا فيها وتفوقت عليه في كل شيء؟ لديه تفسير واحد لذلك، وهو أنها لا تزال تراه كما كان في كيب تاون إنسانا قادرا على أن يصبح شاعرا، وقبل أن تجعل منه IBM ما هو عليه الآن: إنسان عالة وطفيلي وعاجز، وولد يهرع للحاق بقطار الساعة الثامنة وسبع عشرة دقيقة للذهاب إلى عمله.

في جهات العمل الأخرى في بريطانيا تقام حفلات توديع للموظفين المستقيلين، حيث تقدم لهم هدية مثل ساعة ذهبية، أو على الأقل لقاء مع الموظفين في أثناء استراحة تناول الشاي تلقى فيه الكلمات مع التصفيق وأطيب التمنيات، سواء كانت صادقة أو زائفة. ولكن هذا لا يحدث في IBM، فهي ليست بريطانيا، وإنما هي الموجة الجديدة والأسلوب الجديد في العمل. ولهذا السبب تعمل IBM على أن تحدث ضجة في أوساط المعارضة البريطانية، التي لا تزال تتبع الأساليب البريطانية القديمة نفسها، التي تتسم بالتراخي وعدم الكفاءة، بينما تتسم IBM بالشدة والصرامة.

ولذلك لن يقام حفل توديع لجون في آخر يوم عمل له بالشركة، ويقوم بجمع أوراقه من على مكتبه، ويودع زملاءه المبرمجين، ويسأله أحدهم بحذر: «ماذا تنوي أن تفعل؟» (والواقع أن جميع زملائه سمعوا عن موضوع الصداقة، الأمر الذي أشعرهم بالتوتر وعدم الارتياح). ويرد جون قائلا: حسب الظروف والأحوال.

وفي صباح اليوم التالي يستيقظ جون وينتابه شعور جميل، فهو غير مرتبط بالتوجه إلى مكان معين. وكانت الشمس ساطعة، ويركب القطار إلى ميدان ليستر، ثم يقوم بجولة في المكتبات الموجودة بشارع تشارنج كروس. ولم يحلق شعر ذقنه في ذلك اليوم، لأنه قرر أن يطلق لحيته، إذ يظن أنه وهو ملتح لن يبدو غريبا وسط الشبان الأنيقين والفتيات الجميلات، الذين يخرجون من مدارس اللغات ويركبون مترو الأنفاق. وهو يريد أن يجرب حظه في هذا السبيل، إذ قرر أنه من الآن فصاعدا لن يقف عقبة في طريق الحظ، فالقصص والروايات التي يقرأها حافلة بلقاءات كثيرة تتم بمحض المصادفة، وتؤدي إما إلى الحب والرومانسية وإما إلى مأساة، وهو مستعد للحب والرومانسية، بل حتى للمأساة ولأي شيء آخر في الواقع، ما دام ذلك يحتويه ويجعل منه شخصا آخر. وهذا هو السبب الذي أتى من أجله إلى لندن: أن يتخلص من شخصيته القديمة ويتحول إلى شخصية جديدة وحقيقية تفيض بالحماس، ولا يوجد الآن ما يقف حائلا دون تحقيق مآربه.

وتمر الأيام ولا يفعل شيئا سوى أن يسير على هواه، ووجوده في بريطانيا يعتبر من الناحية الفنية غير قانوني، إذ مرفق بجواز سفره تصريح العمل الذي يسمح له بالإقامة في بريطانيا، وبما

أنه أصبح بلا عمل الآن يعتبر التصريح كأن لم يكن. ولكن إذا احتجب عن الأنظار فسوف تتغاضى عنه السلطات والشرطة وأي مسؤول آخر.

وبدأت المشكلة المالية تلوح في الأفق، فمدخراته لن تكفيه إلى ما لا نهاية، وليس لديه شيء ذو قيمة يبيعه. كما توقف عن شراء الكتب، ويسير على قدميه إذا كان الطقس جيدا بدلا من ركوب القطار، ويعيش على الخبز والجبن والتفاح فقط. ولكن الحظ لا يعرف طريقه إليه، لكن الحظ قد يأتي على غير انتظار، لذلك على الإنسان أن يتمهل بحيث إذا ابتسم الحظ له في نهاية الأمر كان في وضع الاستعداد.

الفصل الرابع عشر

أما وقد أصبح جون حرا، وعلى هواه، فسرعان ما انتهى من قراءة كل ماكتبه فورد، وحان الوقت لأن يكتب هو معبرا عن رأيه، ولكن ماذا عساه أن يقول؟ في مجال العلوم يسمح للباحث بعرض نتائج سلبية وبعجزه عن إثبات الافتراضات، ولكن ما هي الحال بالنسبة إلى الآداب؟ إذا لم يجد شيئآ جديدا يقوله، فهل يكون الإجراء الصحيح والمشرّف أن يعترف بأنه ارتكب خطأ ويترك الدراسة، ويعيد المنحة الدراسية إلى الجامعة؟ وبدلا من كتابة رسالة الماجستير هل يجوز له أن يقدم تقريرا يذكر فيه أن موضوع دراسته خذله وأن بطله خيّب آماله؟!

ويخرج جون من المتحف البريطاني حاملا حقيبة الكتب ويسير وسط الجماهير في شارع «جريت راسيل»، آلاف البشر الذين لا يهتمون البتة برأيه في «فورد» أو أي شيء آخر. وفي الأيام الأولى بعد وصوله إلى لندن كان يحدق في وجوه المارة محاولا سبر غور كل منهم لمعرفة ما يميزهم عن غيرهم.

وكان يقول لنفسه: انتبه! أنا أنظر إليك، ولكن نظراته لم تؤد إلى نتيجة في مدينة سرعان ما اكتشف أن أحدا من رجالها أو نسائها لا يبادله نظراته، بل بالعكس يتجاهلونه فيشعر حينها كأنما هناك وخزة سكين في جسمه، ولكن بدأ الناس يلاحظونه بعد ذلك، ويشعرون بحاجته إليهم، وإن كانوا يتجاهلونه، مما جعله يفقد أعصابه، وتتراجع نظراته قبل أن يرى الرفض في

عيون الآخرين، وأما مع النساء، فكان من السهل عليه اختلاس النظرات إليهن، إذ يبدو أن تلك هي الطريقة التي تجري بها النظرات في لندن، لكنه شعر بأن اختلاس النظرات طريقة غير شريفة، وأنه من الأفضل ألا ينظر الإنسان بالمرة، وألا يكون فضوليا بالنسبة لجيرانه.

ولقد تغير كثيرا منذ أن جاء إلى لندن، ولكنه لا يعرف إن كان تغييرا إلى الأحسن أو إلى الأسوأ، وفي الشتاء الماضي مرّ بأوقات كان يظن أنه سيموت من البرد والتعاسة والوحدة، ولكنه تماسك وقرر بداخله أنه بحلول الشتاء التالي ستضعف قبضة البرد والتعاسة عليه، وعندئذ سيكون في طريقه إلى أن يصبح من أبناء لندن بمعنى الكلمة، صلبا كالصخر، وتحوله إلى الصخر لم يكن يوما هدفه، ولكن ربما يتعين عليه أن يكون كذلك الآن.

وخلاصة القول إن لندن تثبت أنها قامت بعملية تأديب وعقاب كبيرة له، وقد أصبحت طموحاته أكثر تواضعا مما كانت عليه، وقد أصابه سكان لندن بخيبة الأمل في بداية الأمر، وذلك بسبب تواضع طموحاتهم، وهو الآن في طريقه إلى اللحاق بهم، وكل يوم يمر عليه تقوم المدينة بتأديبه وعقابه مجددا، كما لو كان كلبا يضربه صاحبه لتأديبه وعقابه.

ولا يعرف جون ما يريد أن يكتبه عن «فورد»، ولذلك يتأخر في النهوض من سريره يوما بعد يوم، وعندما يقرر الجلوس إلى مكتبه للكتابة يجد نفسه عاجزا عن التركيز، كما أن جو الصيف يزيد الطين بلة.

فلندن التي يعرفها هي مدينة الشتاء التي يسير فيها الإنسان كل يوم في طريقه، وليس أمامه شيء يتطلع إليه سوى حلول الظلام والنوم والنسيان.

وفي أيام الصيف ذات الهواء العليل، التي يبدو انها جُعِلت للراحة والمتعة، يستمر الامتحان، وهو لم يعد يعرف نوعية الامتحان، ويخيل إليه أحيانا أنه يمتحن من أجل الامتحان فقط لمعرفة ما إذا كان سيتحمل أم لا؟ وجون ليس آسفا ولا نادما على تركه IBM، ولكنه لا يجد أحدا يتحدث إليه ولا حتى بيل بريجز، وتمر عليه أيام لا ينبس فيها ببنت شفة، وهو يضع عنها علامة S في يومياته (أي أيام الصمت).

وخارج محطة مترو الأنفاق ترتطم قدمه عفوا برجل مسن ضئيل الجسم يبيع الصحف، فيقول جون: آسف، فيرد عليه صائحا: انتبه في مشيتك فيكرر جون اعتذاره، وكلمة آسف تخرج متثاقلة منه كالصخر. ولكن هل تكفي كلمة واحدة مبهمة وغير محددة لاعتبارها حديثا وتواصلا؟ وهل ما حدث بينه وبين العجوز يعتبر حالة من الاتصال البشري؟ أم من الأفضل وصفه بأنه مجرد تفاعل اجتماعي كقرون الاستشعار بين النمل، ومن المؤكد أن هذه الكلمة لا تعني شيئا للعجوز، فهو يقف طول اليوم يبيع الصحف ويتمتم بغضب لنفسه في انتظار فرصة لشتم بعض المارة، بينما بالنسبة إلى جون ستظل عالقة بذهنه لأسابيع، وربما حتى آخر العمر، والارتطام بالناس ثم الاعتذار لهم وتلقي الشتائم ليست سوى خدعة وحيلة رخيصة للحديث للتغلب على الوحدة.

وهو يسير في وادي الامتحان، ولكنه غير موفق فيه، إلا أنه ليس الوحيد في هذا الامتحان، إذ من المؤكد أن الكثير قبله مروا بهذا الامتحان وخرجوا من الجانب الآخر، ومنهم من راوغ واجتاز الامتحان بمكره وخداعه، وفي استطاعة جون أن يفعل ذلك إذا أراد أن يهرب إلى «كيب تاون» مثلا ولا يعود أبدا، ولكن هل هذا ما يريده؟ قطعا لا، وليس بعد.

ولكن ماذا لو استمر ورسب في الامتحان بصورة مخزية؟ ماذا لو قبع في غرفته وحيدا وانفجر بالبكاء من دون توقف؟ ماذا لو وجد نفسه ذات صباح مفتقدا الإرادة لأن يستيقظ مفضلا قضاء اليوم، والأيام التالية، في السرير؛ مستلقيا فوق شراشف تزداد اتساخا يوما بعد يوم؟

ما مصير مثل هؤلاء الناس الذين يعجزون عن مواجهة الامتحان وينهارون؟

هو يعرف الجواب، فمصيرهم الشحن إلى مكان يلقون فيه الرعاية، كمستشفى أو بيت أو ملجأ، ولكن بالنسبة إليه سيشحن عائدا إلى جنوب أفريقيا. والإنجليز لديهم ما يكفيهم من أبناء وطنهم لرعايتهم ممن يرسبون في الامتحان، وليسوا مطالبين برعاية الأجانب أيضا.

وفي أثناء سيره في الشارع وجد أمامه رجلا يرتدي بدلة سوداء، ويبدو أنه يعرفه، وكان على وشك أن يتوقف ويتحدث إليه، وكان هذا الرجل أحد كبار المبرمجين في شركة IBM، الذين لم يحتك بهم جون كثيرا، وإن كان هذا الرجل دائما ما يبدي ميلا إلى مساعدته، ويتردد جون ثم يحييه بهزة من رأسه وهو يشعر

بحرج، ويتخيل جون أن هذا الرجل سيسأله، وهو يبتسم برقة في وجهه: «ما الذي تفعله بنفسك هذه الأيام إذن؟ هل تعيش حياة المتعة؟ ترى ماذا سيكون رده؟ إن هذا ما لا نستطيع أن نفعله، وإن الحياة قصيرة، ولذلك يجب أن نتذوق مباهجها قدر استطاعتنا، يا لها من نكتة! ويا لها من فضيحة! والحياة المثابرة الحقيرة التي عاشها أسلافه وأجداده، وهم يكدحون بملابسهم السوداء، وفي لهيب الشمس ووسط الغبار في منطقة «كارو» أفضت إلى ماذا؟ ... إلى شاب يمشي الهوينى في مدينة أجنبية، ويستنفد مدخراته، ويعيش حياة المجون ويأمل أن يكون فنانا، كيف يتأتى له أن يخدعهم على أمل أن ينجو من انتقامهم؟ إذ لم يكن من طبيعة أولئك الرجال والنساء أن يشعروا بالمرح واللهو، وهذا ليس من طبيعته أيضا، فهو ابنهم ومحكوم عليه منذ أن خرج من رحم أمه أن يكون تعيسا، وأن يعاني في الحياة، وهل هناك مصدر آخر للشعر سوى المعاناة مثل حجر ندق عليه فيخرج دما؟

وجنوب أفريقيا هي جرح بداخله، وإلى متى سيظل هذا الجرح ينزف؟ وإلى متى سيظل يبدي شجاعة في تحمل الألم قبل أن يستطيع أن يقول: «في سالف العصر والأوان كنت أعيش في جنوب أفريقيا، أما الآن فأنا أعيش في إنجلترا؟!»

ومن حين إلى آخر يتوقف لحظة لينظر إلى مظهره الخارجي: فتى قلق ومضطرب وشخص عادي وغير جذاب يتحدث همسا لا يستحق أن تلقى عليه نظرة أخرى، وهذه اللحظات الكاشفة في حياته تزعجه بدلا من أن يتمسك بها، ويحاول دفنها ونسيانها في الظلام، وهل حقيقة نفسه التي يراها في تلك

اللحظات ليست سوى مظهره الخارجي، أم تعبر عن حقيقته؟ وهل «أوسكار وايلد» على حق إذ يقول ليس هناك حقيقة أعمق من المظهر؟ وهل من الممكن أن يكون الإنسان عاديا وغير جذاب ليس فقط في مظهره، ولكن في أعماق أعماقه ومع ذلك يكون فنانا؟ وهل كان ت. س. إليوت مثلا إنسانا مملا في أعماقه؟ وهل كان ما يدعيه من أن شخصية الفنان لا علاقة لها بعمله ليس سوى محاولة لإخفاء حقيقته؟

ربما، ولكنه غير مؤمن بذلك، وإذا خُيِّر بين رأي «وايلد» ورأي «إليوت»، لاختار إليوت، فلو أن إليوت اختار أن يبدو غير جذاب وأن يرتدي بدلة ويعمل في أحد البنوك، ويتخذ لنفسه اسم «ج. ألفريد. برونفروك»، فإن ذلك سيكون للتمويه كجزء مما يجب أن يمتلكه الفنان في العصر الحديث من مكر ودهاء.

ومن قبيل التغيير، وبدلا من السير في شوارع المدينة يذهب جون إلى «هامبستيد هيث»، حيث الهواء أدفأ قليلا، والطرقات ممتلئة بأمهات شابات يدفعن عربات أطفالهن إلى الأمان، أو يتحدثن مع بعضهن البعض، بينما الأطفال يلعبون ويقفزون، يا لها من قناعة وطمأنينة، وراحة نفسية، وكان في الماضي لايحب القصائد التي تصف تفتح الأزهار والنسيم العليل، وأما الآن، وهو في البلد الذي كتبت فيه هذه القصائد، بدأ يفهم كيف يكون السرور عميقا كلما عادت الشمس إلى الظهور.

وبعد ظهر يوم أحد، ومن فرط تعبه يخلع الجاكيت، ويستعملها كوسادة ويتمدد على العشب الأخضر، ويستغرق في النوم، أو يكون نصف نائم، حيث لا يفقد الشعور تماما، بل يظل يطوف حوله،

وتلك حالة لم يعرفها أبدا من قبل: إذ يشعر بدوران الأرض يسري في عروقه، كما يمر بلحظات من النشوة والسرور، وهو يتخيل صراخ الأطفال وتغريد الطيور، وصفير الحشرات يأتيه من بعيد، فيمتلئ قلبه بالسعادة، ويقول في قرارة نفسه: أخيرا، حانت لحظة النشوة التي أتحد فيها مع الجميع، وخوفا من أن تهرب منه تلك اللحظة يحاول أن يضع حدا للأفكار المتصارعة في داخله، وأن يكون مجرد قناة تمر فيها تلك القوة العظيمة التي لا يعرف كنهها. التي لا تستغرق سوى بضع ثوان بحساب الزمن، ولكنه عندما ينهض من النوم، وينفض الغبار من فوق الجاكيت، يشعر بالانتعاش وتجديد طاقته وحيويته، لقد قام برحلة طويلة للوصول إلى المدينة العظيمة والمظلمة لحضور امتحان ولتغيير نمط حياته، وهنا فوق هذه المروج الخضراء، وتحت شمس الربيع اللطيفة، ويا للغرابة، ها هو يتقدم، وإذا كان لم يتغير تماما، فقد حصل على الأقل على إشارة تدل على أنه ينتمي إلى هذا العالم.

الفصل الخامس عشر

يبحث جون عن طريقة لخفض نفقاته التي يشكل السكن أكبر بند فيها، ولذلك .. ينشر إعلانا في قسم الإعلانات المبوبة في الصحيفة المحلية التي تصدر في «هامبستيد» يقول فيه: «مستعد لرعاية المنزل أثناء غياب أصحابه، خدمة تقدم بأسلوب مهني مسؤول، لمدة قصيرة أو طويلة»، ويصله الرد من شخصين ويعطيهما عنوانه على أنه يعمل في IBM، ويأمل ألا يقوما بالتحري للتأكد من ذلك، محاولا إعطاء انطباع عن نفسه بأنه يراعي أصول الآداب واللياقة، وتنجح الخطة ويتفق على العمل في شقة في منطقة «سويس كوتيج»، في شهر يونيو، ولكن وا أسفاه، لن يكون في الشقة بمفرده، إذ الشقة تمتلكها سيدة مطلقة تعيش فيها مع ابنتها الصغيرة، وستسافر الأم إلى اليونان على أن تبقى الطفلة ومربيتها في رعايته، وستكون مهامه بسيطة، وتتمثل في تسلم البريد ودفع الفواتير، وأن يكون جاهزا في حالة الطوارئ، وستخصص له غرفة مع حقه في استخدام المطبخ، هذا بالإضافة إلى وجود زوج سابق سيتردد على البيت كل يوم أحد ليأخذ ابنته للنزهة، وهو، كما تصفه صاحبة البيت، سريع الانفعال بعض الشيء، ويجب ألا يسمح له بأي شيء سوى ذلك، ويسأل جون عما هو غير مسموح فتقول: أن تبيت الطفلة معه، أو أن يتجول في الشقة أو يأخذ أي شيء منها.

والآن، بدأ جون يفهم لماذا هو مطلوب هنا، فمربية الأطفال بلدها الأصلي «مالاوي» التي لا تبعد كثيرا عن جنوب أفريقيا، وهي قادرة تماما على تنظيف الشقة، وشراء اللوازم وإطعام الطفلة واصطحابها إلى روضة الأطفال، بل ربما تكون أقدر منه على دفع الفواتير، ولكن الشيء الذي لا تقدر عليه هو أن تقف في وجه ذلك الرجل، الذي كانت حتى عهد قريب خادمة له، ولا تزال تطلق عليه السيد، والوظيفة التي وافق جون على العمل بها هي في الواقع، وظيفة حارس للشقة ومحتوياتها من الرجل الذي كان يعيش فيها حتى عهد قريب.

وفي أول يونيو يستأجر جون سيارة تاكسي، وينتقل مع صندوقه الخشبي وحقيبته من المناطق القذرة المحيطة بـ «آرتشواي» إلى حي «هامبستيد» الأرستقراطي والشقة واسعة وجيدة التهوية، تدخلها الشمس من خلال النوافذ، والأرض مغطاة بسجاد أبيض ناعم، وبالشقة عدة أرفف للكتب أنيقة المظهر، وهو لا يكاد يصدق أنه في هذه الشقة التي لم يسبق أن رأى مثيلا لها في لندن.

وبينما هو يخرج أمتعته من الصندوق، تظهر الطفلة الصغيرة التي ستكون في عهدته، وتقف أمام باب غرفته تشاهد كل حركاته وسكناته، ولم يسبق له أن كلف برعاية طفل أو طفلة من قبل، ولكن هل لديه، بحكم كونه شابا، ميل طبيعي نحو الأطفال؟ وبابتسامة رقيقة يغلق الباب أمامها بهدوء، ولكن بعد لحظة واحدة تدفع الطفلة الباب، وتستمر في النظر إليه بتجهم شديد، ويبدو له كما لو كانت تقول: هذا بيتي، ما الذي تفعله أنت هنا؟

واسم هذه الطفلة «فيونا»، وهي في الخامسة من العمر، وفي اليوم نفسه يحاول أن يصادقها، وفي غرفة المعيشة التي تلعب فيها يجثو على ركبتيه ويمسح بيده على القط، وهو ذكر وضخم وعجوز ومخصي وبطيء الحركة، ويبدو أن القط مستمتع بذلك، ويسألها: «هل أحضر للقط بعض الحليب» لكن الطفلة لا تحرك ساكنا، وتتظاهر بأنها لم تسمعه، لكنه يذهب إلى الثلاجة، ويحضر بعض الحليب ويضعه للقط في الوعاء الخاص به ويقربه منه، ويشم القط الحليب، لكنه لا يشربه.

وتلف الطفلة حبلا حول لعبها (عرائسها)، وتضعها في كيس الغسيل ثم تخرجها مرة أخرى، ويبدو أنها لعبة، ولكن جون لا يفهمها، ويسألها جون عن أسماء العرائس لكنها لا ترد، ويعود يسألها عن اسم دمية على شكل زنجي، وهل اسمها جولي؟ وترد الطفلة بأنها ليست كما يقول، وتوقف جون عن الحديث مع الطفلة وقال لها: إن لديه عملا يجب أن يؤديه الآن، وابتعد عنها.

وقد طُلب من جون أن ينادي المربية باسم «ثيودورا»، وهذا ليس اسمها الحقيقي، وهي تشغل غرفة في نهاية الممر ملاصقة لغرفة الطفلة، ومن المفهوم أن هاتين الغرفتين، بالإضافة إلى غرفة الغسيل، هي مملكتها الخاصة، وأما غرفة المعيشة فهي للجميع.

ويقدر جون سن ثيودورا بأنها في الأربعينيات من عمرها، وهي تعمل في خدمة هذه الأسرة (أسرة مرينجتون)، منذ أن كانوا في مهمة عمل في «مالاوي»، والزوج السابق حاد الطبع عالم أنثروبولوجيا، وكانت أسرة مرينجتون في رحلة ميدانية في «مالاوي» لتسجيل موسيقى القبائل، وجمع الآلات الموسيقية،

وسرعان ما انضمت ثيودورا لخدمة هذه الأسرة ليس بصفتها خادمة، بل كصديقة، على حد قول الأسرة.

ونظرا إلى تعلق الطفلة «فيونا» الشديد بها فقد قدمت مع الأسرة إلى لندن، وترسل كل شهر مبلغا إلى مالاوي لطعام أطفالها وشرابهم وتعليمهم.

والآن، من دون سابق إنذار، يأتي غريب عمره نصف عمرها يتولى أمور مملكتها، ولا تكف ثيودورا عن إشعاره بأنها مستاءة من وجوده، وذلك من خلال تحملها وصحتها.

وهو لا يلومها على ذلك، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو: هل هناك أسباب أخرى لاستيائها منه غير مجرد مس كرامتها؟ عليها أن تعلم أنه ليس إنجليزيا، فهل هي مستاءة منه شخصيا كجنوب أفريقي أم كأبيض أم كأحد الأفريكانز؟ وعليها أن تعلم من هم الأفريكانز، إذ يوجد أفريكانز يتميز رجالهم ببطونهم المنتفخة وأنوفهم الحمراء ويرتدون بنطلونات قصيرة «شورتات» وقبعات، وتتميز نساؤهم بأجسادهن الممتلئة وأزيائهن غير واضحة المعالم، وهم منتشرون في مختلف أنحاء أفريقيا، في روديسيا وأنجولا وكينيا، وقطعا في مالاوي، وهو يفكر في طريقة يجعلها تفهم أنه ليس واحدا من هؤلاء، وأنه رحل من جنوب أفريقيا ومصمم على نسيانها إلى الأبد ويتخيل إذا قال لها فجأة، وهي واقفة في المطبخ: أنت التي تنتسبين إلى أفريقيا، فاصنعي بها ما شئت، فهل ستغير رأيها فيه؟

أنت تنتسبين إلى أفريقيا: الشيء الذي كان طبيعيا تماما عندما كان يعتبر هذه القارة وطنه، يبدو الآن أكثر فأكثر سلوكا

وقـحـا من منظور أوروبي، أن تنزل حـفنة من الهـولنديين على شاطئ «وودستوك»، ويدعون ملكية أراض أجنبية لم يروها من قبل، وأن يعتبر أبناؤهم وأحفادهم هذه الأرض ملكا لهم بحكم المولد، والأكثر حماقة أن مجموعة نزلت إلى الشاطئ أساءت فهم الأوامر الصادرة إليها أو تعمدت تجاهلها، إذ كانت الأوامر تمهيد التربة وزرع سبانخ وبصل في حديقة لتزويد أسطول جنوب شرق آسيا بها، بحيث لا تزيد مساحة الحديقة على خمسة أفدنة، ولم يكن الهدف من مجيئهم إلى تلك البلاد الاستيلاء على أجمل جزء في أفريقيا، ولو كانوا قد أطاعوا الأوامر الصادرة إليهم ما كان جون موجودا في لندن، وما كانت ثيودورا، بل كانت تطحن الذرة وهي سعيدة تحت سماء مالاوي، وأما هو فما مصيره؟ سيكون جالسا في مكتب يقيد الحسابات في الدفاتر في مدينة روتردام الممطرة وثيودورا امرأة بدينة، وتظهر بدانتها في جميع أنحاء جسمها من خدودها الممتلئة إلى كاحليها المتورمين، ويهتز جسمها بشدة حينما تمشي مع ضيق في التنفس ولهاث بسبب ما تبذله من مجهود أثناء المشي، وهي تتحرك داخل المنزل لابسة النعال، وعندما تصطحب الطفلة إلى المدرسة تحشر قدميها في حذاء تنس، وتضع معطفا سميكا وطويلا على كتفيها وقبعة من الصوف، وهي تعمل ستة أيام في الأسبوع، وفي يوم الأحد تذهب إلى الكنسية أو تقضي اليوم في الراحة بالمنزل، وهي لا تتحدث في الهاتف بالمرة، ويبدو أن ليس لها علاقات اجتماعية، وجون لا يعرف ماذا تفعل ثيودورا عندما تكون وحدها، وهو لا يجرؤ على دخول غرفتها أو غرفة الطفلة

حتى وهم خارج المنزل، وفي المقابل، لا يحب أن يفتشا في غرفته أثناء غيابه.

ونظرا إلى أنه حصل على إقامة مجانية، مدعيا كذبا أنه يعمل وأنه إنسان موضع ثقة، لذلك يجب أن يستمر في التظاهر بأن له وظيفة، فهو يستيقظ في ساعة مبكرة عما اعتاد عليه لكي يتناول الإفطار قبل أن تستيقظ ثيودورا والطفلة ثم يغلق باب غرفته عليه، وعندما تعود ثيودورا من مدرسة الطفلة يغادر البيت متظاهرا بالتوجه إلى عمله، وإمعانا في الخداع كان في البداية يرتدي البدلة السوداء، ولكنه توقف عن ذلك، ويعود إلى البيت في الخامسة وأحيانا في الرابعة.

وهو محظوظ لأن الوقت وقت صيف، ولذلك، فإن زياراته ليست مقتصرة على المتحف البريطاني والمكتبات ودور السينما، بل يمكنه أن يتنزه في الحدائق العامة، وهذا بالتأكيد ما كان عليه نمط حياة والده طوال الفترات الطويلة التي كان عاطلا فيها عن العمل فيها: التجول في المدينة بملابس العمل الرسمية، أو الجلوس في البارات يطالع الساعة وينتظر الوقت المناسب للعودة إلى البيت، ويتساءل جون ما إذا كان سيحذو حذو والده؟ وإلى أي مدى ورث الاستهتار واللامبالاة عنه؟ وهل سيصبح سكيرا مثله؟ وهل للسكير طابع خاص يميزه؟

وكان شراب والده المفضل «البراندي»، وقد جرّب جون شرب البراندي ذات مرة، وكل ما يذكره هو المذاق السيئ والطعم اللاذع، والشراب المنتشر في إنجلترا هو «البيرة»، التي لا يحب طعمها الحامض، ويتساءل جون إذا لم يقبل على الخمر فهل سيكون في

أمان ومحصنا من السكر والإدمان؟ وهل هناك طرق أخرى لم يتخيلها بعد يمكن أن يظهر بها أبوه في حياته؟

ولم يمض وقت طويل حتى بدأ الزوج السابق في الظهور، ففي صباح يوم أحد، وبينما جون في سريره الكبير والمريح، إذا به فجأة يسمع طرقا على الباب وصوت مفاتيح، فينهض مذعورا وهو يلعن نفسه، ثم يسمع شخصا يقول: «هاللو، فيونا، ثيودورا»، ثم يسمع وقع أقدام والطفلة تركض، ثم بعد طرقة خفيفة، يُفتح الباب على مصراعيه، ويجد الرجل والطفلة بين ذراعيه يحدقان في جون ويقول له الرجل، ولم يكن جون قد ارتدى بنطلونه بعد «هاللو، من معنا؟»، وذلك أحد التعبيرات التي يستخدمها الإنجليز، كرجال الشرطة مثلا لدى القبض على أحد الأشخاص متلبسا بجريمته.

وكان يمكن لـ فيونا أن تشرح الموقف، ولكنها آثرت ألا تفعل، وبدلا من ذلك تنظر إليه ببرود واضح، وهي في أحضان والدها، نفس البرود ونفس الاستغراب كوالدها.

«أنا هنا أخدم شقة السيدة مرينجتون أثناء غيابها».

ويرد الرجل قائلا: «آه نعم، الجنوب أفريقي، لقد نسيت، دعني أقدم نفسي: أنا ريتشارد مرينجتون، وكنت أنا رب البيت هنا، كيف الأحوال؟ وهل أنت مستقر هنا؟

«نعم، كل شيء على ما يرام».

«حسنا».

وتظهر ثيودورا حاملة بالطو الطفلة، وحذاءها، وتنزل الطفلة من بين ذراعي والدها، ويقول لها: «اذهبي إلى الحمام قبل أن

نخرج بالسيارة»، وتخرج ثيودورا والطفلة، ويبقى جون مع الرجل الأنيق الذي أصبح ينام الآن في سريره.

ويسأل الرجل: «إلى متى تنوي أن تبقى هنا؟».

«حتى نهاية هذا الشهر فقط».

«أنا أقصد إلى متى ستبقى في هذا البلد؟».

«إلى مالا نهاية، لقد تركت جنوب أفريقيا إلى الأبد».

«الأحوال سيئة للغاية هناك، أليس كذلك؟».

«نعم».

«حتى بالنسبة إلى البيض؟».

ولم يشأ جون أن يرد على مثل هذا السؤال، ألا تريد أن تتحاشى الموت من الخزي والعار؟ ألا تريد أن تتجنب الكوارث والنكبات؟ لماذا تبدو العبارات القوية غير مناسبة في هذا البلد؟

ويرد جون قائلا: «نعم على الأقل أعتقد ذلك».

ويقول الرجل: «لقد ذكرني كلامك بشيء»، ثم يمشي في الغرفة متجها إلى مجموعة أسطوانات ويقلبها ويختار منها ثلاثا.

وهذا بالضبط ما حذرته منه السيدة مرينجتون، ولذلك يقول للرجل: «السيدة مرينجتون طلبت مني بالتحديد...».

ورفع الرجل رأسه وقال له: «ماذا طلبت منك ديانا بالتحديد؟».

«ألا أسمح بخروج أي شيء من الشقة».

«هذا كلام فارغ، هذه أسطواناتي، وهي لا تستفيد منها»، ويستأنف الرجل بحثه عن الأسطوانات ببرود، ويأخذ المزيد منها قائلا: «إذا لم تصدقني اتصل بها هاتفيا».

وتعود الطفلة إلى الغرفة، متثاقلة الخطوات في حذائها الثقيل، ويسألها والدها: «أمستعدة يا حبيبتي؟»، ويضيف موجها كلامه إلى جون قائلا: «آمل أن يسير كل شيء على ما يرام»، ثم يوجه كلامه إلى ثيودورا قائلا: «لا تقلقي، سنعود قبل موعد الحمام»، ثم يحمل ابنته والأسطوانات ويخرج.

الفصل السادس عشر

يصله خطاب من أمه تخبره فيه أن أخاه اشترى سيارة ماركة MG من صاحبها بعدما أصيبت في حادث، ويقضي كل وقته في إصلاحها بدلا من أن يهتم بدراسته، كما أن له أصدقاء جددا لم يعرفها بهم، أحدهم تبدو عليه ملامح الصينيين، وأصدقاؤه يجلسون معه في الكراج ويدخنون، وهي تخشى أن يكونوا يتناولون الخمر في الكراج، ولذلك فإن أمه قلقة عليه، فأخلاقه تتدهور ولا تعرف كيف تنقذه.

ومن جهته يظن جون أنه تعرض لمكيدة، فأخيرا بدأ أخوه يتحرر من قبضة أمه، ولكن يا لها من طريقة غريبة اختارها من أجل ذلك وهي ميكانيكا السيارات! ولكن هل يعرف أخوه فعلا كيف يصلح السيارات؟ وأين تعلم ذلك؟ لقد كان يظن دائما أن جون أفضل منه في استعمال يديه ولديه موهبة ميكانيكية. فهل كان مخطئا في ذلك على طول الخط؟ ترى، ماذا يضمر أخوه؟ ومن الأخبار الأخرى التي ذكرتها أمه في خطابها أن ابنة عمه «إيلزيه» وصديقة لها ستصلان إلى إنجلترا قريبا في طريقهما لقضاء عطلة في مخيم في سويسرا، فهل هو على استعداد للقيام بجولة معهما في لندن؟ وتعطيه عنوان بيت الشباب الذي ستنزلان فيه بمنطقة «إيرلز كورت».

ويصاب جون بالدهشة؛ لأنه على رغم كل ما قاله لأمه فإنها لا تزال تظن أنه يريد استمرار علاقته بمواطنين من جنوب

أفـريقـيـا وخـاصـة أسـرة أبيـه. وهو لم ير إيلزيه منذ أن كـانا طفلين، ويتسـاءل جون: ما الصـفة المشتركة التي تجمعه بفتاة ذهبت إلى المدارس العادية، وأفضل طريقة في نظرها لقضاء عطلة في أوروبا (لا شك في أن والديها تحمـلا نفقـاتها) هي التجـول في أنحاء سويسـرا، البلد الذي لم ينجب في تاريخه الطويل فنانا عظيما واحدا.

ولكن الآن وبعد أن ذكر اسمها، لا مفر من أن تبقى في مخيلته، فهو يتذكرها طفلة ممشوقة القوام سريعة الخطوات، ذات شعر طويل أشقر تضمه في مؤخرة رأسها على شـكل ضفيرة. ولكـن لا شك في أنها الآن قد تجاوزت الثامنة عشرة من عمرها، تُرى ما شكلها الآن؟ وهل جعل منها العيش في الخلاء - مهما كان قصيرا - فتاة جميلة؟ إذ إنه لاحظ ظاهرة متكررة بين الفتية والفتيات الصغار العاملين في المزارع، وهي أنهم في فصل الربيع يكونون في قمة نضارتهم وتوهجهم، وبعد انقضائه يفقدون ذلك الجمال ويصبحون نسخة طبق الأصل من ذويهم. وهل من الأفضل أن يرفض فرصة السير في شوارع لندن وبجواره فتاة طويلة من الجنس الآري؟

ويذهب جون إلى بيت الشباب في إيرلز كورت ويترك رسالة، وبعد بضعة أيام تصله مكالمة هاتفية من صديقة ابنة عمه، وهي تتحدث بلغة إنجليزية غير واضحة مع أخطاء لغوية، وتقول له إنها آسفة لأن لديها أخبارا سيئة، فإيلزيه أصيبت بإنفلونزا تطورت إلى التهاب رئوي وتعالج في مستشفى خاص بإيزواتر، ولذلك تأجل سفرهما إلى سويسرا لحين شفائها، ويزور جون إيلزيه في

المستشفى، وما إن يراها حتى يدرك ضياع كل آماله، فهي ليست جميلة ولا طويلة، بل مجرد فتاة عادية مستديرة الوجه وشعرها رمادي وتتهج عندما تتكلم. ويحييها جون من دون أن يقبلها خوفا من العدوى. وكانت صديقتها - واسمها ماريان - موجودة معها، وهي قصيرة وممتلئة وترتدي بنطلونا من القطيفة المضلعة وحذاء مرتفعا، وتبدو في صحة جيدة. ويتحدث معها لبعض الوقت بالإنجليزية، ثم ينتقل إلى لغة أسرتها وهي «الأفريكانز». وعلى رغم أنه لم يمارس الحديث بهذه اللغة منذ فترة طويلة، فإنه لم يجد صعوبة في ذلك.

وكان يظن أنه سيتمكن من إظهار معرفته بلندن أمام «إيلزيه» و«ماريان»، ولكن لندن التي يريدان زيارة معالمها غير لندن التي يعرفها هو، إذ لا يعرف شيئا عن متحف الشمع (مدام توسو) أو برج لندن أو كنيسة القديس بولس، كما لا يعرف كيف الوصول إلى «ستراتفورد أون إيفون» (مدينة شكسبير)، وأما الأشياء الوحيدة التي يمكنه أن يحدثهما عنها فهي دور السينما التي تعرض أفلاما أجنبية، وأفضل المكتبات، ولكنهما لا تهتمان بذلك.

وتعالج إيلزيه بالمضادات الحيوية، وسيستغرق علاجها بضعة أيام، بينما ماريان ليست مرتبطة أو مشغولة بأي عمل، ويقترح عليها جون القيام بنزهة بمحاذاة نهر التايمز، ولكن يرى جون أنها - وهي القادمة من فيكسبورج - قد تبدو غريبة بحذائها الرياضي وقصة شعرها غير الحديثة وسط فتيات الطبقة الراقية في لندن، ولكنها لا تهتم بذلك. كما لا تهتم إذا سمعها الإنجليز وهي تتحدث بالأفريكانز، ولكنه ينصحها بأن تخفض

صوتها، لأن الحديث بهذه اللغة يشبه الحديث بلغة النازي، إذا كان يوجد مثل هذه اللغة.

وقد أخطأ جون في تقرير سن إيلزيه وماريان، فهما ليستا طفلتين، فإيلزيه في العشرين وماريان في الحادية والعشرين وكلتاهما في السنة النهائية في جامعة ولاية «ورانج فري»، وتدرسان الخدمة الاجتماعية. ولم يعبر عن رأيه في الخدمة الاجتماعية التي لا تستحق أن تكون موضوع دراسة جامعية لأنها تهتم بمساعدة المسنات في شراء لوازمهن. وأما ماريان فلم تسمع أبدا عن برمجة الكمبيوتر، ولا تهتم بمعرفة أي شيء عنها، ولكنها تسأله متى سيعود إلى جنوب أفريقيا؟ ويرد قائلا: إنه لا يعرف، وربما لن يعود أبدا.

ألست قلقة بسبب الاتجاه الذي تسير به الأمور في جنوب أفريقيا؟ ولكنها تهز رأسها دليلا على عدم موافقتها على ما يقول، إذ إن جنوب أفريقيا ليست سيئة بالصورة التي تصورها بها الصحف البريطانية، ويمكن للسود والبيض أن يعيشوا جنبا إلى جنب في سلام لو تركوا وحدهم. وعلى أي حال فهي لا تهتم بالسياسة.

ويدعوها جون إلى مشاهدة فيلم Bande a part للمخرج الفرنسي جودار بسينما إفريمان، الذي سبق أن شاهده عدة مرات، ولكنه لم يمل من مشاهدته، خاصة أنه من بطولة «أنا كرنينا» التي وقع في حبها كما سبق أن وقع في حب «مونيكا فيتي» قبل سنة. ونظرا إلى أن الفيلم ليس من الأفلام الجيدة ثقافيا، إذ هو مجرد قصة عن عصابة من المجرمين الهواة غير

المتمرسين في الإجرام، لذلك كان يتوقع أن تستمتع «ماريان» بالفيلم، ولكن ليس من طبيعتها الشكوى، فطوال الفيلم كانت تتململ ضجرا، وعندما كان يختلس النظر إليها، كانت تنظر إلى أظافر يديها ولا تتابع الفيلم، وبعد انتهاء الفيلم يسألها: هل أعجبها؟ فترد قائلة: إنها لم تفهمه لأنها لم تتعود على قراءة الترجمة على الأفلام. وتستمر العلاقة العاطفية مع ماريان، لكنه كان يعاملها معاملة قاسية من دون أن تدري لذلك سببا غير أنه ذات مرة تحرش بها، ولهذا توقفت عن لقائه.

وبصوت مكتوم يتصل جون ببيت الشباب في إيرلزكورت، ويطلب التحدث مع ابنة عمه، ولكن يقال له إنها وصديقتها غادرتا البيت، ويضع سماعة الهاتف وهو يشعر بارتياح، فهما الآن في أمان وليس في حاجة إلى مواجهتهما مرة أخرى.

وتبقى قضية مهمة، وهي حادث تحرشه بماريان (أي معاملته السيئة لماريان)، وأين يضعه في سياق قصة حياته، ومما لا شك فيه أنه تصرف بصورة غير مشرفة كأي إنسان خسيس ونذل ودنيء، ويستحق صفعة بل بصقة على وجهه، وإذا لم يجد أحدا يفعل ذلك، فسيتولى هو هذه المهمة بنفسه وسيكون جزاؤه عقاب نفسه، وفي المقابل يأمل أن تتوقف قصة سلوكه الحقير عند هذا الحد، ولا تخرج إلى الملأ. ولكن ماذا ستكون النتيجة لو خرجت هذه القصة إلى الملأ في النهاية؟ وهو ينتمي إلى عالمين منعزلين تماما أحدهما عن الآخر، ففي عالم جنوب أفريقيا ليس سوى شبح وخيط رفيع من الدخان يتناقص بالتدريج إلى أن يختفي. وأما في لندن فهو غير معروف، وهذا أمر جيد وقد بدأ يبحث

عن مسكن جديد، وسيقطع علاقته بثيودورا وأسرة مرينجتون، ويغرق في بحر النسيان.

ولكن قصته تحمل ما هو أكثر من العار، فقد قدم إلى لندن لاستكشاف الأعماق، وهذا أمر مستحيل في جنوب أفريقيا، ومن دون النزول إلى الأعماق لا يمكن أن يكون الإنسان فنانا، ولكن ما الأعماق بالضبط؟

لقد كان يظن أن السير في الشوارع المغطاة بالثلج، وقلبه يعاني الوحدة، يعني الفوضى في الأعماق. ولكن ربما تكون الأعماق الحقيقية مختلفة وتأتي في أشكال غير متوقعة، مثل الاعتداء على فتاة في الساعات المبكرة من الصباح. وربما تكون الأعماق التي يريد أن يستكشفها ويسبر غورها موجودة بداخله ومحبوسة في صدره طوال الوقت: أعماق البرود وغلظة القلب والسفالة. وهل إطلاق العنان لشهواته، ثم معاقبة النفس بعد ذلك كما يفعل الآن، يؤهلانه لأن يكون فنانا؟

وكان يظن أن قصته مع ماريان انتهت تماما وأصبحت شيئا من الماضي، ولكنه اكتشف أن ذلك ليس صحيحا، إذ يصله خطاب عليه خاتم بريد مدينة لوسرن (سويسرا)، وعلى الفور يفتحه ويجد أنه مكتوب بلغة الأفريكانز ويبدأ في قراءته: «عزيزي جون: وجدت من الضروري أن أخبرك أني وماريان بخير. وهي لم تفهم في البداية لماذا لم تتصل بنا هاتفيا، ولكنها سرعان ما تحسنت حالتها النفسية، ونحن نقضي أوقاتا جميلة. وهي لا ترغب في الكتابة إليك، ولكني على أي حال رأيت أن أكتب إليك على أمل ألا تعامل كل الفتيات بمثل هذه الطريقة، حتى في لندن. وماريان

إنسانة متميزة، لا تستحق منك مثل هذه المعاملة. يجب أن تغير أسلوب حياتك، ابنة عمك إيلزيه».

ماذا تقصد بقولها حتى في لندن؟ هل معنى ذلك أنه تصرف بطريقة مخزية حتى بمعايير لندن؟ وماذا تعرف إيلزيه وصديقتها عن لندن ومعاييرها وهما القادمتان حديثا من قفار ولاية فري اورانج؟ وهو يريد أن يقول: إذا بقيتما في لندن لبعض الوقت، بدلا من الهروب إلى المروج الخضراء، ستكتشفان ذلك بأنفسكما، لكنه لا يعتقد أن الخطأ في لندن، فقد قرأ هنري جيمز وعرف كيف أنه من السهل أن يكون الإنسان سيئا ولا يحرك ساكنا، بينما أسوأ ما فيه يخرج من داخله.

وأصعب جزء في الرسالة وأشده إيلاما هو بدايتها ونهايتها، فبدايتها (عزيزي جون) ليست الطريقة التي تخاطب بها أحد أفراد الأسرة ولكن نخاطب بها الغرباء، ونهايتها ابنة عمك إيلزيه جعلتا جون يفكر كيف تتمكن فتاة ريفية من تسديد مثل هذه الطعنة الشديدة له.

"وحتى بعد أن مزق جون الخطاب ظل يؤرقه لعدة أيام وأسابيع، ليس بسبب الكلمات والعبارات الواردة فيه، ولكن لأنه اعتبر أنه كان أحمق لمجرد فتح الظرف وقراءة الرسالة، على رغم أنه عرف من طابع البريد السويسري وخط اليد الطفولي المدون على الظرف من تكون المرسلة! وهل كان يتوقع آيات الشكر والثناء؟

وجون لا يحب الأخبار السيئة، خاصة إذا كانت تتعلق به، وهو يقول لنفسه: أنا قاس على نفسي ولست في حاجة إلى مساعدة الآخرين. وهذه سفسطة يلجأ إليها بين الحين والآخر لصم أذنيه

عن النقد. وقد استفاد منها عندما عبّرت جاكلين، من منظور امرأة في الثلاثين، عن رأيها فيه كعاشق، والآن بمجرد أن تنطفئ العلاقة العاطفية ينسحب. وهو يكره مناظر العنف وثورات الغضب والهيجان، والآراء الصريحة والحقيقة العارية في البيت (أتريد أن تعرف رأينا الصريح فيك وفي حقيقتك؟)، ويحاول تجنبها بمختلف الطرق. ولكن ما الرأي الصريح فيه على أي حال؟ وإذا كان هو لغزا بالنسبة إلى نفسه، فهل سيكون شيئا آخر بالنسبة إلى غيره؟ وهناك مبدأ هو مستعد لأن يتفق عليه مع النساء اللاتي يظهرن في حياته، ألا وهو إذا قمن بمعاملته كلغز فسيعاملهن ككتاب مغلق. وعلى هذا الأساس وحده يمكن أن تقوم علاقة بين الطرفين.

وهو ليس إنسانا أبله، وسجله في الحب فاشل، وهو يعلم ذلك، إذ لم ينجح أبدا في إثارة ما يطلق عليه «عواطف ملتهبة» في قلب أي امرأة، وإذا كان لم ينجح في إقامة علاقة عاطفية فالذنب ذنبه والخطأ خطؤه، فما دام يفتقر إلى القلب الولهان، فكيف ينتظر من الفتيات أن يبادلنه الحب؟.

وهو يفضل باوند من بين جميع الكتاب الذين يثق بهم، فكتاباته حافلة بالتعبير عن لوعة الحب وحرارة الشوق والعاطفة الجياشة، ولكنها عاطفة صحيحة وغير مضطربة. ولكن ما سر رصانة باوند واتزانه في عواطفه؟ وهل صحيح أنه لا يشعر بالذنب لأنه يؤمن بآلهة الإغريق وليس بالدين اليهودي؟ أم السبب في ذلك أنه غارق في روائع الشعر لدرجة أن جسده منسجم ومتناغم مع عواطفه، وهي خاصية سرعان ما تصل إلى قلب المرأة؟ أم هل يكمن سر

باوند على العكس من ذلك - في مجرد رشاقة وسرعة حركة في الحياة بسبب نشأته الأولى في أمريكا وليس بسبب الآلهة أو الشعر، الأمر الذي ترحب به المرأة كعلامة على أن الرجل يعرف ما يريد، وأنه بشكل حازم وودي في الوقت نفسه سيحدد مصير علاقته بها؟ وهل هذا ما تريده المرأة - أي أن تكون منقادة - كما هي الحال في صالات الرقص حيث يطلب الرجل امرأة لترقص معه فتستجيب له؟

وتفسيره هو لفشله في الحب، بعد أن أصبح كبيرا ولم يعد موضع ثقة، هو أنه لم يلتق بالمرأة المناسبة بعد. والمرأة المناسبة في نظره هي التي تخترق السطح المعتم، وتغوص في أعماقه وتحرك العواطف الحارة المكبوتة داخله. وإلى أن يأتي ذلك اليوم، سيظل يقضي وقته كيفما كان، ولهذا السبب ينسى ماريان.

وهناك سؤال لا يزال يلح عليه وهو: هل تلك المرأة المناسبة - إن وجدت - ستحرك فيه أيضا إلهام الشعر، أم على العكس عليه هو أن يجعل من نفسه شاعرا، وبالتالي يثبت أنه جدير بحب المرأة؟ وهو يتمنى أن يكون السؤال الأول صحيحا، ولكنه يشك في ذلك، إذ كما وقع عن بعد في حب إنجبورج باخمان بطريقة ما وأنا كارنينا بطريقة أخرى، فإن حبيبته الموعودة يجب أن تعرفه من خلال أعماله ومؤلفاته، وأن تقع في غرام فنه قبل أن تكون من الحماقة بحيث تقع في غرامه هو.

الفصل السابع عشر

يصله خطاب من البروفيسور هوارث المشرف على رسالة الماجستير في جامعة كيب تاون، يطلب منه القيام ببعض المهام الأكاديمية الشاقة، إذ هو مشغول في الوقت الحاضر بإعداد دراسة عن تاريخ حياة الكاتب المسرحي «جون ويبستر»، الذي عاش في القرن السابع عشر، ويطلب منه نسخ بعض القصائد المحفوظة على هيئة مخطوطات في المتحف البريطاني، التي ربما يكون كتبها ويبستر في شبابه، وكذلك نسخ أي قصيدة موقعة بالحرفين W - I قد تنسب إليه.

وقد عثر جون على القصائد المطلوبة، ووجدها ليست ذات قيمة عالية، ولكنه مسرور من تكليف الأستاذ له بهذه المهمة، مع ما ينطوي عليه ذلك من تمكنه من معرفة مؤلف «دوقة مالفي» من خلال أسلوبه في الكتابة فقط، وقد تعلم جون من إليوت أن الناقد الجيد هو الذي يميز الفروق الدقيقة بين الكتاب، كما تعلم من باوند أن الناقد يجب أن يميز صوت الأستاذ الحقيقي من وسط الجلبة والضوضاء. وإذا كان جون لا يعرف العزف على البيانو، فهو يميز بين باخ وتيلمان، وبين هايدن وموتزارت، وبين بيتهوفن وسبوز، وبين بروكنر ومالر، وإذا كان لا يعرف كيف يؤلف الموسيقى، فإن إليوت وباوند سيقران بأن له أذنا موسيقية، والسؤال الذي يطرح نفسه هو: هل فورد الذي يقضي في دراسته وقتا طويلا هو أستاذ حقيقي؟ لقد رفع باوند فورد إلى مستوى

الوريث الوحيد في إنجلترا لهنري جيمز وفلوبير، ولكن لو كان باوند قرأ جميع أعمال فورد، فهل كان سيغير رأيه؟ وإذا كان فورد كاتبا بارعا، فلماذا توجد بعض الأعمال التافهة له إلى جوار رواياته الخمس الجيدة؟

وكان من المفترض أن يكتب عن القصص والروايات التي ألفها فورد، لكنه وجد أن إنتاجه الأقل قيمة في هذا المجال غير مثير للاهتمام بقدر كتبه التي ألفها عن فرنسا، إذ وجد فورد أن أسعد أيامه هي تلك التي يقضيها بجوار امرأة جميلة في بيت تدخله الشمس في جنوب فرنسا، مع شجرة زيتون مزروعة أمام الباب الخلفي، وخمور معتقة في القبو. ويرى فورد أن بروفانس هي مهد كل ما هو جميل وشاعري وخيالي وإنساني في الحضارة الأوروبية، كما أن نساء بروفانس بعواطفهن الملتهبة، ووجوههن التي تشبه النسر، يتفوقن على كل نساء الشمال.

ولكن هل يمكن أن نأخذ كلام فورد مأخذ الجد؟ وهل سيتمكن هو نفسه من رؤية بروفانس ذات يوم؟ وهل ستلتفت نساء بروفانس إليه على رغم بروده العاطفي الواضح؟

يقول فورد: إن السر في رقة حضارة بروفانس وجمالها يعود إلى اتباع أهلها نظاما غذائيا يعتمد على الأسماك وزيت الزيتون والثوم، وفي السكن الجديد الذي انتقل إليه جون في هايجيت. واحتراما لفورد ومراعاة لما ذكره، يشتري جون أصابع السمك، بدلا من النقانق، ويقليها في زيت الزيتون بدلا من الزبد، ويرش عليها مسحوق الثوم.

وأصبح من الواضح الآن أن الرسالة التي يكتبها جون لن تتضمن شيئا جديدا عن فورد، ولكنه لا يريد أن يتخلى عن الدراسة، ولا يريد أن يكون مثل والده في عدم وفائه بتعهداته والتزاماته، ولذلك يبدأ في التخلص من مئات الصفحات التي يكتبها بخطه الصغير ويلخصها في صفحات قليلة، وعندما يكون في قاعة المطالعة العظيمة، يشعر في بعض الأحيان بشدة الإرهاق والملل، لدرجة أنه لا يستطيع الاسترسال في الكتابة، ويمنح نفسه ترف تصفح الكتب التي تتناول تاريخ جنوب أفريقيا، والتي لا توجد إلا في المكتبات الكبرى، وهي مذكرات شخصيات زارت منطقة الكيب، مثل «درابر»، و«كولبيه»، و«سبارمان» و«بارو»، و«بورتشيل»، نشرت في هولندا أو ألمانيا أو إنجلترا منذ قرنين، ويشعر جون بالانقباض، إذ هو جالس في لندن يقرأ عن شوارع مثل «فالسترات» و«بويتنجراخت»، و«بوتسنجل»، التي طالما سار فيها وحده من بين جميع القراء الذين يجلسون حوله ورؤوسهم منكبة على الكتب. كما تأسره الروايات الخاصة بمدينة كيب تاون القديمة، وقصص المستكشفين الذين توغلوا في داخل البلاد وفي صحراء «كارو»، العظيمة، وهم يركبون عربات تجرها الثيران ويسيرون لأيام طوال من دون أن تقع أعينهم على بشر، وهو يقرأ عن مناطق في وطنه الذي يحبه، مثل «داياكا»، و«رفارتبرج» و«ليوفريفيير».

هل بدأت الوطنية تؤرقه وتشعره بالأسى؟ هل يثبت بنفسه أنه لا يستطيع أن يعيش بلا وطن؟ وبعد أن نفض عن نفسه غبار جنوب أفريقيا الجديدة والقبيحة، فهل بدأ يشعر بحنين إلى

جنوب أفريقيا في السنين الغابرة عندما كانت كالفردوس الجميل، وهل يشعر هؤلاء الإنجليز الجالسون حوله كما يشعر هو بأوتار قلبه ترقص، ومشاعره الدفينة تتحرك كلما جاء ذكر جبل «رايدال» أو شارع «بيكر» في أحد الكتب؟ هو يشك في ذلك، فهذا البلد، وهذه المدينة الآن ترين على تراث كتب عمرها عدة قرون، ولا يجد الإنجليز من المستغرب أن يسيروا في أعقاب «تشوسر» و«توم جونز».

ولكن جنوب أفريقيا مختلفة، فلولا هذه المجموعة الصغيرة من الكتب ما كان يتأتى له أن يعرف أي شيء عن منطقة كارو في الماضي، ولهذا السبب، فإنه ينكب على قراءة ما كتبه «بورتشيل» على وجه الخصوص في مجلدين ضخمين، وقد لا يكون «بورتشيل» بارعا في الكتابة مثل «فلوبير» أو «جيمز»، ولكنه كتب عن أشياء وقعت بالفعل، فقد جرته ثيران حقيقية مع حقائبه الممتلئة بعينات من النباتات، ونقلته من محطة إلى أخرى من منطقة كارو العظيمة، كما أن نجوما حقيقية تلألأت فوق رأسه هو ورجاله أثناء نومهم، ومجرد التفكير في ما قام به بورتشيل، يصيبه بالدوار، وقد يكون بورتشيل ورجاله ماتوا، وقد تكون عرباتهم يعلوها الغبار، إلا أن أعمالهم لا تزال حية، ورحلاتهم كانت حقيقية، والدليل على ذلك كتابه «رحلات بورتشيل» الذي يحمله بين يديه، وخاصة النسخة الموجودة في المتحف البريطاني.

وإذا كان الكتاب المذكور قد أثبت أن الرحلات التي قام بها «بورتشيل» كانت حقيقية، فلماذا لا تدل الكتب الأخرى على أن الرحلات الأخرى - التي لا تزال حتى الآن افتراضية وخيالية -

كانت حقيقية؟ وهذا المنطق خاطئ طبعا، وعلى رغم ذلك، يريد جون أن يفعل هذا الشيء، أي أن يكتب كتابا مقنعا ككتاب «بورتشيل» ويضعه في هذه المكتبة التي هي أعظم مكتبة في الدنيا، ولكن إذا أراد أن يكون كتابه مقنعا، يجب أن يضع وعاء للرهن يربطه في العربة أثناء مرورها وسط أحجار كارو، وسيكون هو هذا الوعاء. وإذا كان من الضروري وجود حشرات صغيرة تصدر صوتا فوق الشجرة التي يستظلون تحتها عند الظهر، فسيكون هو هذه الحشرات، وبإمكانه تدبير الوعاء والحشرات، فهو واثق من ذلك، لكن المهمة الصعبة تكمن في إعطاء هذا العمل برمته هالة تشع منه في أثناء وجوده على أرفف المكتبات، وبالتالي على امتداد تاريخ العالم، ألا وهي هالة الحقيقة.

وما يتأمله ويفكر فيه ليس تزييفا للواقع، إذ سبق لأناس أن نهجوا هذا السبيل، إذ تظاهروا بأنهم وجدوا في صندوق موضوع في غرفة علوية في بيت ريفي دفترا اصفرت أوراقه وأثرت فيه الرطوبة بفعل الزمن، يصف الرحلات الاستكشافية التي جرت في بلاد التتار، أو في أعماق أراضي المغول، وهو لا يهتم بمثل هذا الخداع، فالتحدي الذي يواجهه أدبي محض، وهو تأليف كتاب يتناول العصر الذي عاش فيه «بورتشيل»، وهو عشرينيات القرن التاسع عشر، لكن استجابته للعالم من حوله ستكون حية، وتختلف عن بورتشيل، لأنه على رغم ما كان يتميز به من حيوية وذكاء وحب استطلاع ورباطة جأش،فإنه كان في النهاية إنجليزيا في بلد أجنبي وعقله مشتت بين الاستكشاف وتفكيره في موطنه في بميروكشاير وأخواته اللاتي تركهن هناك.

ولذلك، يجب أن يدرب نفسه على الكتابة كما لو كان معاصرا لتلك الحقبة، ولكنه يحتاج قبل ذلك إلى أن يعرف أقل مما يعرفه الآن، وأن ينسى بعض الأشياء، وعليه أن يحدد ما الذي يجب أن ينساه. وقبل أن يعرف أقل يجب أن يعرف أكثر، ولكن أين يجد المعلومات التي يبحث عنها، إذ لم يسبق له أن تدرب كمؤرخ؟ وعلى أي حال فإن ما يبحث عنه ليس موجودا في كتب التاريخ، لأنه يتناول الحياة اليومية في الماضي وأشياء دنيوية شائعة كالهواء الذي نتنفسه، وأين سيجد معلومات عامة عن منطقة ما في الماضي البعيد، معلومات قد يعتبرها البعض، لفرط بساطتها، لا تستحق أن تسمى معلومات؟

الفصل الثامن عشر

وتتسارع الأحداث... وعلى المنضدة الموجودة بمدخل المنزل يجد ظرفا أصفر مرسلا له من جهة حكومية، ويأخذه إلى غرفته وقلبه ينبض بشدة، ويجده من وزارة الداخلية تبلغه فيه أنه يتعين عليه تجديد تصريح عمله في غضون واحد وعشرين يوما، وإلا ستلغى إقامته في المملكة المتحدة، وتطلب منه التوجه إلى وزارة الداخلية بطريق «هولوواي» في أي يوم عمل بين الساعة التاسعة صباحا والثانية عشرة والنصف ظهرا، أو بين الواحدة والنصف بعد الظهر والرابعة عصرا، على أن يصطحب معه جواز سفره وصورة من نموذج ١٤٨ موقعا عليه من صاحب العمل.

واكتشف جون أن IBM خانته وأبلغت وزارة الداخلية أنه ترك العمل لديها، ويفكر جون فيما يجب أن يفعله، ولديه مبلغ من المال يكفيه لشراء تذكرة إلى جنوب أفريقيا، ولكنه لا يتصور أن يظهر في كيب تاون من جديد مهزوما ككلب يضع ذيله بين رجليه. وما الذي يربطه بكيب تاون أو يمكن أن يفعله فيها، هل يعود إلى التدريس في الجامعة؟ وإلى متى؟ وهو الآن تجاوز السن التي يسمح له فيها بالحصول على منحة دراسية، والتي سينافسه فيها طلبة أصغر منه وأكثر تفوقا. والحقيقة المؤكدة هو أنه لو عاد إلى جنوب أفريقيا فمن المستحيل أن يهرب منها مرة أخرى، وسيصبح مثل باقي الناس الذين يتجمعون على شاطئ كليفتون في المساء لشرب النبيذ وتذكر الأيام الخوالي في «إيبيزا».

ولكي يظل في إنجلترا فليس أمامه سوى طريقين: إما أن يتحامل على نفسه ويحاول العمل في التدريس، وإما أن يعود للعمل مبرمج كمبيوتر.

وهناك خيار ثالث، وإن كان افتراضيا هذه المرة، إذ بإمكانه أن يترك سكنه ويذوب وسط الجماهير، يمكنه التنقل في المواصلات بمنطقة كنت بالمجان (ليس في حاجة إلى أوراق رسمية في هذه الحالة). كما يمكنه العمل في مواقع المباني والإنشاءات، ويمكنه النوم في بيوت الشباب أو حظائر المواشي، ولكنه يعرف أن ذلك كله مستحيل، لأنه ليس لديه المقدرة أن يعيش مخالفا للقانون، إذ هو متشدد ويخشى أن يقبض عليه.

ويتصفح جون الإعلانات المنشورة ويجد فيها وظائف خالية كثيرة لمبرمجي الكمبيوتر، إذ تعاني إنجلترا نقصا في هذه الفئة. ومعظم الوظائف الشاغرة في أقسام الأجور والرواتب، ولكنه لا يهتم إلا بشركات الكمبيوتر في حد ذاتها، وهي المنافسة لشركة IBM، سواء كانت صغيرة أو كبيرة. وفي خلال بضعة أيام من تقديمه طلبا للعمل مبرمجا في شركة «إنترناشونال كمبيوترز»، تطلب منه الشركة حضور مقابلة، وينجح فيها ويقبل العمل فيها من دون تردد، وهو يكاد يطير فرحا، إذ وجد عملا من جديد، وهو الآن في أمان ولن يطرد من إنجلترا. ولكن هناك عيبا واحدا في العرض المقدم إليه، فالمقر الرئيس للشركة المذكورة في لندن، ولكن المكان الذي سيعمل فيه جون في الريف، في منطقة «بيركشاير». ولكي يصل إلى هناك عليه أن يركب مترو الأنفاق إلى محطة «واترلو»، ثم يركب القطار لمدة ساعة، ثم يركب باصا،

لذلك من المستحيل أن يعيش في لندن. وها هي قصة «روثامستيد» تعود من جديد.

والشركة المذكورة تقرض موظفيها مبلغا ليدفعوه مقدم ثمن لبيت متواضع، أي بجرة قلم سيصبح مالك بيت (جون مالك بيت؟!). ولكن في الوقت نفسه سيلتزم بسداد القرض العقاري الذي سيربطه بوظيفته لمدة من عشر إلى خمس عشرة سنة قادمة، وعندئذ سيكون رجلا عجولا، وبقرار واحد متسرع سيضيع كل حياته وكل فرصه في أن يكون فنانا. فالبيت الصغير الذي سيحصل عليه سيكون مجرد بيت في صف من عدة بيوت مبنية بالطوب الأحمر، وسيتوه في الطبقة الوسطى البريطانية، وكل ما يتبقى لاستكمال الصورة هو أن تكون له زوجة صغيرة وسيارة.

ويختلق جون لنفسه عذرا لعدم قبوله للقرض المخصص لشراء البيت، وبدلا من ذلك يستأجر شقة في الطابق العلوي ببيت يقع في أطراف المدينة. وصاحب البيت ضابط سابق في الجيش، ويعمل الآن سمسار عقارات، ويحب أن يناديه الناس بلقب «الميجور آركرايت». ويقوم جون بشرح ما هي وظيفة الكمبيوتر والبرمجة لصاحب البيت، وكيف أنها توفر مستقبلا مستقرا لمن يعمل فيها (متوقعا حدوث توسع كبير في هذه الصناعة)، ويطلق الميجور على جون على سبيل المداعبة والمزاح كلمة (عالم بحاثة). ويقول له: «لم يسبق أن سكن عالم في الطابق العلوي من قبل»، ويقبل جون هذه المداعبة من دون تذمر.

والعمل في شركة «إنترناشونال كمبيوترز» يختلف تماما عن العمل في شركة IBM، فبادئ ذي بدء هو ليس في حاجة إلى

ارتداء بدلته السوداء، وله مكتب خاص في غرفة على شكل كشك سابق التجهيز في الحديقة الخلفية للمبنى المخصص لمختبر الكمبيوتر، الذي يطلقون عليه «قصر الضيعة»، وهو عبارة عن مبنى قديم كثير الغرف والدهاليز، ويقع في نهاية ممر طويل تكسوه أوراق الشجر المتساقطة، وعلى بعد ميلين خارج «براكينل». ويبدو أن لهذا المبنى تاريخا، ولكن لا أحد يعرفه.

وعلى رغم أن المبنى يطلق عليه مختبر الكمبيوتر فلا يوجد كمبيوتر حقيقي فيه. ولاختبار البرنامج الذي يطلب منه إعداده يلزم الأمر أن يسافر إلى جامعة كامبريدج، التي تمتلك واحدا من أجهزة كمبيوتر «أطلس» الثلاثة الوحيدة الموجودة، والتي تختلف فيما بينها اختلافا بسيطا. وفي أول يوم عمل لجون وجد على مكتبه بطاقة صغيرة مكتوبا عليها أن كمبيوتر «أطلس» هو المنافس البريطاني لـ IBM. وما إن ينجح مهندسو ومبرمجو الشركة في تشغيل هذا الجهاز حتى يصبح أضخم كمبيوتر في العالم، أو على الأقل أضخم جهاز في السوق (القوات المسلحة الأمريكية لها أجهزة كمبيوتر خاصة بها غير معروف مدى قوتها، وربما القوات المسلحة الروسية أيضا). وسيسدد «أطلس» ضربة قوية لصناعة الكمبيوتر في بريطانيا لن تتعافى منها IBM قبل مرور عدة سنوات. وهذا هو بيت القصيد، وهذا ما جعل تلك الشركة تحشد هذا الجمع من المبرمجين الشبان المتميزين، الذين أصبح «جون» واحدا منهم في هذا المنتجع الريفي.

والشيء الذي يجعل «أطلس» متميزا وفريدا من نوعه بين أجهزة الكمبيوتر في العالم كله، هو أنه يمتلك نوعا من الإحساس

بالذات، فبين الحين والآخر - وكل عشر ثوان بل حتى كل ثانية - يختبر الكمبيوتر نفسه، ويسأل عن المهام التي يقوم بها، وما إذا كان يؤديها بكفاءة عالية، وإذا لم يكن الأمر كذلك يعيد تنظيم عمله ويؤدي المهام المطلوبة منه بطريقة أفضل، مما يوفر الوقت، فالوقت من ذهب.

وإحدى مهام جون تتمثل في كتابة تعليمات يتبعها الجهاز بعد انتهاء كل لفة للشريط الممغنط. ويسأل الجهاز نفسه هل يحتاج إلى لفة جديدة للشريط، أم يتوقف ويقرأ بطاقة مثقبة أو شريط ورق؟ وهل يكتب المخرجات التي تراكمت على شريط ممغنط آخر، أم يقوم بعدة عمليات برمجة؟ ويجب الإجابة عن هذه الأسئلة التزاما بمبدأ الكفاءة. وأمام جون الوقت الكافي الذي يحتاج إليه لإنجاز مهمته (ولكن من الأفضل ألا تزيد على ستة أشهر، لأن الشركة في سباق مع الزمن)، تلك المهمة الخاصة باختزال الأسئلة والإجابات على شكل رموز، واختبارها للتأكد من حسن صياغتها وسهولة قراءتها على الجهاز. وكل زميل من زملائه لديه مهمة وبرنامج عمل مماثل، وفي الوقت نفسه يعمل المهندسون بجامعة «مانشستر» ليل نهار لتحسين الأجهزة الإلكترونية، وإذا سارت الأمور على ما يرام سيبدأ إنتاج أطلس عام ١٩٦٥.

سباق مع الزمن، سباق ضد الأمريكان، هذا شيء يتفهمه، شيء يؤديه بكل صدق وإخلاص أكثر مما كان يعمل في IBM لتحقيق هدفها في جمع المزيد من الأموال. والبرمجة في حد ذاتها عملية ممتعة وتتطلب إبداعا عقليا، ولكي تؤدى على أكمل وجه تتطلب تمكنا من لغة «أطلس» ذات المستويين، ويذهب جون إلى عمله في

الصباح متطلعا إلى المهام التي تنتظره. ولكي يظل يقظا يحتسي كوبا بعد آخر من القهوة، ويصاب بالإرهاق ذهنيا وبدنيا، ولا يشعر بمرور الوقت لدرجة أنه يحتاج إلى من ينبهه للذهاب لتناول الغداء، وفي المساء يأخذ معه أوراقه إلى غرفته ويعمل عليها أثناء الليل.

ويقول لنفسه: «هذا ما كنت أعد نفسي له دون أن أعرف ما هو! وهذا ما تؤهل له دراسة الرياضيات!».

ويرحل الخريف ليحل محله الشتاء دون أن يدري - ولم يعد يقرأ الشعر، ويقرأ بدلا منه كتبا عن الشطرنج وعن مباريات أبطال الشطرنج ويقوم بحل المسابقات المنشورة في صحيفة «الأوبزرفر». ونومه متقطع، وأحيانا يحلم بالبرمجة وهي تتطور داخل نفسه، ويشاهدها باهتمام، ويتساءل هل سيصبح ذات يوم مثل هؤلاء العلماء الذين يقوم ذهنهم بحل المشكلات في أثناء نومهم؟!.

كما لاحظ شيئا آخر، وهو توقفه عن الإحساس باللهفة والحنين، فلم يعد يشغله البحث عن إنسانة جميلة وغامضة لا يعرفها تفجر عواطفه. ولا شك في أن ذلك يعود جزئيا إلى أن براكنيل لا يوجد بها فتيات مثل لندن، ولكنه يلاحظ صلة ما بين انتهاء الشوق والحنين وبين انتهاء الشعر. فهل معنى ذلك أنه في مرحلة النضج؟ وهل النضج يعني التخلص من الشوق واللهفة والحنين وقوة الروح؟

وجميع زملائه هم من الرجال دون استثناء، وهم ألطف من زملائه في IBM وأكثر حيوية، وربما أكثر مهارة بطريقة تشبه

المهارة في المدرسة. وهم يتناولون الغداء معا في المقصف الموجود بقصر الضيعة. والطعام جيد ويتكون من السمك والبطاطس المقلية والنقانق المحمرة مع بطاطس مهروسه وكرنب مع اللحم، وأما الحلوى فهي تورتة الراوند مع آيس كريم. والطعام يعجبه، ويمكن أن يطلب حصتين منه ويجعله الوجبة الرئيسية. وفي المساء لا يحتاج إلى طهو الطعام ويكتفي بتناول الخبز والجبن فوق رقعة الشطرنج.

ومن بين زملائه في العمل شخص هندي اسمه «جناباثي»، وهو كثيرا ما يتأخر في الحضور إلى العمل، بل لا يحضر بالمرة في بعض الأيام. وفي الأيام التي يوجد بها في الشركة لا يبدو عليه أنه يبذل مجهودا في عمله، بل يجلس واضعا قدميه على مكتبه كما لو كان يحلم. وإذا غاب عن العمل يقدم أعذارا واهية (كنت في وعكة صحية مثلا). ورغم ذلك لا يؤنبه أحد على غيابه، وعلم جون أن هذا الشخص ثروة متميزة بالنسبة إلى الشركة، فهو حاصل على درجة في علوم الكمبيوتر من إحدى الجامعات الأمريكية، وهو وجون الأجنبيان الوحيدان في المجموعة، وإذا سمحت الأحوال الجوية يخرجان معا للسير بعد الغداء في الأراضي الموجودة في محيط العمل. و«جناباثي» غير راض عن الشركة أو عن مشروع أطلس برمته، ويعتبر حضوره إلى لندن خطأ من جانبه، فالإنجليز - في رأيه - آفاقهم محدودة، وهو نادم على تركه أمريكا، ويسأل جون عن الأحوال في جنوب أفريقيا وعن فرصه في العمل هناك. ولكن جون لا يشجعه على السفر إلى جنوب أفريقيا، لأنها بلد غاية في التخلف، فضلا عن عدم

وجود أجهزة كمبيوتر بها. ولم يشأ أن يقول له إن الفرباء ليسوا موضع ترحيب هناك إلا إذا كانوا من البيض.

وتتعرض إنجلترا لموجة من المطر والعواصف الرعدية، ويتوقف «جناباتي» عن الحضور إلى العمل تماما، ونظرا إلى أن لا أحد يسأله عن السبب قرر جون أن يتحرى عن غيابه بنفسه، وعرف أن «جناباتي» أيضا رفض خيار ملكية بيت، ويعيش في شقة في الطابق الثالث في مجمع سكني تابع لمجلس المدينة، وعندما ذهب إلى شقته لم يفتح الباب إلا بعد طرق طويل، وكان يرتدي بيجامة وصندلا، وتنبعث من داخل الشقة حرارة ورائحة كريهة، ويقول لجون: «ادخل من البرد». وفي غرفة المعيشة لا يوجد أي أثاث سوى جهاز تلفزيون، وأمامه كرسي بمسندين ومدفأتين، وخلف الباب كومة من أكياس القمامة السوداء، يبدو أنها سبب الرائحة الكريهة التي تسبب الغثيان بعد غلق الباب، ويسأله جون لماذا لا يتخلص من تلك الأكياس فلا يرد، ولا يقول لماذا لا يذهب إلى العمل، ويبدو في الواقع أنه لا يرغب أن يتكلم نهائيا.

ويتساءل جون ما إذا كان معه فتاة بغرفة النوم من المنطقة نفسها، من أولئك الفتيات الصغيرات سليطات اللسان، اللاتي يعملن طباعات على الآلة الكاتبة أو عاملات في محلات تجارية، واللاتي يشاهدهن في الباص، أو ربما فتاة هندية؟ والآن يكتشف جون سبب غيابه المستمر: فتاة هندية صغيرة تعيش معه في البيت، ويمارس كتابة «تانترا» (السحرية / الروحية الهندية / البوذية)، ويفضل ذلك على كتابة رموز كمبيوتر لجهاز أطلس.

وعندما ألمح جون إلى رغبته في الانصراف هز «جناباثي» رأسه، وسأل: إذا كان يريد بعض الماء، ويقدم له كوبا من ماء الحنفية العادي، حيث نفد الشاي والقهوة من عنده، وكذلك الطعام، فهو لا يقوم بشراء أي طعام ما عدا الموز لأنه لا يطهو ولا يعرف طرق الطهو ولا يحبه، ومعظم القمامة تحتوي على قشر الموز، وكل ما يعيش عليه هو الموز والشيكولاتة والشاي، إن توافر، وهو غير راض عن أسلوبه في الحياة، ففي الهند كان يعيش مع أسرته في كنف أمه وأخواته. وأما في أمريكا فكان يعيش في سكن الطلبة الجامعيين بمدينة «كولبس» بولاية أوهايو، حيث كان الطعام يقدم في مواعيد منتظمة، وإذا شعر الطالب بالجوع بين الوجبات يمكنه شراء ساندويتش هامبورجر من مطعم مفتوح أربعا وعشرين ساعة يوميا، وموجود خلف السكن. ففي أمريكا كل شيء مفتوح على عكس الحال هنا في إنجلترا، البلد الذي ليس له مستقبل، والذي تتعطل فيه حتى أجهزة التدفئة، ولذلك يكرر أنه نادم على القدوم إليه.

ويسأل جون «جناباثي» ما إذا كان مريضا؟ ويرد عليه قائلا: لا تقلق على صحتي، فأنا أرتدي الروب دي شامبر للوقاية من البرد، هذا كل ما في الأمر. ولكن جون لا يقتنع وأخذ ينظر إليه نظرة جديدة على ضوء اعتماده في غذائه على الموز فقط، فهو هزيل ونحيل الجسم كالعصفور، مع قليل من اللحم يكسو عظامه، ووجهه نحيف، وإذا لم يكن مريضا فهو على الأقل يعاني نقص التغذية، انظر ياللعجب! في براكنيل وفي قلب المناطق المحيطة بلندن هناك رجل يكاد يموت جوعا، لأنه لا يعرف كيف يطعم نفسه.

ويدعو «جون» «جناباثي» لتناول الغداء معه في اليوم التالي، وشرح له كيفية الوصول إلى منزله. ويخرج جون بحثا عن محل يكون مفتوحا مساء السبت ويشتري لوازم الطعام، خبزا في كيس بلاستيك، ولحوما باردة وبازلاء خضراء مجمدة، ويعد الطعام بحيث تكون المأدبة جاهزة في ظهر اليوم التالي. وينتظر حضور جناباثي، ولكنه لا يحضر. ونظرا لعدم وجود هاتف في بيت جناباثي فلم يكن أمام جون مفر من حمل الطعام إليه في منزله. وهذا تصرف سخيف من جانب جناباثي، لأنه يريد أن يأتي الطعام إليه حيث هو موجود. ولكن يبدو أنه مثل جون ولد فاسد، وهرب من أمه ومما توفره له وتغمره به من وسائل الراحة. ولكن في حالة جناباثي يبدو أن الهرب استنفد كل طاقته، وهو الآن في حاجة إلى من ينقذه كأمه، أو أي شخص آخر مثلها، وإلا سيكون مصيره الانهيار والموت في شقته المليئة بالقمامة.

وكان ينبغي على شركة إنترناشونال كمبيوترز أن تعرف الحالة التي يعيش عليها جناباثي، فهو مكلف بمهمة رئيسية في الشركة، وهي وضع المنطق الخاص بالجداول وتعليمات العمل، وإذا انهار جناباثي تعطل مشروع «أطلس» برمته. ولكن أنّى للشركة أن تعرف سر علة جناباثي؟! كيف يمكن لأي شخص في إنجلترا أن يتفهم الأسباب التي تجعل الناس يأتون من مشارق الأرض ومغاربها ليموتوا في جزيرة تعيسة يغطيها المطر، ويبغضونها ولا يربطهم بها شيء؟

وفي اليوم التالي يظهر «جناباثي» جالسا أمام مكتبه كالمعتاد، ولا يقدم لجون أي كلمة اعتذار أو تفسير لعدم حضوره في

الموعد. وفي أثناء الغداء في المقصف تبدو عليه الفرحة والابتهاج، فقد اشترى مائة تذكرة يانصيب، جائزة من يفوز فيها سيارة موريس ميني، ماذا عساه يفعل بالمرتب الضخم الذي يتقاضاه من الشركة؟ وقال لجون إنه لو فاز بالسيارة فسيتوجهان فيها إلى كامبريدج لاختبار البرنامج بدلا من ركوب القطار، أو يمكنهما السفر إلى لندن وقضاء يوم فيها.

ويتساءل جون هل هناك جانب لم يفهمه في «جناباثي» نابع من طبيعته كشخص هندي؟ هل ينتمي إلى طائفة من المحرم عليها تناول الطعام في بيوت الغربيين؟ وإذا كان الأمر كذلك فلماذا يتناول السمك والبطاطس المقلية في المقصف؟ وهل كان من الواجب أن تكون الدعوة للغداء بشكل رسمي وبتأكيدها خطيا؟ وهل كان يقصد بعدم حضوره إعفاءه من الحرج المتمثل في قدوم ضيف على بابه قام بدعوته دون سابق تفكير؟ وعندما دعا «جون» «جناباثي» هل أعطاه انطباعا أنها ليست دعوة حقيقية بل مجرد تلميح بدعوة؟ وأن الأدب كان يقتضي أن يفهم جناباثي ذلك التلميح دون أن يكلف جون عبء إعداد الوليمة؟ وهل الوجبة المشؤومة (لحوم باردة وبازلاء مسلوقة مع زبده)، التي كان من المفروض أن يتناولاها لها القيمة نفسها في العلاقة القائمة بينهما مثل نوع الوجبة نفسها التي تقدم وتؤكل بالفعل؟ وهل ستستمر هذه العلاقة كما كانت من قبل، أم ستتغير إلى الأحسن أم إلى الأسوأ؟

وسبق أن سمع جناباثي عن «ساتياجيت راي»، لكنه لم يشاهد أيا من أفلامه، ويقول إن شريحة صغيرة من الجمهور الهندي

تقبل على مثل هذه الأفلام، إذ هم عموما يفضلون الأفلام الأمريكية، لأن الأفلام الهندية لا تزال بدائية للغاية، وجناباتي هو أول شخص يعرف جون أكثر من مجرد معرفة سطحية - إذا اعتبرنا كلمة معرفة هي عبارة عن لعب شطرنج وحديث عن مزايا أمريكا مقابل إنجلترا - والزيارة المفاجئة التي قام بها إلى شقته، وكان من الممكن أن يرتفع مستوى الحديث لو كان «جناباتي» إنسانا مثقفا وليس مجرد شخص ماهر، ويندهش جون أن هناك أشخاصا مهرة يعملون في صناعة الكمبيوتر، ومع ذلك ليست لهم اهتمامات خارجية سوى السيارات وأسعار المنازل. وكان يظن أن النفور من الثقافة الرفيعة يتجسد في الطبقة الوسطى الإنجليزية، ولكن «جناباتي» ليس أفضل حلا.

وهل هذه اللامبالاة تجاه العالم نتيجة كثرة التعامل مع الآلات بما يعطي مظهر التفكير؟ وكيف سيتعامل مع الناس عندما يترك العمل في صناعة الكمبيوتر وينضم إلى المجتمع المتحضر؟ وبعد استنفاد أقصى طاقاته في التعامل لمدة طويلة مع الآلات فهل سيتمكن من إدارة الحديث بمفرده؟ ما الذي سيعود عليه بعد قضاء سنوات عدة في التعامل مع أجهزة الكمبيوتر؟ ألن يكون على الأقل قد تعلم التفكير المنطقي؟ ألن يصبح المنطق حينئذ طبيعة ثانية لديه؟

يود جون أن يؤمن بذلك، ولكنه لا يستطيع، وفي النهاية يفقد احترامه لأي شكل من أشكال التفكير يمكن إدخاله في دوائر الكمبيوتر، وكلما تعامل مع هذا الجهاز بدا له مثل الشطرنج: عالم صغير تحكمه قواعد مصطنعة، عالم يمتص الأولاد الذين لديهم

قابلية للتأثر ويحولهم إلى أنصاف مجانين مثله، لأنهم يعيشون تحت وهم أنهم يلعبون الشطرنج، بينما في الحقيقة الشطرنج هو الذي يلعب بهم.

ولكن لا يزال أمامه متسع من الوقت للهروب من هذا العالم، وإلا عليه أن يتعايش مع هذا العالم كما يفعل الشبان الآخرون من حوله، وهو أن يعيش حياة مستقرة مع زوجة في بيت ولديهما سيارة، ويتعامل مع واقع الحياة، ويغرق في العمل. ومما يحزنه أن يرى مبدأ الواقعية موضع التطبيق، وكيف أن الفتى تحت وطأة الوحدة يختار الفتاة ذات الشعر الأغبر والسيقان البدينة. وكيف أن كل إنسان يجد في النهاية شريكا أو شريكته. وهل مشكلته ببساطة أنه كان طوال الوقت يغالي في تقدير قيمته في السوق، وكان يخدع نفسه باعتقاده أن مكانه المناسب مع فنانات يعملن في النحت والتمثيل، بينما هو في الحقيقة أقرب إلى مدرسة رياض الأطفال في المجمع السكني أو مديرة محل أحذية تحت التمرين.

الزواج: من يتخيل أن لديه أدنى رغبة في الزواج؟ ولن يستسلم، إذ لم يحن الوقت بعد، ولكن لا يزال هذا الخيار ماثلا في مخيلته في ليالي الشتاء الطويلة وهو يأكل الخبز والنقانق أمام مدفأة الغاز ، ويستمع إلى الراديو، وقطرات المطر تقرع زجاج النافذة.

الفصل التاسع عشر

الجو ممطر، ويجلس جون وجناباتي وحدهما في المقصف يلعبان الشطرنج، وجناباتي هو الفائز في اللعب دائما، ويقول جناباتي لجون: «يجب أن تذهب إلى أمريكا، بل يجب أن نذهب جميعا، إذ إننا نضيِّع وقتنا هنا». ويهز جون رأسه قائلا: «هذا كلام غير واقعي»، وقد فكر جون أكثر من مرة في البحث عن عمل في أمريكا، لكنه قرر البقاء في إنجلترا، وهو قرار صحيح وحكيم، إذ إنه كمبرمج لا يتمتع بمواهب متميزة، وزملاؤه في فريق كمبيوتر «أطلس» قد لا يحملون درجات جامعية مثله، ولكن أذهانهم أكثر صفاء، وهم أسرع وأمهر منه في حل المشكلات الخاصة بالكمبيوتر، ومشاركته ضعيفة في المناقشات، ويتظاهر بأنه يفهم ما يدور فيها، بينما هو حقيقة ليس كذلك، إذ يحاول فهمها فيما بعد، وهل المؤسسات التجارية في أمريكا في حاجة إلى شخص مثله؟ وأمريكا ليست إنجلترا، إذ هي أشد قسوة وصرامة، إذ لو حصل شخص، بمعجزة، على وظيفة هناك عن طريق النصب والاحتيال، فسرعان ما يكتشف أمره. كما سبق أن قرأ ما كتبه «ألان جنزبرج» و«وليم باراز»، وعرف منهما كيف تعامل أمريكا الفنانين، إذ تصيبهم بالجنون وتحبسهم وتطردهم.

ويقول «جناباتي» لجون: «يمكنك الحصول على منحة دراسية من إحدى الجامعات، كما حصلت أنا، وأنا واثق بأنك لن تجد

صعوبة في ذلك»، ويحدّق جون طويلا، ويتساءل في قرارة نفسه: هل «جناباثي» بمثل هذه البراءة والسذاجة حقا؟

ألا يعرف أن هناك حربا باردة تدور بين أمريكا وروسيا، وأن الدولتين تتنافسان على استقطاب قلوب الهنود والعراقيين والنيجيريين وعقولهم، وأن المنح الدراسية في الجامعات هي أحد الحوافز المقدمة؟ ولا تهتم الدولتان بقلوب البيض وعقولهم، خاصة البيض الذين يعيشون في أفريقيا، التي ليست موطنهم الحقيقي، ويرد جون قائلا: «سأفكر في هذه المسألة»، ويغير الموضوع ولا يعتزم التفكير فيه.

نشرت صحيفة «الجارديان» على صفحتها الأولى صورة لجندي فيتنامي في زي جندي أمريكي يتطلع في عجز إلى بحر من اللهب، ويقول «المانشيت» الرئيسي للصحيفة: هجمات انتحارية تلحق الخراب والدمار بفيتنام الجنوبية، إذ اخترقت مجموعة من المتسللين من قوات فيتكونج الأسلاك الشائكة المحيطة بالقاعدة الجوية الأمريكية في بليكو، وفجروا أربعا وعشرين طائرة، وأشعلوا النار في مستودعات الوقود، وضحوا بحياتهم في هذا العمل.

وجناباثي يريه الجريدة والفرح باد على وجهه، والرغبة في التشفي تلمؤه، فمنذ وصوله إلى إنجلترا والصحف البريطانية وإذاعة الـ «بي بي سي»، تنقلان أخبار العمليات العسكرية الأمريكية الكبيرة التي يقتل فيها أفراد فيتكونج بالآلاف من دون أن يلحق بالأمريكان أي أذى، وإذا كان هناك أي نقد للأمريكان، فيكون في صورة مخففة، وهو لا يطيق قراءة أخبار الحرب التي

تثير اشمئزازه، والآن قام الفيتكونج بهذا العمل البطولي الذي لا ينكره أحد ردا على الأمريكان.

ولم يناقش جون وجناباثي موضوع فيتنام أبدا، لأن جون يعلم أن جناباثي درس في أمريكا، ومن المفترض أن يؤيد الأمريكان أو لا يهتم بالحرب كباقي العاملين في الشركة، وفجأة يبتسم جناباثي وتلمع عيناه، ويظهر وجهه الحقيقي الذي كان يحاول إخفاءه، فعلى رغم إعجابه بكفاءة الأمريكان وحنينه للهامبورجر، فإنه يقف في صف الشعب الفيتنامي لأنهم إخوته الآسيويون، ولم يعودا يذكران أي شيء عن فيتنام.

ولكن يتعجب جون مما يفعله جناباثي في إنجلترا، في المناطق المحيطة بلندن، وانشغاله في مشروع لا يحترمه، أليس من الأفضل أن يكون هناك في آسيا يقاتل الأمريكان؟ هل يصح أن يقول له ذلك؟ وماذا عنه هو؟ إذا كان قدر جناباثي أن يكون في آسيا، فأين قدره هو؟ وهل سيتغاضى الفيتكونج عن أصله ويقبلون خدمته؟ إن لم يكن كجندي أو مقاتل انتحاري فليعتبروه حمالا بسيطا؟ وإذا لم يقبلوه فماذا عن الصينيين، أصدقاء فيتكونج وحلفائهم؟

ويكتب جون خطابا إلى السفارة الصينية في لندن، ونظرا إلى أنه يعرف أن الكمبيوتر غير مستخدم في الصين، فهو لا يذكر أي شيء عن البرمجة، بل يعرض خدماته لتدريس اللغة الإنجليزية في الصين، إسهاما منه في حركة الكفاح والنضال في العالم، ولا يهمه الأجر الذي يتقاضاه، وفي انتظار الرد من السفارة يشتري جون كتاب «علم نفسك اللغة الصينية»، ويبدأ

في التدرب على نطق الأصوات الغريبة في لهجة الماندرين، وتمر أيام من دون أن يتلقى ردا من السفارة، ويتساءل: هل اخترقت المخابرات البريطانية خطابه ودمرته، أم هل اخترقت ودمرت جميع الرسائل المرسلة إلى السفارة؟ إذا كان الأمر كذلك، فلماذا يسمح بوجود سفارة صينية في لندن؟ وهل نقلت المخابرات البريطانية خطابه إلى وزارة الداخلية، وأبلغتها أنه اعتنق المبادئ الشيوعية؟ وهل سيفقد وظيفته ويطرد من إنجلترا لأسباب سياسية؟ إذا حدث ذلك، فلن يحتج لأن القدر سيقول كلمته، وعليه أن يقبلها.

وفي زياراته إلى لندن، لا يزال يتردد على دور السينما، ولكن ضعف بصره يقلل من استمتاعه بالأفلام، وهو يجلس في الصف الأول ليتمكن من قراءة الترجمة، ولكن ذلك يرهق عينيه، ويذهب إلى طبيب عيون ينصحه بارتداء نظارة طبية، وفعلا يشتري نظارة سوداء ذات إطار عاجي، وعندما يقف أمام المرآة يشاهد صورة العالم البحاثة الذي أشار إليه الميجور آركرايت مازحا، وعندما يتطلع من النافذة يندهش لأنه يرى أوراق الشجر كلا على حدة، بينما قبل ذلك يراها كتلة خضراء واحدة غير محددة، فهل كان من المفروض أن يرتدي نظارة منذ صغره؟ وهل لهذا السبب هو ضعيف في لعبة الكريكيت، إذ تأتي الكرة تجاهه طوال الوقت من حيث لا يدري؟

ويقول بودلير: إن الإنسان في أواخر أيامه يبدو في شخصيته المثالية، فالوجه الذي نولد به يحل محله بالتدريج الوجه المرغوب، الوجه الذي يعبر عن أحلامنا الخفية، وهل الوجه الذي يراه في

المرآة هو وجه أحلامه، ذلك الوجه المكتئب الحزين مع الشفاه الطرية والسميكة؟ والآن العينان المختبئتان خلف زجاج النظارة.

وأول فيلم يشاهده بالنظارة الجديدة هو فيلم «إنجيل متّى» للمخرج باسوليتي، وقد هزه هذا الفيلم من أعماقه، فعلى رغم أنه تعلّم في المدارس الكاثوليكية لمدة خمس سنوات، فإنه لم يكن متمسكا بتعاليم الدين المسيحي، ولكن هذا الفيلم جعله يكتشف أنه ليس كذلك، فقد أثر فيه المشهد الذي حاول أعداء المسيح صلبه ووضع مسامير على أصابعه، ولكن يظهر ملاك يقول للنساء المنتحبات: لا تنظرن إلى القبر فهو خال، فقد رفع الله المسيح إلى السماء، وهنا يظهر الناس البسطاء والعُرج والمشوهون والفقراء والمهمشون، والفرح بادٍ على وجوههم، ويشاركهم جون الفرحة، ودموع الفرح تنساب على وجنتيه، وقلبه يكاد يرقص فرحا، ثم يجفف دموعه قبل أن يغادر السينما إلى دنيا الواقع.

وفي نافذة إحدى المكتبات - التي تبيع الكتب المستعملة - المتفرعة من شارع «تشارنج كروس»، يشاهد جون كتابا صغيرا بغلاف بنفسجي اللون اسمه «وات» من تأليف «صمويل بيكيت»، والناشر «أوليمبيابرس»، وهي دار نشر سيئة السمعة؛ تنشر كتبا إباحية باللغة الإنجليزية، وترسلها إلى المشتركين في إنجلترا وأمريكا، ولكن، كنشاط جانبي، تنشر الكتب الجريئة للرواد الطلائع، مثل رواية «لوليتا» لـ «فلاديمير نابوكوف». ومن المؤكد أن صمويل بيكيت مؤلف «في انتظار جودو» و«إندجيم» يكتب أدبا مكشوفا، ولكن كتاب «وات» من أي نوع من الكتب؟ ويتصفح جون هذا الكتاب المطبوع بنفس طريقة طباعة القصائد المختارة لباوند،

وهي طريقة تثير فيه الحميمية والألفة والثقة، ويشتري جون الكتاب ويأخذه معه إلى منزله، ومن أول صفحة يكتشف أنه اشترى كتابا قيما، ويستغرق في قراءته وهو مستند إلى السرير.

ومسرحية «وات» تختلف تماما عن باقي مسرحيات «بيكيت»، إذ ليس فيها صراع بين الشخصيات، بل هي مجرد شخصية تروي قصة تنساب أحداثها مع ما فيها من شكوك ووساوس، وتمضي أحداثها بالسرعة نفسها التي يفكر بها، وهي مسرحية مضحكة، لدرجة أنه ما إن ينتهي من قراءتها حتى يبدأ قراءتها من جديد.

ولماذا لم يخبره أحد أن «بيكيت» كتب قصصا طويلة؟ وهل كان من الممكن أن يتخيل أن يكتب بأسلوب «فورد» نفسه إذا علم أن مؤلفات «بيكيت» موجودة طوال الوقت؟ ففي دراسته لفورد كان هناك دائما شخص مفرط في الخيلاء والعُجب من غير مبرر، وهو ما يمقته، ولكنه كان مضطرا إلى الاعتراف به، شيء يتعلق بالقيمة التي وضعها فورد في معرفة من أين يمكن شراء أفضل قفازات لقيادة السيارات في وست إند، أو معرفة الفرق بين نبيذ ميدوك وبون، في حين أن بيكيت لا يهتم بالترتيب الطبقي، إذ هو خارج الطبقات كما يحب أن يطلق على نفسه.

يجب اختبار البرامج التي أعدوها على جهاز أطلس في كامبريدج، وذلك أثناء الليل عندما يكون علماء الرياضيات، الذين هم أول من تعامل مع هذا الجهاز، يغطون في نوم عميق، ولذلك يركب جون القطار كل أسبوعين أو ثلاثة إلى كامبريدج ومعه حقيبته، التي يضع فيها أوراقه والبطاقات المثقبة وبيجامة وفرشاة أسنان، وأثناء وجوده هناك يقيم في فندق رويال على نفقة

الشركة، ويعمل من السادسة مساء حتى السادسة صباحا، ثم يعود إلى الفندق ويتناول الإفطار ثم يخلد إلى النوم. وفي المساء يقوم بجولة حرة في المدينة أو يشاهد فيلما، ثم يحين موعد العودة إلى مختبر الرياضيات، وهو مبنى كبير يشبه الهناجر، للعمل فيه طوال الليل، وهكذا.

وهو سعيد جدا بهذا الروتين، فهو يحب السفر بالقطار والإقامة في الفنادق، حيث لا يعرفه أحد، كما يحب الإفطار الإنجليزي بتعدد أصنافه من لحم مدخن ونقانق وبيض وتوست ومربى وقهوة، ونظرا إلى أنه لا يلتزم بارتداء بدلة، فهو يختلط بسهولة مع الطلبة في الشوارع، بل يبدو كأنه واحد منهم، وهو يقضي الليلة وحده في المختبر باستثناء المهندس المناوب، ويشاهد رول رمز الكمبيوتر الذي كتبه يدخل في قارئ الشريط، والشرائط الممغنطة تبدأ في الدوران، وأنوار جهاز التحكم تضيء بناء على أوامره، وهذا كله يعطيه إحساسا بالقوة، وهو يعلم أن هذا الإحساس طفولي، لكنه يجد فيه لذة ومتعة، وأحيانا يبقى جون في المختبر بعد انتهاء ساعات عمله للتباحث مع أساتذة قسم الرياضيات، لأن كل ما هو جديد في برامج أطلس لا يأتي من الشركة، بل من مجموعة صغيرة من علماء الرياضيات في كامبريدج، ولذلك فهو، من وجهة نظر معينة، ليس سوى عضو في فريق من المبرمجين المحترفين العاملين في صناعة الكمبيوتر، الذين استأجرهم قسم الرياضيات من كامبريدج لتنفيذ أفكاره.

كما أن جامعة مانشستر استأجرت «إنترناشونال كمبيوترز»، وهي شركة تضم مهندسين لبناء كمبيوتر من تصميمها، ومن هذا

المنطلق، فهو ليس سوى عامل ماهر تدفع له الجامعة أجره، وليس شخصا يتعاون على قدم وساق مع هؤلاء العلماء الشبان المرموقين، وهم مرموقون حقا، فهو أحيانا يهز رأسه مندهشا مما يحدث، إنه خريج غير مرموق من جامعة درجة ثانية في إحدى المستعمرات، يسمح له بمخاطبة أساتذة في الرياضيات حاصلين على الدكتوراه بأسمائهم الأولى من دون تكلف، وهم بمجرد أن يتحدثوا إليه يشعر بدوار، والمشكلات التي يجهد نفسه من أجل حلها في أسبوع ينجحون في حلها في لمح البصر. وكثيرا ما يفكر في مشكلات يظن أنها حقيقية، فيما هي بالنسبة إليهم ليست كذلك، لكنهم يوافقونه على ذلك إرضاء له، وهو يتساءل: هل أولئك العلماء - بسبب تعمقهم في منطق الكمبيوتر - لا يكتشفون كم هو غبي، أو لا يدركون ذلك لأسباب يجهلها، إذ هو بالنسبة إليهم لا شيء، ويحرصون، بسبب سمو أخلاقهم، على عدم المساس بكرامته في أثناء وجوده معهم، وهل المدنية والحضارة اتفاق ضمني غير مكتوب على عدم إراقة ماء وجه أي شخص أيا كان قدره؟ وهو يعتقد أن تلك هي طريقة اليابانيين في التعامل مع الناس، فهل ينطبق ذلك على إنجلترا أيضا؟ وأيا كانت الحال، فإن ذلك بلا شك موضع الإعجاب.

وجون الآن في كامبريدج في حرم إحدى الجامعات العريقة، ويختلط بعلماء عظام، بل سُلم مفتاحا للباب الجانبي لمختبر الرياضيات لدخوله في أي وقت يشاء، ماذا يأمل أكثر من ذلك؟! ولكنه يجب أن يحاذر من شدة الحماس ومن تضخيم الذات، إذ هو هنا مصادفة ليس إلا، فمن المستحيل أن يكون طالبا في تلك

الجامعة، أو يستحق الحصول على منحة دراسية منها، ويجب أن يستمر في النظر إلى نفسه على أنه مجرد أجير، وإلا فسيصبح دجالا بالطريقة نفسها التي كان بها «جود فولي» وسط أجراس أكسفورد الحالمة، وسيأتي يوم قريب تنتهي فيه مهمته في كامبريدج ويسلم المفتاح ويكف عن تردده عليها، ولكن فليستمتع بوجوده فيها قدر الإمكان، على الأقل في الوقت الراهن.

الفصل العشرون

... وتدور عجلة الزمان... وهذا هو ثالث صيف يقضيه جون في إنجلترا، وبعد الغداء، وعلى المساحة الخضراء الموجودة خلف قصر الضيعة، يقوم وزملاؤه المبرمجون بلعب الكريكيت بكرة تنس ومضرب قديم وجدوه في مخزن المكانس، وهو لم يلعب الكريكيت منذ انتهاء دراسته الثانوية، إذ قرر عندئذ ألا يلعبها بالمرة، على أساس أن الألعاب الجماعية لا تتفق مع حياة الشعراء والمثقفين، ولكنه يندهش الآن؛ لأنه لا يستمتع باللعبة فحسب بل يجيدها أيضا.

وجميع الضربات التي كان يفشل فيها وهو صغير ترتد إليه من تلقاء نفسها بسهولة ويسر لم يعهدهما؛ لأن ذراعيه أصبحا أكثر قوة ولم يعد يخشى الكرة. وهو الآن أكثر مهارة في اللعب كمهاجم ومدافع عن باقي اللاعبين، وهو يسأل نفسه كيف كان هؤلاء الشبان الإنجليز يقضون أيامهم أثناء الدراسة؟ وهل عليه - وهو أحد أبناء المستعمرات - أن يعلمهم اللعبة الخاصة بهم؟

وبدأ اهتمامه بالشطرنج يضعف، وزاد اهتمامه بالقراءة من جديد، ومكتبة براكنيل صغيرة ولا تفي بالغرض، ولكن أمناء المكتبة مستعدون لطلب أي كتاب يريده من المكتبات الأخرى بالمحافظة، وهو يقبل على قراءة تاريخ المنطق، ويدرك بالبديهة أن المنطق من اختراع الإنسان، وليس جزءا من كيانه (وهناك بضع خطوات ناقصة، ولكنه يمكن أن ينجزها فيما بعد)،

ولذلك فإن أجهزة الكمبيوتر ليست سوى لعب أطفال من اختراع أطفال (بقيادة «تشارلز بابدج»). وهو مقتنع بأن هناك أكثر من منطق بديل (ولكن كم عددها؟)، وكل منها لا يقل في قيمته عن منطق إما - وإما، وخطر اللعبة التي يكسب منها قوت يومه، والخطر الذي يجعلها أكثر من مجرد لعبة، هي أنها ستحرق مسارات إما - وإما في أدمغة مستخدميها، وبالتالي تقيدهم على الدوام في المنطق الثنائي الخاص بها. ويقبل جون على قراءة أرسطو و«بيتر راموس» و«رودلف كارناب»، ولا يفهم معظم ما يقرأه، غير أنه معتاد على ذلك. وكل ما يبحث عنه في الوقت الحاضر هو تلك اللحظة التاريخية التي يتم فيها اختيار إما - وإما، والتخلي عن و / أو.

وهو يقضي أمسياته مع كتبه ومشروعاته (يقترب الآن من الانتهاء من كتابة رسالته عن فورد، وتعرية المنطق)، ويلعب «الكريكيت» ظهرا، وكل أسبوعين يستمتع بالإقامة في فندق رويال، وبالتعامل مع جهاز أطلس لبضع ليال، وهو أعظم جهاز في العالم. وهل يمكن أن تكون حياة الأعزب - إذا كانت له حياة بالفعل - أفضل من ذلك؟

ولكن هناك شيئا واحدا ينغص عليه حياته، فقد مضى عام دون أن يكتب شطرا واحدا من الشعر، فما الذي حدث له؟ وهل صحيح أن الفن لا يولد إلا من رحم البؤس؟ وهل عليه أن يعود بائسا لكي يتمكن من نظم الشعر؟ ألا يوجد شعر النشوة، أو حتى شعر لعب الكريكيت وقت الغداء كشكل من أشكال النشوة؟ وهل مهم أن يعرف الشعر أين يجد ما يحرك إلهامه مادام هو شعرا؟

وعلى رغم أن أطلس جـهـاز يعــالج النصـوص فــإن جـون يستخدمه في الأوقات الخالية من الليل لطباعة آلاف من أبيات الشعـر من قصـائد «بابلونيرودا»، مـستخـدمـا قـائمـة من أقوى الكلمـات الموجودة في كتـاب «مـرتفعـات مـاكو بيكو» في تـرجـمـة ناثانييل تارن، ويأخذ معه تلك الحزمـة السميكة من الأوراق إلى فندق «رويال» وينكب على قراءتها «الحنين لإبريق الشاي»، «حب شـيش النوافـذ» «خـيـالـة هائجـون» وإذا لم يسـتطع في الوقت الحاضر أن يكتب شعرا نابعا من القلب لأن القلب ليس في حالة تناسب ذلك، فـهل يمكنه على الأقل تجـمـيع عبارات خـارجـة من الجهاز ووضعها على شكل أشباه قصائد، وهكذا يتعلم الكتابة من جديد من خـلال حـركة أصـابعـه على الـورق؟ وهل من العدل أن يستخدم وسائل آليـة في الكتابة، العدل بالنسبة إلى الشـعـراء الآخرين ولكبار الشعراء الأموات؟ لقد كتب الشعراء السيرياليون قصاصـات من الورق ووضعوها في قـبـعـة وأخذوا منهـا كلمـات بطريقـة عشـوائيـة لنظم أبيـات شـعـر. كما أن «وليم باراز» يقطع صـفحـات ويخلطها بعضهـا مع بعض ثم يكون منهـا جـمـلا، فهل ينوي جـون أن يفـعل الشيء نفسـه؟ وهل يوجـد شـاعـر آخـر في إنجلتـرا لديه مثل هذه الإمكانات الضخـمـة، المتـمـثلة في جـهـاز كمبيوتر بهذا الحجم؟ وهل سيكون الكم في إنتاجه على حساب الكيف؟ هل يمكن القول بأن اختـراع الكمبيـوتر قد غير طبيـعـة الفن وجعل الكاتب، وحـالة قلبه، غير ذي موضـوع؟ وفي البرنامج الثـالث ألا يسـمـع مـوسـيـقى مـذاعـة من اسـتـديوهات إذاعـة «كولونيـا» عبـارة عن مـوسـيـقى مجـمـعـة من نغـمـات وأصـوات

إلكترونية وضوضاء الشوارع وقطع من تسجيلات قديمة وأجزاء من كلام؟ ألم يحن الوقت لأن يلحق الشعر بالموسيقى؟

ويرسل جون مختارات من أشعار نيرودا لصديق له في كيب تاون ينشره له في مجلة يقوم بتحريرها. وتقوم صحيفة محلية بإعادة طبع إحدى القصائد المنتجة بواسطة الكمبيوتر مع تعليق ساخر، ولمدة يوم أو يومين يشير الناس في كيب تاون إلى جون على أنه شخص بغيض وهمجي، يريد أن يستبدل الآلة بـ شكسبير.

وبالإضافة إلى جهازي كمبيوتر أطلس الموجودين في كامبريدج ومانشستر يوجد جهاز ثالث بمركز أبحاث الأسلحة النووية، التابع لوزارة الدفاع، والكائن خارج «ألدرماستون» القريبة من براكنيل، وبعد اختبار البرامج التي تشغل أطلس في كامبريدج يجري تركيبها على الجهاز الموجود في ألدرماستون، ويقوم بتلك العملية المبرمجون الذين أعدوا البرنامج، وهم يخضعون لإجراءات أمنية مشددة، ويطلب منهم تعبئة استبيان طويل عن أسرهم وتاريخهم الشخصي وخبراتهم السابقة، كما يزورهم في البيت أشخاص يقدمون أنفسهم على أنهم من الشرطة، لكنهم في الحقيقة من المخابرات الحربية. وبعد الانتهاء من الإجراءات الأمنية يعطى المبرمجون البريطانيون بطاقات تحمل صورهم وأسماءهم يضعونها حول رقابهم، وبعد دخولهم الموقع يصحبهم رجال الأمن إلى مبنى الكمبيوتر، حيث يتجولون فيه دون قيود.

ولكن بالنسبة إلى جناباثي وجون نفسه فالإجراءات الأمنية أشد لأنهما أجنبيان، أو على حد قول جناباثي ليسا أمريكيين،

وعند دخولهما الموقع يخصص موظف أمن لمرافقة كل منهما أثناء تجولهما ومراقبتهما في جميع الأوقات، وعدم الاشتراك في أي حديث معهما. وعندما يدخلان دورة المياه يقف حراس على الباب، وعندما يأكلان يقف الحراس خلفهما، ومسموح لهما بالحديث مع موظفي شركة «إنترناشونال كمبيوترز» فقط.

وعندما يعود جون بالذاكرة إلى أيام عمله مع السيد «بومفريت»، في شركة IBM، وإلى الدور الذي لعبه في تطوير قاذفة القنابل TSR-2، يشعر بأنها تافهة بل مضحكة، وأن ضميره مستريح، وأما في ألدرماستون فالأحوال فيها تنذر بالسوء. وهو يقضي هناك ما مجموعه عشرة أيام على مدى بضعة أسابيع، يجب أن تكون التعليمات اللازمة لجدول الشرائط جاهزة، وتعمل بشكل جيد في كامبريدج، وقد أنجز مهمته على أكمل وجه. ومما لا شك فيه أن هناك من كان يستطيع تركيب التعليمات غيره، ولكن ليس بمثل كفاءته، خاصة أنه من قام بإعدادها وملم بها إلماما جيدا. وكان من الممكن أن ينتحل عذرا لعدم إتمام المهمة (أن يقول مثلا إنه موضع مراقبة طوال الوقت من حراس ذوي وجوه جامدة، الأمر الذي ينعكس على حالته النفسية). ولكنه لم يفعل ذلك، وربما كان السيد بومفريت نكتة ولكن «ألدرماستون» قطعاً ليست كذلك، وهو لم يعرف مكانا مثل ألدرماستون، فجو العمل فيها يختلف عن كامبريدج، والمكتب الذي يعمل به غير مؤثث جيدا، ومنظره قبيح، ومصمم فقط لتأدية العمل. والقاعدة بأكملها عبارة عن مبان منخفضة ومتناثرة من الطوب، وشكلها قبيح بصورة تدل

على أن لا أحد ينظر إليها أو يهتم بها، ربما على اعتبار أنها معرضة للدمار في حالة الحرب.

ومما لا شك فيه أنه يوجد أشخاص لا يقلون مهارة عن الرياضيين بجامعة كامبريدج، ومن المؤكد أن من بين العاملين بالقاعدة من هم من خريجي تلك الجامعة، مثل مشرفي العمليات وضباط البحوث، والضباط الفنيين من الدرجات الأولى والثانية والثالثة، وكبار الضباط الفنيين، وهم الذين يمنع التحدث إليهم، وقد قام جون بكتابة التعليمات التي يقوم بتركيبها، ولكن الإعداد لها قام به أساتذة كامبردج الذين لا يعرفون أن الجهاز الموجود في مختبر الرياضيات لديهم له مثيل في ألدرماستون وأيدي أساتذة كامبردج ليست أكثر نظافة أو براءة من يديه هو، ولكنه بدخوله تلك القاعدة وتنفس هوائها ساعد في سباق التسلح، وأصبح متواطئا في الحرب الباردة وفي الجريمة أيضا.

ويبدو أن الامتحانات تأتي دون سابق إنذار هذه الأيام، على عكس ما كان عليه الحال وهو طالب بالمدرسة، بل حتى لا تأتي في صورة امتحانات، ولكن حتى في هذه الحالة لا يمكن التذرع بعدم الاستعداد، فمنذ اللحظة الأولى التي سمع فيها اسم «ألدرماستون» أدرك أنها ستكون امتحاناً وأنه لن ينجح فيه، وسيفتقد ما يؤهله لاجتيازه، إذ بموافقته على العمل هناك باع نفسه للشر وهو من وجهة نظر معينة يستحق اللوم أكثر من زملائه الإنجليز الذين إذا كانوا قد رفضوا المشاركة في العمل في القاعدة لكانوا قد عرضوا مستقبلهم الوظيفي للخطر أكثر منه هو، فهو مجرد شخص عابر دخيل على هذا النزاع بين بريطانيا

وأمريكا من جهة وروسيا من جهة أخرى.

التجربة: هذه هي الكلمة التي يتذرع بها لتبرير نفسه لنفسه. فالفنان يجب أن يمر بكافة التجارب - من أنبلها إلى أحقرها. وإذا كان قدر الفنان أن يمر بأسمى درجات الغبطة والسرور عندما يهبط عليه إلهام الفن، عليه أيضا أن يهيئ نفسه لاختبار كل ما هو حقير ودنيء ويدعو إلي الخزي والعار في الحياة.

وفي سبيل اكتساب الخبرة والتجربة عاش جون قسوة الحياة في لندن، بأيامها الصعبة في شركة IBM وشتائها القارس عام ١٩٦٢، وتجاربه العاطفية الفاشلة، وهي مراحل يمر بها الفنان في حياته ويمتحن فيها روحه. كما أن ألدرماستون - بالمكتب التعيس الذي يعمل فيه وأثاثه البلاستيك ومنظره المطل على فرن، والرجال المسلحين الذين يقفون وراء ظهره - يمكن اعتباره مجرد تجربة وخطوة أخرى في الطريق المؤدي إلى الأعماق.

ولكن هذا تبرير لا يقتنع به البتة، بل هو مجرد سفسطة تبعث على الازدراء والاحتقار. وإذا كان سيحاول إقناع نفسه بأكاذيب، بأنه كان يسعى إلى التعرف عن قرب على الحقارة والدناءة الفكرية ففي هذه الحالة تكون السفسطة أكثر مدعاة للازدراء والاحتقار، ولا يمكن الدفاع عنها، لأنه لا يوجد في الحقيقة ما يمكن أن يقال عنها. وأما عن صدق الأمانة فهي ليست لعبة من الصعب تعلمها، بل هي - على العكس - أسهل شيء في الوجود. وكما أن الضفدع السام لا يسم نفسه؛ فإن جسم الإنسان تنمو عليه درع واقية تحميه من أمانته وصدقه، الموت للمنطق! الموت للكلام! وكل ما يهم في هذا الصدد هو

عـمل الـشيء الـصـحـيح، سـواء من باب المنطق السليم أو المنطق الفاسد، أولا منطق على الإطلاق.

وعمل الشيء الصحيح ليس أمرا صعبا ولا يحتاج إلى وقت طويل. وكان بإمكان جون أن يفعل الشيء الصحيح بدقة شبه متناهية، من دون الوقوع في الخطأ والزلل. والشيء الذي يعطله عن ذلك هو محاولة معرفة الاستمرار كشاعر مع عمل الشيء الصحيح في آن واحد. فعندما يتخيل أي نوع من الشعر يمكن أن ينبثق من عمل كل ما هو صحيح مرة تلو الأخرى؛ فإنه لا يرى سوى الفراغ. فالشيء الصحيح ممل، وهو في موقف لا مخرج منه: والأفضل أن يكون سيئا على أن يكون مملا، ولا يحترم شخصا يفضل أن يكون سيئا على أن يكون مملا، كما لا يحترم إنسانا ماهرا يستطيع أن يعبر عن محنته بأسلوب أنيق.

وعلى رغم الكريكيت والكتب، وعلى رغم زقزقة الطيور والعصافير عند شروق الشمس وهي واقفة على شجرة التفاح تحت النافذة، فإن عطلات نهاية الأسبوع وخاصة أيام الآحاد، تمر عليه ببطء. وهو يخشى الاستيقاظ صباح الأحد، ولكن هناك طقوسا تساعده على قضاء ذلك اليوم، يأتي في مقدمتها الخروج من البيت وشراء صحيفة وقراءتها وهو جالس على الأريكة يقص مسائل الشطرنج الموجودة بها، ولكن قراءة الصحيفة تنتهي عند الساعة الحادية عشرة صباحا، كما أن ملاحق الأحد من الواضح أنها وسيلة إلى قتل الوقت.

وهو يقتل الوقت بالفعل، ويحاول قتل يوم الأحد؛ حتى يأتي

الإثنين مسرعـا، حيث يجد في العـمل الراحـة والسلوى. ولكن بمعنى أكبر يعتبر العمل وسيلة إلى قتل الوقت أيضا، فكل ما فعله منذ أن وطئت قدماه شاطئ ميناء ساوثهامبتون كان لقتل الوقت في انتظار نصيبه الموعود، ويقول لنفسه إن هذا النصيب لن يأتيه في جنوب أفريقيا، وإذا أتاه (إذا كان على هيئة عروس) فسوف يكون ذلك في لندن أو باريس أو فيينا، لأن النصيب الموعود لا يوجد إلا في المدن الأوروبية العظيمة، ولقد انتظر قرابة عامين في لندن وعانى فيهما الكثير دون أن يأتيه نصيبه الموعود، والآن، بعد أن فقد القوة التي يستعين بها على تحمل لندن، انسحب إلى أعماق الريف انسحابا إستراتيجيا، وليس من المؤكد أن النصيب الموعود يزور الريف، ولا حتى الريف الإنجليزي الذي لا يبعد أكثر من مدة ساعة بالقطار من محطة «ووترلو».

وهو بالطبع يعرف في قرارة نفسه أن نصيبه الموعود لن يزوره إلا إذا جعله هو يفعل ذلك، فالطريقة الوحيدة لذلك هي الجلوس والكتابة. ولكن عليه أن ينتظر إلى أن تأتي اللحظة المناسبة. ولكن على رغم حرصه على تهيئة نفسه للكتابة - بتنظيف المائدة ووضع الأباجورة عليها، وعمل هامش بالورقة، والجلوس مغمض العينين وبذهن صاف - فإن الكلمات تخونه، أو بالأحرى قد تأتي بعض الكلمات، ولكنها ليست مناسبة، ولكنه سيعرف على الفور من وزن الجملة أنها الموعودة.

وهو يكره هذه المواجهات مع الصفحة البيضاء ويحاول تجنبها، وهو لا يطيق ثقل اليأس الذي يحل به في نهاية كل دورة فاشلة، مما يجعله يدرك أنه فشل من جديد. والأفضل ألا يداوي الإنسان

جراحه بهذه الطريقة باستمرار، وأن يمتنع عن الاستجابة للنداء حينما يأتي، وعندما يكون الإنسان ضعيفا وذليلا.

وهو يدرك تماما أن فشله ككاتب وفشله كعاشق يسيران جنبا إلى جنب في خطين متوازيين كادا يكونان شيئا واحدا، فهو الرجل وهو الشاعر، وهوالمحب، وهو الرجل الذي لا يفترض أن ينتظر أن تعبر المرأة عن حبها له، فالمرأة كالأميرة التي تستيقظ من نومها على قبلة الأمير، أو هي كالزهرة التي تتفتح عندما تداعبها أشعة الشمس.

وما لم تكن لديه الإرادة، فلن يتحقق له شيء سواء في الفن أو في الحب. ولكنه لا يثق في الإرادة، فهو لا يستطيع أن يرغم نفسه على الكتابة، ولكنه ينتظر العون والمساعدة من قوة خارجية يطلق عليها عادة «عروس الشعر»، «ومصدر الوحي والإلهام» (Muse)، لذلك لا يستطيع أن يرغم نفسه على إقامة علاقة عاطفية مع أي امرأة دون نوع من التلميح والإشارة (من أين؟... منها؟... منه؟... من أعلى؟)، وقد تكون هذه المرأة نصيبه الموعود، وإلا فسيقع في شبكة يحاول التخلص منها قبل أن تبدأ.

وهناك طريقة أخرى أشد وأقسى للتعبير عن الشيء نفسه. والواقع أن هناك مئات الطرق يمكن أن يقضي بقية حياته في حصرها وعدها. ولكن أقسى طريقة للتعبير عن ذلك هي القول بأنه خائف، خائف من الكتابة، وخائف من النساء، وبمقدوره أن يستخرج وجوها من القصائد التي يقرأها في «أمبيت» و«أجندة»، ولكنها على الأقل موجودة على الورق، وفي العالم، وكيف يتاح له أن يعرف أن الذين كتبوا تلك القصائد لم

يقضوا سنوات من الألم والعذاب أمام الصفحة البيضاء كما يفعل هو؟! لقد ذاقوا الألم والعذاب لكنهم في النهاية استجمعوا قواهم وكتبوا أفضل ما لديهم وأرسلوه بالبريد، ثم بعد ذلك عانوا ذل رفض أشخاصهم وشعرهم على حد سواء، متجسدا فيما يعيشونه من فقر. وبالطريقة نفسها يمكن لهؤلاء الرجال أن يجدوا عذرا - ولو واهيا - للتحدث مع فتاة جميلة في مترو الأنفاق، وإذا ما أشاحت بوجهها عنه أو وجهت ألفاظا قاسية إلى صديق باللغة الإيطالية تحملوا ذلك في صمت، ويعيدون الكرة مع فتاة أخرى في اليوم التالي، وهكذا يسير العالم. وذات يوم سيكون هؤلاء الرجال والشعراء والمحبون أسعد حظا، إذ سترد عليهم الفتاة مهما كانت رائعة الجمال، وستسير الأمور على ما يرام، وستتحول حياتهم جميعا. إذن ما المطلوب أكثر من هذا النوع من العناد الذي يتسم بالغباء وعدم الحساسية، كمحب وكاتب، مع استعداد للفشل ثم الفشل من جديد؟!

وعيب جون أنه غير مستعد لأن يفشل، فهو يريد أن يحصل على تقدير (أ) أو (ألفا) أو مائة في المائة في أي عمل أو محاولة يقوم بها من كلمة ممتاز بأحرف كبيرة في الهامش، يا له من تفكير صبياني سخيف! وهو ليس في حاجة إلى من يذكّره بذلك. وعلى رغم ذلك فهو يعجز عن تحقيق هذا التفوق، ليس اليوم، ربما غدا، عندما يكون في حالة نفسية أفضل ولديه الشجاعة الكافية.

ولو كان جون إنسانا أكثر حنانا وعاطفية لوجد كل شيء أسهل،

سواء في الحياة أو في الحب أو في الشعر، ولكن ليس من طبيعته دفء العواطف، لكن الشعر لا ينبع من دفء العواطف على أي حال، فلم يكن «ريمبو» أو «بودلير» عاطفيين. وأما الحرارة - وليس الدفء - فهي المطلوبة في الحياة وفي الحب. وجون أيضا قادر على أن يكون حارا، إلا أنه لم يعد يؤمن بذلك، إذ سيظل في الوقت الحاضر، وإلى الأبد، إنسانا باردا، بل عواطفه متجمدة.

إذن ما نتيجة نقص الحرارة ونقص العواطف؟ ها هي النتيجة: فهو يجلس وحده في مساء يوم أحد في غرفة علوية في أعماق ريف «بركشاير»، يسمع نعيق الغربان في الحقول المجاورة، ويرى الضباب في الجو، وهو يلاعب نفسه بالشطرنج، ويتقدم به العمر في انتظار أن يأتي المساء ليقوم وهو مرتاح الضمير بقلي النقانق وإعداد الخبز والمائدة للعشاء. عندما كان في الثامنة عشرة كان من الممكن أن يصبح شاعرا، أما الآن فهو ليس شاعرا أو كاتبا أو فنانا، بل هو مبرمج كمبيوتر في الرابعة والعشرين من عمره، في عالم لا يزيد عمر المبرمجين فيه على الثلاثين. وعندما يصل إلى سن الثلاثين لن يصلح للعمل مبرمجا، وعليه أن ينتقل إلى عمل آخر، وأن يصبح رجل أعمال مثلا، أو ينسحب من الحياة تماما. وبفضل كونه شابا ونظرا إلى أن الخلايا العصبية في دماغه لا تزال نشيطة، فقد ضمن لنفسه موطئ قدم في صناعة الكمبيوتر في بريطانيا، وفي المجتمع البريطاني، وفي بريطانيا ذاتها. وهو وجناباتي وجهان لعملة واحدة، فجناباتي يكاد يموت جوعا ليس لأنه انفصل عن «الهند الأم»، ولكن لأنه

على رغم حصوله على درجة الماجستير في علوم الكمبيوتر، لا يعرف شيئا عن الفيتامينات والمعادن والأحماض الأمينية، ويحبس نفسه في آخر خطوات لعبة الشطرنج، ولم تتبق له إلا قطع قليلة، ويلاعب نفسه، وخطوة بعد خطوة يخسر المباراة، وذات يوم ستأتي سيارة الإسعاف إلى شقة جناباتي وتحمله على نقالة ووجهه مغطى بقطعة قماش، وبعد نقل جناباتي ربما يعود رجال الإسعاف لنقله هو أيضا.

المترجم في سطور

د. شعبان عبدالعزيز عفيفي

● من مواليد جمهورية مصر العربية - ١٩٣٧.

● حاصل على ليسانس آداب - قسم اللغة الإنجليزية - جامعة القاهرة. وماجستير في تدريس اللغة الإنجليزية العامة - جامعة مانشستر. وعلى دكتوراه الفلسفة في تدريس اللغة الإنجليزية المتخصصة - جامعة ويلز (كارديف).

● حاصل على دبلوم عام تربية - جامعة الكويت، ودبلوم خاص تربية - جامعة المنصورة.

● عضو هيئة التدريس بقسم اللغة الإنجليزية - كلية التربية الأساسية، التابعة للهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب بدولة الكويت.

● يعمل حاليا أستاذا في كلية الدراسات التجارية.

● ترجم عدة كتب من العربية إلى الإنجليزية للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة، الذي تولى طبعها ونشرها.

● ترجم العديد من المقالات من الإنجليزية إلى العربية، نشرت في مجلة «الثقافة العالمية»، التي يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت.

● ألف عدة كتب دراسية باللغة الإنجليزية لبعض مراحل التعليم بدولة الكويت.

● له العديد من المقالات في الصحف والمجلات العربية والدوريات العلمية المتخصصة باللغة الإنجليزية.

المراجع في سطور

د. سليمان خالد الرباح.

● من مواليد دولة الكويت - ١٩٥٢.

● حاصل على ليسانس آداب - قسم اللغة الإنجليزية وآدابها - جامعة الكويت ١٩٧٥، وعلى شهادة الماجستير في اللغة الإنجليزية من جامعة ميزوري، والدكتوراه من جامعة أوهايو.

● من الوظائف التي شغلها:

● عضو فني في إدارة العلاقات الثقافية - وزارة التربية، ١٩٨٠ - ١٩٨١.

● محلل ائتمان في بنك الخليج ١٩٨١ - ١٩٨٢.

● مدقق اعتمادات مستندية في بنك الكويت المركزي ١٩٨٢ - ١٩٨٤.

● شغل منصب رئيس وحدة اللغة الإنجليزية في كلية الدراسات التكنولوجية - التابعة للهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب.

● يعمل حاليا أستاذا في كلية التربية الأساسية - التابعة للهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب.

● رواية «الشباب»

تعرض رواية «الشباب» للكاتب ج.م. كويتزي من كتاب جنوب أفريقيا(أحد أبرز أعلام الأدب العالمي) سيرة حياة الكاتب، حيث استطاع كويتزي أن يصوغ ويستعرض قصة حياته في مرحلة الشباب من خلال هذه الرواية، وكيف عانى وواجه صعوبات في سبيل أن يجد هويته ككاتب روائي متميز، على الرغم من نشأته الصعبة في مجتمع جنوب أفريقيا، القائم على مبدأ التمييز العنصري في فترة الستينيات.

وتحكي الرواية قصة صراعه الداخلي كواحد من الأقلية البيضاء في جنوب أفريقيا، وقراره بالهروب من هذا المجتمع القائم على الاستعمار الاستيطاني الجائر والهجرة إلى العاصمة البريطانية، التي اعتبرها وسطا ملائما لتنمية موهبته وتحديد هويته الأدبية، لكونها منبع الأدب الإنجليزي، فاستقر بها وعمل على تنمية قدرته على الكتابة الإبداعية. فالرواية برمتها تمثل استعراضا لما لاقاه الشاب جون بطل الرواية من صعاب جمة في مرحلة الشباب، وكيف بدأ في تشكيل ملامح شخصيته.

ردمك: ٠ - ١٧٢ - ٠ - ٩٩٩٠٦
رقم الإيداع: ٢٠.../٢٠٠٥

